كتاب القدس (١٣)

د. أحمد صدقي الدجاني

القدس

وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة



د. أحمد صدقي الدجاني

القدس

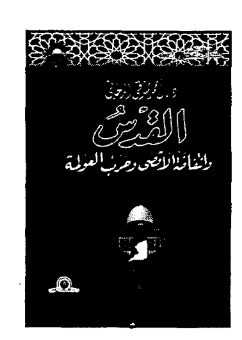
وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة



سلسلة كتاب
القدس (13)

• الكتاب: القـــــدس
وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة
• المؤلــف: د. أحمـد صدقي الدجـاني
• السلسلة: كتاب القدس
• قياس الصفحة: ١٤×٢٠
• رقم الإيداع: ١٠٠٠٠ / ٢٠٠٢
• الترقيم الدولي: ٩-٨٦-٥٢٧٤-٩٧٧
• جميع الحقوق محفوظة

مركز الإعلام العربي
ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
• هاتف: ٣٨٣٣٣٦١ / ٠٠٢٠٢
• فاكس: ٣٨٥١٧٥١ / ٠٠٢٠٢
• الموقع على شبكة الإنترنت:
Home Page:www.Resalah4u.com.
• البريد الإليكتروني:
E .Mail:media-c@ie-eg.com



تصميم الغلاف:
إيهاب عبد الله

• الطبعة الأولى
ربيع الآخر ١٤٢٣هـ
يوليـــــو ٢٠٠٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب يتناول «القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة» من خلال النظر فى أحداث العامين الأولين من القرن الحادى والعشرين الميلادى (١٤٢١ - ١٤٢٣هـ).

يالهما من عامين فى تاريخ الصراع العربى الصهيونى الممتد، شهدنا فيهما محاولة التحالف الاستعمارى الصهيونى الحصول على اعتراف فلسطينى بالاغتصاب الإسرائيلى للقدس، والصمود فى وجه هذه المحاولة، ثم عشنا فيهما انتفاضة الأقصى المباركة، وهى تنطلق وتتتابع شهراً بعد شهر، تهز أركان المستعمر المستوطن الصهيونى، ثم واجهنا فيهما حرب العولمة التى شنتها قوى العولمة الطاغوتية بقيادة الإدارة الأمريكية على المقاومين للعولمة إثر وقوع زلزلة ١١/٩/٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطن، وكانت فلسطين بشعبها العربى الفلسطينى إحدى ساحتين رئيسيتين فيها، والأخرى هى أفغانستان، وقد برزت فيهما على صعيد المقاومين ظاهرة الاستشهاد مع أعظم صور المقاومة، مما أذهل القارونيين الجدد العولميين والصهاينة العنصريين.

يسلط الكتاب أضواء على تاريخ القدس تؤكد عروبة بيت المقدس، ويتناول بالنظر انتفاضة الأقصى فى جذورها ومسارها على مدى تسعة عشر شهراً، ويعرض بالتحليل لظاهرة الاستشهاد التى تألقت فيها، ويتأمل فى الحدث الزلزلة وتداعياته، وفى الحرب الفريدة التى تلته ولا تزال

مشتعلة، وذلك في بحوث ومقالات وحوارات استهدفت تقديم قراءة لهذه الحرب.

حفل هذان العامان بأحداث كثيرة عرض الكتاب إلى كثير منها، وهناك أحداث أخرى جدّت أثناء تحضيره للطبع تستحق أن يوقف أمامها مثلٌ بارز عليها العمل البطولى الذى قامت به الاستشهادية وفاء إدريس، وقد أضاف عنصراً جديداً فى ملحمة المقاومة، فلا أقل من الإشارة إليه، والإشادة بالشهيدة البطلة، وبكل الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم.

حدث آخر هو قمة بيروت العربية التى انعقدت يومى ٢٧، ٢٠٠٢/٣/٢٨ نشير إليه مجرد إشارة دون أن نتناوله بالتحليل والنظر، فعمله لم يظهر بعد، وقد سبقه إعلام مكثف عن «مبادرة» للأمير عبد الله - ولى العهد السعودى - ظهرت خطوطها فى القرار الذى صدر عن القمة متضمناً «مشروع سلام» كما تلا هذا الحدث وانعقاد القمة قيام صاحب المبادرة بزيارة للولايات المتحدة، وتباحثه مع الرئيس الأمريكى بوش.

لقد تضمنت حرب العولمة عملية «الدرع الواقى» الإسرائيلية التى بدأت باجتياح عسكرى إسرائيلى لمدن الضفة الغربية وقطاع غزة يوم ٢٠٠٢/٣/٢٩ فى أعقاب إعلان مشروع سلام القمة العربية، وكان واضحًا أنها تتم بدعم أمريكى مادى ومعنوى، وما أبشع الجرائم التى اقترفتها الصهيونية العنصرية فى هذه العملية، وما أفظع مذبحة مخيم جنين التى أضيفت إلى سلسلة المذابح الإسرائيلية لأبناء فلسطين، وما

أعظم ما تجلى من مقاومة فلسطينية وصمود، وقد عرضنا لبعض ذلك فى «يوميات حرب العولمة» مما جرى فى الأسبوعين الأولين من الاجتياح الذى لم ينته حتى كتابة هذه المقدمة بعد ثمانية أسابيع من مباشرته، ولا تزال المقاومة مستمرة تتتالى فيها العمليات الاستشهادية التى تهز أركان هذا الاستعمار الاستيطانى هزًا، وتفقد المستعمر المستوطن الصهيونى رشده.

إن استمرار المقاومة وتصعيدها هو أحد أهداف هذا الكتاب، الذى رفع شعار «الاعتصام بالمقاومة» وهو يصدر فى وقت يشن فيه التحالف الاستعمارى الصهيونى حملة إعلامية مسعورة على المقاومة، محاولاً وصمها بأنها إرهاب، بينما يمارس هو بطرفيه الأمريكى والإسرائيلى أفظع أنواع إرهاب الدولة الرسمى، ولا بديل عن فضحه، والتصدى له، والانتصار عليه.

يصدر هذا الكتاب عن «**مركز الإعلام العربى**» بالقاهرة الذى يعمل بدأب من أجل تحرير فلسطين والقدس، وكان قد أصدر لى كتاب «**الخطر يتهدد بيت المقدس**» قبل عامين، وأود أن أشكر مدير المركز الأخ صلاح عبد المقصود وأسرة المركز ومنها الأستاذ محمد جمعة على عنايتهم بإصداره.

يبقى أن أسأل الله سبحانه أن يأخذ بأيدينا فى متابعة العمل لتحرير فلسطين والقدس.

د. أحمد صدقى الدجانى

الفصل الأول

انطلاق انتفاضة الأقصى ومسارها

معركة الحرم القدسى والمقدسات الإسلامية والمسيحية

هاهى معركة أخرى تنشب فى هذا الصراع العربى الصهيونى الممتد الذى دخل قرنًا ثانيًا، وهى عند كتابة هذا الحديث صباح الإثنين ٩/ ١٠/ ٢٠٠٠، ١١ من رجب ١٤٢١ دخلت يومها الثانى عشر، وقد شهدت يوم أمس تطورات جعلت العالم يحبس أنفاسه تحسبًا من تفجر الوضع حربًا لا يمكن احتواؤها، بينما رئيس الوزراء يهودا باراك يتهدد ويتوعد فاقداً زمام السيطرة على أعصابه.

ويذكرنا هذا الوضع بسياسة حافة الهاوية التى برزت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى العلاقة بين المعسكرين فى دائرة الحضارة الغربية إثر أزمة برلين عام ١٩٤٨ وهى سياسة تشهد تصاعد الأحداث وتصعيدها إلى درجة بلوغ الحافة، الأمر الذى يدعونا إلى الصمود حتى نحقق أهدافنا فى هذه المعركة، وأن نكون من أهل العزم الذين يأتون للأمة بالعزائم، وأن نحشد الطاقات، ونحسن توظيفها بإعمال العقل، مستعينين بالله القوى العزيز الذى وعد بالنصر من ينصره، وهذا يقتضى بداية أن نبلور قراءة صحيحة للمعركة، ونعممها فى أوساط الأمة؛ لنُتابع خوضها صفًا واحدًا كأننا بنيان مرصوص، كل يقوم بدوره فى تكامل وتناغم بين الأدوار.

ما أروع المناخ الذى توجده المقاومة فى أوساطنا حين تتصدى للعدوان، وما أسخى العطاء الذى يقدمه شبابنا، وهم يقاومون بالحجارة الرصاص الحى من أسلحة المجرمين الصهاينة العنصريين، وما أوضح الرؤية التى تتبلور من خلال الحوار المتصل المقترن بالعمل، وقد حفلت الأيام الماضية بهذا الحوار على مختلف مستويات الأمة مبلوراً قراءة المعركة.

* ما هو الاسم الذى نطلقه عليها؟

لقد بدأت «هبة» إثر اقتحام مجرم الحرب إرييل شارون للمسجد الأقصى يوم ٢٨/٩/٢٠٠٠ ثم ما أسرع ما صارت «انتفاضة شعبية»، ولم تلبث أن غدت «معركة» متعددة الجوانب، فيها ما هو دبلوماسى، وما هو سياسى، وما هو اقتصادى، وما هو نفسى، وعلى الصعد الوطنية والقومية والدولية.

اقترنت هذه المعركة بالحرم القدسى، وبجميع المقدسات المسيحية والإسلامية فى القدس وفلسطين، فهى إذاً معركة الحرم القدسى والمقدسات المسيحية والإسلامية.

* بماذا تتميز هذه المعركة عن معارك الصراع العربى الصهيونى الأخرى؟

تميزُها نابع من بروز البعد العقيدى فيها، مع تجلى جميع أبعاده الأخرى، فالعدو المستعمر المستوطن بمساندة قوى الطغيان الدولية استهدف أسر الحرم القدسى والمقدسات فى مفاوضات «الوضع

النهائى»، واستخدم القوة الغاشمة فى محاولة تأكيد سيطرته عليها، فكان أن هبت الأمة دفاعًا عن مقدساتها، وفتحت ملف جرائم الاستعمار الاستيطانى الصهيونى.

*** متى بانت أبعاد هذه المعركة؟ وأين؟**

كان ذلك أثناء مفاوضات كامب دافيد الثانية فى النصف الثانى من شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٠ التى دعا إليها الرئيس الأمريكى كلينتون يهودا باراك وياسر عرفات، وقد كشفت الورقة الأمريكية الإسرائيلية التى تمت صياغتها أثناء زيارة دينيس روس للمنطقة عن هذه الأبعاد، وهى تتناول القضايا الأربع المتعلقة بما سمى بالوضع النهائى.

وبرز دور خاص لكلينتون فى «إملاء» اتفاق بشأن هذه القضايا يحكى عن دولة فلسطينية على ٢٠٪ من فلسطين فى الضفة والقطاع منقوصة السيادة «مخروقة» بالمستوطنات، لا يسمح بعودة نصف شعب فلسطين إلى دياره، وحين وصل البحث إلى الحرم القدسى والقدس القديمة والمقدسات المسيحية والإسلامية ساند كلينتون باراك لفرض السيادة الإسرائيلية، واعتمدا خطة مضللة تتحدث عن سيادات أخرى سماوية ودينية وإدارية ووظيفية، يمكن أن يمنحها الإسرائيليون أصحاب السيادة السياسية (كذا!!).

وقد رفض الأخ أبو عمار هذا الإملاء بدعم عربى إسلامى، وأمكن الصمود فى وجه الضغوطات الشديدة والتهديدات العنيفة التى مارسها كلينتون معززًا بإعلام صهيونى مضلل، يردد مصطلح «جبل الهيكل».

*** من أهم الأطراف الذين يخوضون هذه المعركة؟**

هناك - كما أوضحت - أبعاد المعركة فى معسكر الحكومة الإسرائيلية، وقيادة الحركة الصهيونية، والإدارة الأمريكية، وقوى طغيان فى الغرب، وهناك فى المعسكر الآخر: شعب فلسطين العربى، ومنظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها وقواها مع الأمة العربية، والدول العربية، ودول فى دائرة الحضارة الإسلامية مع شعوبها.

*** كيف نشبت المعركة وتطورت؟**

بدأت المعركة يوم الخميس ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠ حين اقتحم إرييل شارون الحرم القدسى بترتيب مع باراك، وبحماية آلاف من جنود الاحتلال، وما أسرع أن هب أبناء شعب فلسطين العربى للتعبير عن مشاعرهم الغاضبة، ومواجهة هذا العدوان الأثيم بالتظاهر، ثم يرشق جنود الاحتلال بالحجارة حين أطلقوا عليهم الرصاص الحى، وتابع أبناء فلسطين هبتهم يومًا بعد يوم، بينما استمر العدو الإسرائيلى فى عدوانه مستخدمًا الدبابات والحوامات والصواريخ ضد المدنيين العزل، فكان أن استشهد أكثر من مائة وجرح آلاف.

وقد نقلت وسائل الاتصال المختلفة بالصورة والصوت الجرائم الإسرائيلية، فاهتز لها أبناء العروبة مسيحيين ومسلمين، وأبناء العالم الإسلامى، وقطاعات واسعة من الرأى العام العالمى، وحفرت فى الذاكرة الإنسانية صورة الطفل الفلسطينى محمد جمال «الدرة»، وعملية قتله صبراً بالدم البارد بين يدى والده الذى يحتضنه، وقتل

رجل الإسعاف الذى جاء لإنقاذهما، وأصيب الوالد بالرصاص الإسرائيلى، لتصبح هذه الصورة أحد رموز المعركة، وعمت المظاهرات أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامى، وتتالت التحركات السياسية على مختلف الصعد.

تطورات مهمة حدثت فى اليومين الماضيين، فالانتفاض استمر فى مواجهة العدو الذى استخدم الذخيرة الحية والدبابات والصواريخ والحوامات، وقد استطاعت الهبة أن تفرض فى نابلس على الإسرائيليين الانسحاب من بؤرة لهم، اتخذوها فى ضريح النبى يوسف، وجعلوا منها مركزاً للمستوطنين المجرمين يطلقون منه الرصاص، ورفع أبناء فلسطين علم فلسطين عليها بعد أن حطموا التحصينات الإسرائيلية فيها، وما أسرع ما نقلت وكالات الأنباء خبر وقوع ثلاثة جنود إسرائيليين فى أسر أبطال المقاومة اللبنانية فى منطقة شبعا المحتلة، وأعلن حزب الله عن وجودهم، وطالب استبدالهم بجميع الأسرى اللبنانيين الذين اختطفهم الإرهاب الإسرائيلى الرسمى، وأسرى من أبطال حماس والجهاد.

لعل من أهم التطورات فى هذه المعركة خروج الملايين من أبناء أمتنا فى مظاهرات حاشدة فى مختلف الأقطار العربية، معبرين عن غضبهم على العدوان الإسرائيلى والانحياز الأمريكى له، وعن التحامهم بقضية فلسطين، وكذلك دعوة مصر العربية بعد التشاور مع دول عربية أخرى لعقد قمة عربية فى القاهرة خلال هذا الشهر.

*** ما هى دلالات ما نشهده من أحداث فى هذه المعركة؟**

دلالات كثيرة، من بينها على صعيد العدو الصهيونى ولوغه فى

اقتراف المذابح، واعتماده أقصى درجات العنف لقمع مقاومة شعب فلسطين العربى، وإرهاب الدول العربية، وتشبثه بمفهوم فرض الاستسلام سبيلاً لتحقيق سلام بالقوة الغاشمة، ومن بينها على صعيد قوى الطغيان الأمريكية الاستمرار فى تقديم الدعم له، واعتماد المعيارين فى حقوق الإنسان، ومن بينها على صعيدنا العربى إمكان الصمود والمقاومة، والاستعداد للعطاء، وأثر المقاومة فى إيجاد مناخ صحى يخيم على الوطن الكبير، وفى تفجير طاقات أبناء الأمة، وفى تحقيق الوحدة الوطنية والحشد القومى والتعبئة الروحية.

دلالات أخرى عامة من بينها أن محاولة فرض حل عنصرى لقضية فلسطين مآلها الفشل، وأن كل النصوص التى وضعت فى اتفاقات الإملاء، وبخاصة على صعيد قوات الأمن الفلسطينية اهتزت بشدة؛ لأن وحدة الشعب على كل المستويات ما أسرع ما تتجلى حين يواجهنا العدوان الصهيونى، والأمر نفسه يصدق على المخططات الأمريكية بشأن النظام شرق الأوسطى.

*** ما هو المطلوب من القمة العربية القادمة؟**

مطلوب أولاً أن تؤكد تمسك الدول العربية بالانسحاب الإسرائيلى من كل شبر من القدس الشرقية التى احتلت عام ١٩٦٧، وأن تكون ضمن السيادة الفلسطينية السياسية بجميع المقدسات الموجودة فيها، وهذا هدف يمكن تحقيقه إذا أحسنت القمة حشد الأوراق اللازمة واستخدامها.

مطلوب ثانيًا إعلان تمسك الدول العربية بالنظام العربى، وبانعقاد

القـمة سنويًـا، وبوضع الصراع العـربى الصـهيـونى بندًا دائمًـا فى اجتمـاعاته إلى حين تحرير القـدس والجولان، ومعالجة أمـر استرداد حقوقنا العـربية فى فلسطين «الثابتـة غير القابلة للتـصرف» فى عمل طويل المدى، وهذا هدف بدأ يتحـقق فعلاً بانعقاد هذه الـقمة بكامل أعضائها، وبالالتزام بانتظامها سنويًا.

مطلوب ثالثًا وضع خطط تفصيلية لمقـاومة العدوان الصهيونى على الصعيدين الرسمى والشعبى، ورفع شـعار الاعتصام بالمقاومة بمعناها الشـامل وبأبعادها جـمـيعـها، وهذا هدف يتـطلب توظيف العلم، وإشراك المجتمع المدنى بكل مؤسسـاته وتنظيماته، وهو ممكن التحقيق فى ظل المناخ الذى أوجدته هذه المعركة المتميزة.

وأمور أخـرى يبلورها إعـمال الفكر، وإمـعان النظر، ولكـن أمرًا عاجلاً ملحًـا ينبغى بحثه، وهو حماية أبـناء أمتنا من عرب فلسطين المحتلة عـام ١٩٤٨ الذين يتعرضـون فى هذه المعركة لقـمع عنصرى تقوم به الحكومة الإسـرائيلية، وعدوان عنصرى يقوم به المسـتعمرون المستوطنون الصهاينة، وقد رأينا كيف سقط منهم شهداء وجرحى فى هذه المعركة، وكيف جرى الاعتـداء على أحيائهم فى الناصرة، وقام المستوطنون بهدم الجامع فى طبرية، وقد سمعنا اليوم أخانا د. عزمى بشارة يتـحدث عما يتـعرضون له من أخطار، ويطرح فكرة الحـماية الدولية لهـم.

إنها معركة أخرى فى هذا الصراع الممتد، ويجب أن ننتصر فيها.

تشوّف مرحلة قادمة في الصراع العربى الصهيونى

ما بعد قمة شرم الشيخ والقمة العربية

بين يدى انعقاد قمة عربية استثنائية يوم السبت ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٠، وبعد انتهاء قمة شرم الشيخ يوم الثلاثاء ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٠، يأتى هذا الحديث عن معركة الحرم القدسى، والمقدسات الإسلامية والمسيحية التى أكملت أسبوعها الثالث، ونصب العين فيه تشوّف مجرى الأحداث فى الصراع العربى - الصهيونى بعد انعقاد القمة العربية.

- أول خطوة فى عملية التشوف المستقبلى هى القيام بوقفة أمام مؤتمر شرم الشيخ للإحاطة بالواقع القائم، وفق منهج علم دراسة المستقبل بإيجاز شديد.

*** لماذا انعقد مؤتمر قمة شرم الشيخ؟**

جلىّ أن العامل الرئيس فى انعقاده هو إدارة الرئيس كلينتون الأمريكية، وقد بادرت إلى طلبه بعد أن استمرت معركة الحرم القدسى، والمقدسات، وتصاعدت الانتفاضة الفلسطينية على أرض فلسطين فى الضفة الغربية، وقطاع غزة، والجليل المحتل منذ عام

١٩٤٨ فى مواجهة العدوان الإسرائيلى الصهيونى العنصرى، وتزامن مع هذه الانتفاضة تحرك شعبى ورسمى فى الدائرتين العربية والإسلامية، وعمليات نوعية أوضحت أن الانتفاضة جزء من معركة ساحتها الوطن العربى كله، ويمكن أن تمتد إلى أنحاء من ساحة دائرة الحضارة الإسلامية، ونحن فى هذا الحديث نستخدم كلمة «الانتفاضة» لما يجرى فى فلسطين، وكلمة «المعركة» لما يجرى فى الدائرتين.

لقد وجدت الإدارة الأمريكية نفسها فى أسبوع المعركة الثانى أمام أحداث هزتها هزًا عنيفًا، وهددت فى المقام الأول مصالحها، وفى المقام الثانى مستقبل قاعدتها الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، ونشير من بين هذه الأحداث إلى عزلتها فى مجلس الأمن عند مناقشته «إفراط إسرائيل فى استخدام القوة ضد المدنىن الفلسطينيين العزل».

وهو المصطلح الذى استخدم دوليًا للدلالة على قيام الجنود الإسرائيليين بقتل الأطفال والشباب والشيوخ صبرًا بالدم البارد، واضطرت الإدارة الأمريكية للخروج من هذه العزلة إلى عدم استخدام «حق النقض» عند التصويت على قرار المجلس بعد أن أضعفته بتعديلات على مشروعه.

كما نشير من بين هذه الأحداث إلى تململ رئاسة الاتحاد الأوروبى من الأسلوب الأمريكى فى التعامل مع الانتفاضة، وقلق أوروبا

المتزايد من انفجار الوضع، وقد عبّر عن ذلك الرئيس شيراك عمليًا، واضطرت حتى بريطانيا أن تتحرك وهى: «الحليف التابع» للولايات المتحدة فى الاتحاد الأوروبى.

ونشير أيضًا، وهذا هو الأهم إلى سلسلة الأحداث على أرض المعركة من المظاهرات الشعبية العربية العارمة ضد الصهيونية العنصرية وأمريكا، وقيام حزب الله بأسر ثلاثة جنود إسرائيليين فى شبعا، ثم بأسر جنرال من الموساد، وانسياق يهودا باراك إلى تهديد سوريا ولبنان، وأخيرًا وليس آخرًا عملية احتراق المدمرة الأمريكية فى ميناء عدن، وقتل عدد من بحارتها، وجرح عدد آخر.

وقد كان لافتًا إصرار الإدارة الأمريكية أن ينعقد مؤتمر قمة شرم الشيخ قبل انعقاد القمة العربية الاستثنائية التى أعلنت مصر عن الدعوة إليها بعد التشاور مع شقيقاتها العربيات.

ونلاحظ أيضًا أن معارضة عربية رسمية برزت لهذا المؤتمر شاركت فيها مصر التى لم تلبث أن قبلت استضافته بعد إجراء تعديلات عليه فى تنظيمه، بحيث وجهت الدعوة إلى الاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة، وفى مساره بحيث تتم محاصرة العدوان الإسرائيلى على شعب فلسطين.

*** ما هى نتائج مؤتمر شرم الشيخ على مسار المعركة، وعلى أعمال القمة العربية الاستثنائية؟**

أقصى ما أسفر عنه هذا المؤتمر هو فرض ما يشبه «الهدنة» فى

معـركة الحرم القدسى، والمقـدسات تمتد لفتـرة أسبوعين، وقـد جاء الرئيس الأمريكى كلينتون مـعه فريقه الصهيـونى الذى ترأسه مادلين أولبـرايت - وزيرة الخارجـيـة - وكان همـه أن يتبـنى وجهـة النظر الإسرائـيلية، ويعـارض أية إدانة للجرائم الإسـرائيلية، ولـو جاءت بطريق غير مباشر.

وهكذا رأيناه يعـارض المطلب الفلسطينى المؤيد دوليًا بتـشكيل لجنة تحقيق دولية، وذلك لأن الكيـان الإسـرائيلى مصـر على التعامـل مع الأحداث الذى جرت على أنهـا «داخلية» وهذا يعنى استمـرار زعمه بأن الضفة والقطاع أراض مـتنازع عليها يدعى أنها يهـودا والسامرة، وهو يتعامل مع السلطة الفلسطينية على أنها سلطة حكم ذاتى لا يقبل أن يكون لها وضع دولى مستقل.

وهكذا أعلن كلينتون أن الاتفاق تم على تشكيل لجنة من الولايات المتحـدة وإسرائيل والسلطـة الفلسطينية بالتـشاور مع الأمم المتـحدة؛ لتقصى حـقائق الأحداث الأخيرة، وكيـفية منع تكرارها، وهذا يعنى أن المشاركين الآخرين فى القمة استـطاعوا بعد لأى أن يُضيفوا عنصر التشاور مع الأمم المتحدة، ورأينا كلينتون يركز فى الاتفاق على إنهاء المواجهات، والعودة إلى الوضع السابق، ومن ثم وجوب العودة بعد الأسبوعين إلى المفاوضات.

وقد أوضح الرئيس مبارك فى كلمته أن «نتائج القمة قد لا ترقى لما تتوقـعه شعوبنا، لكنـها تشكل أساسًا يمكـن البناء عليه إذا خلصت

النية»، ويمكن الخروج برؤية واضحة إذا قرأنا ما بين الكلمات فى هذا السطر.

من المتوقع أن يخفف العدو الإسرائيلى من إجراءاته القمعية، وعسفه خلال الأسبوعين القادمين، بفعل مجموعة عوامل منها طلب الإدارة الأمريكية، ومن المتوقع أيضًا أن تعمل السلطة الفلسطينية على تهدئة الانتفاضة التزامًا بالاتفاق، ولكن من الواضح أن أسباب الانتفاض قائمة فى الوطن المحتل، وكذلك مبررات استمرار المعركة ضد الصهيونية، وأمريكا على الصعيد الشعبى فى الوطن العربى، وفى هذه الأجواء تنعقد القمة العربية.

إن من أبرز نتائج مؤتمر قمة شرم الشيخ على أعمال مؤتمر القمة العربية هو وضوح ما يمكن لهذا المؤتمر أن يحققه على صعيد المعركة والانتفاضة فى المدى القصير، وعلى صعيد تفعيل النظام العربى، ومن ثم المعركة على المدى المتوسط، وعلى صعيد تطوير الاستراتيجية العربية الرسمية تجاه الصراع العربى الصهيونى.

وقد بلورت جماهير الأمة عددًا من المطالب التى يمكن تلبيتها رسميًا، فعلى الصعيد الأول هناك دعم شعب فلسطين فى الوطن المحتل ليتابع صموده، ويُصعد انتفاضته، ودعم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى تمسكها بالثوابت جميعها، وفى مقدمتها السيادة على القدس الشرقية كلها، وكذلك تفعيل نظام المقاطعة العربية الاقتصادية للكيان الإسرائيلى، وعمل مكتب المقاطعة بدمشق ضمن عمل

الجامعة العربية، ومقاومة التطبيع مع هذا الكيان بما فى ذلك تجميد العلاقات أو قطعها.

وعلى الصعيد الثانى انتظام انعقاد مؤسسة القمة العربية سنويًا، وضخ الدماء الحارة النقية فى جميع مؤسسات النظام العربى، وأجهزته، والعناية بمراكز البحث اللازمة فى إطاره، وعلى الصعيد الثالث الانتقال من الالتزام باستراتيجية السلام إلى الالتزام باستراتيجية السلام القائم على العدل فى هذا الصراع العربى الصهيونى الممتد، وهناك فارق بينهما، وتحقيق هذا الانتقال يتطلب حصرًا تقوم به كل دولة عربية لما لديها من أوراق مؤثرة، وحشد لجميع هذه الأوراق، وتوظيفها لصالح الأمة فى الصراع.

- الخطوة الثانية فى عملية التشوف المستقبلى هى استحضار عِبر المراحل السابقة فى هذا الصراع العربى الصهيونى الممتد، وما أكثر ما صدر عن الفكر العربى بشأنها، ونقف من بين هذه العبر أمام ثلاث منها تجلت فى معارك الصراع بعامة على مدى قرن، وفى معركة الحرم القدسى والمقدسات هذه الأيام بخاصة.

العبرة الأولى: أننا فى هذا الصراع نواجه استعمارًا استيطانيًا صهيونيًا عنصريًا نجح بأساليب مختلفة فى تهجير يهود غربيين من أوطانهم فى أوروبا، وفى تهجير شرقيين من أقطار عربية، وهو يعتمد الإرهاب، والعسف، والقمع لتثبيت نفسه، ويستهدف بها جميعها شعب فلسطين العربى، وشعوبًا أخرى مع دولها مستندًا إلى

دعم غير محدود من القوى الاستعمارية التى أوجدته مقابل أدائه دوراً وظيفيًا فى استراتيجياتها، وهو يعانى فى داخله تناقضات حادة على عدة صعد تجعله قابلاً للتفجر.

العبرة الثانية: أن الولايات المتحدة الأمريكية هى منذ الحرب العالمية الثانية الداعم الرئيس له، بعد أن قامت بريطانيا منذ الحرب العالمية الأولى بإيجاده، وقد انتهجت الإدارات الأمريكية المتتالية سياسة العداء للعرب وللمسلمين، وبلغ هذا العداء حدًا عظيمًا فى عهد الإدارة الحالية، وواجهت أمتنا هذا العداء بالتصدى له أحيانًا، كما عمدت بعض دولنا إلى محاولة التخفيف منه بمسايرة واشنطن أو مطاوعتها، ولكن المعركة الراهنة التى استهدف بها العداء الأمريكى الحرم القدسى والمقدسات استنفرت الأمة لمواجهته، ولإنهاء اعتماد أمريكا حكمًا فى الصراع، وهى فى حقيقة الأمر طرفًا فيه، وخصمًا للعرب مسلمين ومسيحيين وللمسلمين بعامة.

العبرة الثالثة: أن مقاومة الأمة لهذ الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى مستمرة منذ بدأ، وعلى مدى قرن مضى، تعبر عن نفسها فى كل مرحلة من مراحل الصراع بشكل معين، وقد أثبتت قدرتها على خوض صراع النفس الطويل، وطورت أساليب جديدة فى المقاومة بمعناها الشامل، ولعل من أهم هذه الأساليب عمليات خاصة متميزة تجرى حين تتعذر خوض الحروب الرسمية لأسباب مختلفة، وها هى هذه المعركة بما حفلت به تدلل على ذلك، وترهص بمزيد من تطوير هذه الأساليب.

في ضوء هذه العبر تتحدد أهدافنا في المستقبل القريب، وأولها هو الرد القوى على العدوان الصهيوني العنصرى، وثانيها هو التصدى لسياسة العداء الأمريكية للعرب والمسلمين، بهدف الوصول بالولايات المتحدة الأمريكية إلى التخلى عنها، وثالثها هو تنمية قدراتنا لتحقيق الهدفين.

- الخطوة الثالثة في عملية التشوف المستقبلى هى بلورة رؤية لصنع المستقبل من خلال تفاعل حقائق الواقع القائم مع عبر الماضى مع عنصرى الحلم وإرادة الفعل.

إن لنا أن نتوقع تهدئة في فترة «الهدنة» خلال الأسبوعين القادمين، وكذلك سعيًا أمريكيًا حثيثًا للعودة إلى مفاوضات عملية التسوية في محاولة أخيرة تقوم بها إدارة كلينتون لإبرام اتفاق شامل بشأن «قضايا الوضع النهائى».

ولكن دلائل كثيرة تشير إلى أن الصراع دخل مرحلة جديدة من المتوقع أن تشهد على الصعيد الصهيونى أشكالاً من العدوان الذى تحكمه العنصرية في داخل فلسطين على الشعب العربى الفلسطينى، وعمليات خاصة تخريبية هنا وهناك في الوطن العربى؛ لعدم توافر شروط شن حرب عدوانية التى أهمها شرط الضوء الأخضر الأمريكى الذى لا تميل الإدارة الأمريكية إلى إعطائه خوفًا من تداعيات مثل هذه الحرب.

ومن المتوقع أيضًا أن تشهد المرحلة الجديدة على الصعيد العربى

قيام المقاومة بعمليات خاصة متميزة داخل الكيان الإسرائيلى، وأخرى تستهدف القواعد الأمريكية فى المنطقة يكون لها صداها فى أوساط المجتمع الأمريكى فى صور مختلفة، منها التساؤل عن جدوى دعم الصهيونية العنصرية، وعن الولاء المزدوج عند اليهود الصهاينة، وتسلط هؤلاء على الإدارة، وعلى الكونغرس من خلال التمويل.

من المتوقع أن تشهد المرحلة الجديدة فى الصراع فى دول أوروبا بخاصة طرح قضية الولاء المزدوج لليهودى الصهيونى، وإثارتها لحملات داخل المجتمعات الأوروبية، وقضية التغلغل الصهيونى فى الإعلام، وفى صنع القرار، وقد ينتهى ذلك كله إذا نجحت أمتنا فى اعتمادها مقاومة النفس الطويل إلى أن ينبذ اليهود الصهيونية العنصرية التى هى التهديد الأكبر لوجودهم، وهى التى تزعم أنها جاءت لحمايتهم.

وهنا فقط يستتب السلام العادل الذى يعيش فيه اليهود مواطنين فى دولهم، بولاء واحد، وتقوم فيه فلسطين الواحدة العربية التى تخيم عليها الحضارة الإسلامية، ويعيش فيها مواطنوها العرب مسلمين ومسيحيين، وأى يهودى مستأمن ينبذ الصهيونية العنصرية، وينتمى لهذه الحضارة.

المعيار الموضوعى لتقويم القمة العربية الأخيرة

«ما هو تقويمك لمؤتمر القمة العربية الأخيرة» الذى انعقد بالقاهرة يومى ٢٣ و٢٤ من رجب ١٤٢١ الموافق ٢١ و٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠؟

تكرر توجيه هذا السؤال لى إثر انتهاء المؤتمر، وأتوقع أن يكون الأمر معك كذلك أيها القارئ الكريم..أُسجل بدايةً أن عملية التقويم ليست سهلة، إذا أردناه تقويمًا موضوعيًا يتجاوز الانطباع السريع، وذلك لأكثر من سبب.

* أول هذه الأسباب أننا نعيش انتفاضة الحرم القدسى بقلوبنا وعقولنا، ونتحرق للوقوف مع أهلنا فى الوطن المحتل فى وجه العدوان الصهيونى الغاشم عليهم، ونشعر أن كل ما نقدمه مهما عظم يتضاءل أمام عطاء الشهداء والجرحى.

* سبب آخر أن الإعلام الغالب عن هذه الانتفاضة هو «إعلام الترويج» فى عصر ثورة الاتصال، ونحن فيه بين «إعلام عربى رسمى» يغالى فى حديثه عن إنجازات هذه القمة، شأنه فى الحديث عن أى عمل حكومى و«إعلامى غير رسمى» يغالى فى حديثه عن فشل هذه القمة، وإذا كنا قد خبرنا النوع الأول، واكتسبنا كيفية التعامل معه، وتمحيص ما يقوله، فإننا فى النوع الآخر واجهنا ظاهرة يوقف أمامها تتطلب تعمقًا فى فهمها.

هذه الظاهرة هى اشتراك عدد من الفضائيات والإذاعات فى «حملة

إعلاميــة» استهدفت الحكم على القمــة العربية بالفشل قـبل الانعقاد وأثناءه، وفى أعقابه، وقد لجأت فى هذه الحملة إلى استغلال التحرك الشعــبى لدعم الانتفــاضة لبلوغ هذا الهدف، ومــا أكثــر الأمثلة التى رأيناها فى الأيام الماضية على هذه الحملة.

وأذكر واحدًا منها وجهت المحطة الفضائيــة فيه للمشاركين فى أحد برامجها السؤال تلو السؤال: «لماذا لا يستطيع العرب فعل كذا، وفعل كذا، وفـعل كــذا؟ وما الذى يمكن أن يفـعله القادة العــرب لتهــدئة الشارع العربى وهل باستطاعتــهم فعل شىء واقعى وملموس، وليس فقط الإدانة والتنديد؟» ويتــولى توجيه الأسئلة مذيــعون مدربون على «مقاطعــة» المتحدث يخضعــون إلى تعليمات تصلهم عبر «الســماعة» وكأن همَّ مــسؤوليهم أن لا يتم طرح فكرة ناضجــة، وإنما هى جمل تستــهدف الإثارة ووضع الكلــمات فى فم المشارك، وإصــدار أحكام عامة تفتقد الموضوعية، وتدعو هذه الحملة الإعلامية إلى الخاطر تلك الحملة التى استهدفت بأمــتنا أثناء زلزال الخليج، وكان همها أن تثبت فى الأذهان انقــسام العــرب، وواضح أن الحملة الحــالية حــين رأت إجماع العــرب على دعم انتفاضة الحرم القــدسى لجأت إلى التشكيك فى قدرة دولهم العربية على فعل شىء ذى قيمة.

* سبب ثالث هو عدم وضوح «المعــيار الموضوعى» الذى نقيس به أعمال المؤتمر أثناء انعقاده، ومن مــواصفات هذا المعيار الموضوعى أنه كامل شامل دقــيق، وهذا يعنى أن يحيط بالصورة كلها، ولا يقــتصر على رؤية جزء منها، ويصدر من ثم حكمه مكررًا ما حدث فى قصة «العميان والفــيل» لأنه اعتمد معيارًا جزئيًــا، وفرق بين المعيار الكامل

والمعيار الجزئى، وما أعظم الفرق الذى يحدث فى التقويم إذا اعتمد «الجزئى» بدل «الكامل» والشمول يعنى أن نأخذ فى الاعتبار كل أعمال المؤتمر أثناء الانعقاد، أما الدقة فتعنى القراءة المتأنية لهذه الأعمال، وللقرارات بخاصة التى تقرأ السطور، وما بين السطور، ولافت أنه لم يبذل جهد كافٍ للتوعية بهذا «المعيار الموضوعى».

إن عناصر انعقاد أى مؤتمر التى تعتمدها فى تقويمه هى موضوعه، وعنوانه، وأهدافه المباشرة وغير المباشرة، ونسبة المشاركين فيه من بين من تلقوا الدعوة، ويفترض حضورهم، وهذه عناصر ما قبل مباشرة المؤتمر أعماله، ثم تأتى عناصر أثناء الانعقاد؛ وهى الكلمات التى يلقيها المشاركون من رؤساء الوفود، والمداولات التى تتم بينهم وبين أعضاء الوفود بعامة بين الجلسات، وعلى هامشها، وأخيرًا البيان الختامى الصادر عن المؤتمر متضمنًا القرارات، وهذه العناصر جميعها تدخل فى تقويم أعمال المؤتمر أثناء انعقاده، أما التقويم النهائى له الذى يحدد مكانه التاريخى فيتوقف على ما يتم تنفيذه من القرارات، وهذه خطوة تأتى لاحقًا.

تقويم هذه القمة العربية بالذات يقتضى فضلاً عما سبق استذكار السياق الذى انعقدت فيه، وجميع الظروف التى أحاطت بانعقادها، فهى أول قمة عربية تنعقد بكامل أعضائها منذ عقد من السنين، وقد جاءت بعد أربع سنوات من انعقاد قمة القاهرة فى مطلع صيف ١٩٩٦ التى غاب عنها العراق، ومعلوم أن «النظام العربى» الذى يقع مؤتمر القمة فى رأس هرمه كان قد تعرض فى أعقاب اجتياح العراق للكويت، وحدوث زلزال الخليج صيف ١٩٩٠ إلى استهداف

الولايات المتحدة الأمريكية له بالتجميد توطئة للإجهاز عليه وإنهائه، واستبداله بالنظام شرق الأوسطى الذى يكون للكيان الإسرائيلى فيه موقع القيادة والتأثير.

ما أحوجنا أيها القارئ العربى الكريم، وما أحوج أبناء أمتنا بعامة إلى استحضار المعركة التى خاضها أول ما خاضها المفكرون العرب بأقلامهم، ومعهم بعض الحكماء السياسيين، ثم انضم إليهم تدريجيًا بعض القادة فى مواجهة هذا المخطط الأمريكى الآثم الرهيب، وقد نجح هؤلاء المفكرون العرب فى التصدى لحملة الترويج الإعلامى الأمريكى والصهيونى لنظام الشرق الأوسط، وذلك بطرح حقائق هذا النظام على العامة والخاصة، وبتفنيده، وبكشف مخاطره، وبالدعوة إلى التمسك بالنظام العربى وتطويره.

وكم بذلوا جهدًا فى هذا التصدى، وإن لنا أن نذكر مثلاً من أمثلة هذه الحملة الإعلامية الترويجية مقال شمعون بيريز بعد زلزال الخليج مباشرة فى كتاب «ماذا بعد عاصفة الخليج؟» الذى صدر بالعربية، وما قاله حين طرح المشروع فى خريف ١٩٩٢ على بعض المثقفين فى القاهرة، وحديثه بعد اتفاق أوسلو فى المؤتمر الاقتصادى شرق الأوسطى بالدار البيضاء للمشاركين من دول الخليج حين عرَّض بالنظام العربى، وبقيادة مصر لهذا النظام، وحكى عن قيادة الكيان الإسرائيلى للنظام شرق الأوسطى، ونذكر أخيرًا كتاب بيريز الذى روّج به لنظام الشرق الأوسط بعد أوسلو، وكثيرة هى الأمثلة الأخرى على النصيب الأمريكى فى حملة الترويج هذه.

لقـد تابع ذلك النفـر من المفكرين العـرب تلك المعـركـة بدأب، وشاركت مـراكز عربيـة بفعاليـة فى المعركـة، ومنها مركـز دراسات الوحدة العـربية، وانضمت أحـزاب عربيـة، فخاضت المعـركة على صعيد المنتمين لهـا من خلال ندوات نظمتها، وهكذا تكوَّن رأى عام عربى مكَّن القادة السياسيين فى بعض الدول العربية من التلاقى على فكرة التمسك بـالنظام العربى، والعمل على بعث الحيـوية فيه، ولم يكن ذلك بالأمر السـهل أمام الهـجمة الأمـريكية التى اشتـدت بعد اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣

وأثمرت الجهـود الفكرية والسياسية انعقـاد مؤتمر الأسكندرية آخر عام ١٩٩٤ الذى شاركت فيه سوريا والسعودية ومصر، واتخذ عشرة قرارات اختص بعـضها بتفـعيل النظام العربى، وقد أثار انـعقاد هذا المؤتمر غضب الكيان الإسرائيلى الشديد حتى إن إسحق رابين استعان بكلينتون لعقد مؤتمر رباعـى بعد أيام مع ثلاثة أطراف عربية، وكانت قمة الأسكندرية أول لقـاء منذ مدريد يضم أكثر من دولتين عـربيتين مـعًـا؛ لأن واشنطن حـاولت أن يكون الكيـان الإسـرائيلى القـاسم المشترك فى أية لقاءات جـماعية تأكيدًا لصـيغة نظام الشرق الأوسط، واستمـرت الجهود العربية فى مقـاومة الهجمة الأمريكيـة، والتصدى لنظام الشرق الأوسط، وتفـعيل النظام العربى، ونجـحت فى يونيو - حزيران ١٩٩٦ إثر انتـخاب نتنياهو رئيـسًا للحكومة الإسـرائيلية فى عقـد اجتماع دمـشق للقمة الثلاثيـة المصرية السعـودية السورية التى أعطت الضوء الأخضر لعـقد القمة العربية مع غـياب العراق، وكان ذلك الانعقاد حـدثًا له ما بعده ما أسرع، مـا ظهرت آثاره فى عرقلة

المؤتمر الاقتـصادى الشرق الأوسطى ثم إيقـافه، وفى مسـاندة العمل الفلسطينى التى كـان من ثمارها هبة القـدس أول خريف ١٩٩٦ فى مواجهة محاولة نتنياهو فتح نفق الحرم القدسى.

أربع سنوات كاملة وأربعة شـهور من الجهود العربية المسـتمرة بعد تلك القمة العربية، استلزمها انعقاد القمة العربية الكاملة هذه بمشاركة العراق فى القاهرة فى دورة غـير عادية من أجل دعم انتفـاضة الحرم القدسى، وكانت هذه الجهود قد أثمـرت اتفاق مجلس جامعة الدول العربية على انتظام انعقاد مؤتمر القمة العربى سنويًا بعد أن شكل لجنة درست هذا الأمر، وأوصت به.

هذا هو السيـاق الذى انعقدت فـيه قمة القـاهرة خريف ٢٠٠٠، لأحداث اسـتمرت عـقدًا من السنين عانى فـيها «النظام العـربى» ما عاناه، الأمر الذى بلور هدفًا غير مباشر لأول قمة كاملة تنعقد، وهو عودة النظام العـربى إلى العمل بكامل أعضائه، وهذا يعنـى التحرك لتحـقيق أهداف عربية، ويعنـى أيضًا محاصـرة نظام الشرق الأوسط توطئة للإجهاز عليه.

إن هذا العنصر فى تقويم مؤتمر القمة العربى الأخير بالغ الأهمية؛ لأنه يتـعلق بالعـمل على مـدى طويل وبنفس «بفـتح النون والفـاء» طويل، وهو يجعل مجرد الانعقاد بكامل الأعضاء إنجازًا فى حد ذاته يسـتحق بأن يوقف عنده، فكيف إذا اقـترن بإنجـازات أخرى تتـجلى حين نقوم بالتقويم الموضوعى لأعمال هذه القمة.

ألا يتـضح لنا أيها القـارئ الكريم فى ضـوء شرح هذا العنصـر

سبب إصرار الرئيس بيل كلينتون الأمريكى على عقد قمة شرم الشيخ قبل انعقاد القمة العربية ببضعة أيام، والدافع وراء الحملة الإعلامية الحادة التى استهدفت بها الإعلام الأمريكى الإسرائيلى وبعض الفضائيات مؤتمر القمة العربى قبل انعقاده، وأثناء الانعقاد، وبعد الانعقاد؟

وضوح هذا العنصر فى تقويم القمة العربية الأخيرة هو الذى جعل ذلك النفر من المفكرين العرب الملتزمين بمتابعة النضال لتحقيق المشروع الحضارى العربى بأهدافه الستة وحدة، وتحريرًا وديموقراطية شورية وعدلاً، وتنمية، وتجددًا حضاريًا، يباركون الانعقاد فى حد ذاته بداية لأنه أول الخير، ويشعرون بالحبور؛ لأن جهودهم وجهود الأمة أثمرت محاصرة نظام الشرق الأوسط، وإعادة شيء من الحيوية إلى النظام العربى.

لكن هذا النفر من المفكرين العرب لا يقبلون أن تكون مباركتهم الانعقاد فى حد ذاته بداية حافلاً دون التقويم الموضوعى لأعمال القمة ذاتها، بل دافعًا لأقصى درجة من الدقة فى التقويم الموضوعى، ولذلك نراهم يطرحون «المعيار الموضوعى» لتقويم أعمال القمة خطوةً أولى لمتابعتهم تنفيذ قراراتها.

فى ضوء هذا «المعيار الموضوعى» الذى تم طرحه فى هذا الحديث، يمكن لك أيها القارئ الكريم، ويمكن لى أن نجيب عن السؤال «ما هو تقويمك لمؤتمر القمة العربى الأخير؟» بتناول عناصر التقويم عنصرًا عنصرًا، وهذا ما أرجو أن أفعله فى حديث قادم بإذن الله.

تحـول فى مسار انتفاضـة الأقصى له ما بعده الحل المرحلى الممكن تحقيقه

نقطة تحول فى مسار انتفاضة الأقصى حدثت يوم الإثنين ١٣/ ١١/ ٢٠٠٠ تستحق الالتفات إليها، فلأول مرة يسقط أربعة من الإسرائيليين صرعى، ويصاب ثمانية آخرون فى المقاومة الباسلة التى شهدتها المدن الفلسطينية فى الضفة الغربية، وقطاع غزة للاحتلال الإسرائيلى الجاثم عليهما بجنوده العسكريين، وقطعان مستوطنيه المسلحين.

واستشهد فى اليوم نفسه أربعة من أبناء الانتفاضة الأبرار، وأصيب سبعة عشر آخرون، كُتبت أسماؤهم فى سجلها الشريف مع أسماء من سبقوهم من الشهداء والجرحى، ولقد سارع العدو الإسرائيلى إثر سقوط صرعاه إلى فرض الحصار على ثمانية مدن فلسطينية خطوة أولى فى سلسلة إجراءات هدد باتخاذها.

التحول الذى حدث واضح بيِّن جوهره أن الانتفاضة بعد أن قاومت إرهاب العدو المسلح بالحجارة، وقدّمت من الشهداء الأبرار - وجلهم أطفال وفتيان - أكثر من مائتين مع آلاف الجرحى، ففضحت العنصرية الصهيونية أمام العالم، وهزّت نفسية اليهودى الذى اعتنقها، اتجهت اليوم إلى استخدام محدود للسلاح إلى جانب الحجر فى مقاومتها للاحتلال الإسرائيلى.

هذا التحول لم يكن مفاجئًا للمتابعين، بل توقعوا حتمية حدوثه، فما خلَّفه الإرهاب الصهيونى بجرائمه اليومية منذ خمسة وأربعين يومًا فى نفوس أبناء شعبنا من مرارة وآلام، ناهيك عما كان متراكمًا فى نفوسهم منذ بدء عملية التسوية قبل تسع سنوات، وبخاصة منذ إبرام اتفاق أوسلو قبل سبع سنوات، كان لابد أن يتحول من المقاومة بالحجر إلى الاستخدام المحدود للسلاح الذى يذيق العدو طعم الخسائر البشرية، ويمسُّه بقرح يجعله يعيد النظر فى حساباته، مهما جاء رد فعله شديدًا أهوجًا، ولقد رأى المتابعون نذر هذا التحول حين تم القبض فى رام الله على جنديين من جنود الاحتلال تسللا للقيام بعمل إجرامى، فأجهز الناس عليهما، ويومها لم يستوعب العدو الدرس، وأنذر، وتوعد، وتابع اقتراف جريمة القتل بالدم البارد للأطفال، والفتيان الفلسطينيين، بل عمد أيضًا إلى اغتيال أحد قادة الانتفاضة الشهيد حسين العبيان، وهو فى سيارته بقذيفة من حوَّامة هليوكوبتر لاحقته، ويومها تحرك الإعلام الصهيونى ليشهّر بالانتفاضة، وتأثر به أفراد منّا تمنوا أن تستمر الصورة على ما كانت عليه طيلة الأيام التى سبقت: عسكرى إسرائيلى يطلق الرصاص على رؤوس الأطفال والفتيان الفلسطينيين وصدورهم ردًا على قذفهم إياه بالحجارة، وقوات إسرائيلية تستخدم الصواريخ والحوامات فى قصف المدن الفلسطينية، وذلك كى نكسب - حسب رأيهم - عطف الرأى العام العالمى، وإنَّ لنا أن نتوقع أن يراجع هؤلاء الأفراد موقفهم فى ضوء حتمية حدوث التحول من جهة، وحقيقة أن عطف الرأى العام العالمى وحده لا يحرر وطنًا محتلاً، وأن المقاومة بمعناها الشامل،

وبأبعادها كلهـا هى التى تحرر الوطن المحتل، وتكسب احـترام الرأى العـام العالمى أيضًـا، وعلينا جـمـيعًـا من ثم أن نوطن أنفـسنا على التعامل مع هذا التحول.

سؤال برز بإلحـاح قبل حـدوث هذا التحول، وهو يـشتد إلحـاحًا بعده: إلى متى يمكن لانتـفاضة الأقصى أن تستـمر، وهى تواجه كل هذا الإرهاب الصهيونى؟

جواب الـشعب الصـامد البطل هو: إلى أن تحـرر فى هذه المرحلة الضـفـة الغربـية والقـدس الشـرقـية، وقـطاع غزة من الاحـتـلال الإسرائيلى، ونطرد قطعـان المستوطنين منها، وقـد تجلى هذا الجواب عمليًـا فى استمـرار الانتفاضـة رغم الضغوط الأمـريكية لإيقافـها، وكذلك فى الوحدة الوطنية بين جميع الفـصائل والفعاليات والقوى، والحق أن روح الانتفاض تصدق هذا الجـواب، فهذه الروح هى التى حركت الأطفـال والفتيـان ليقاوموا بالحـجارة، وينال شرف الشـهادة منهم أكثر من مـائتين، وإذا كان الله سبحـانه الخالق قد أعلمنا بأنهم أحياء عنده يرزقون، فإن من اللافت أن استـشهادهم يحرك الحياة فى الأمة، ويجددها، ويمكّن من ثم الصمـود أمام الإرهاب الصهيونى، والانتصار عليه.

لقـد دخل الإرهاب الصـهـيونـى بعد التـحـول الذى حـدث يوم ١١/١٣ طوراً جديدًا بفـرض الحصار على المـدن، ومتابعـة مسلسل القتل، وهاهو اليوم التـالى يشهد استشهاد خـمسة واحد منهم رجل كـهل قتله المسـتـوطنون فى قطاع غزة بإلـقاء صـخرة على رأسـه،

وسبعون جريحًا، ولا يخفى العدو العُنصرى أن هدفه من الحصار «تجويع» أبناء فلسطين فى وطنهم المحتل بغية إيقاف الانتفاضة، وهذا الحصار يحول بين مائة وعشرين ألفًا من العمال من أبناء قطاع غزة وبين كسب قوتهم اليومى من العمل لدى الإسرائيليين داخل الجزء المحتل عام ١٩٤٨، وضعف هذا العدد من أبناء الضفة الغربية، وكأن بروتوكول باريس فى اتفاق أوسلو قد فرض هذه التبعية الاقتصادية، وهذا الحصار يحول أيضًا بين تنقل أبناء فلسطين بين مدنهم، بما يحول دون العمل والكسب.

وهو يذكّر بحصارات غاشمة شهدتها حروب القرن العشرين، ومن بينها حصار النازية الألمانية لمدينة ليننغراد «بطرسبرج» على مدى تسعمائة يوم إبان الحرب العالمية الثانية.

إن التقارير التى تصل من الداخل تشير إلى تصميم الشعب على متابعة الانتفاضة رغم ظهور بوادر «مجاعة» هناك، ويقول العارفون إن هذا الشعب خبر «الحصار» من قبل، وهو يعرف كيف يفشله بالتكافل الاجتماعى، وبإيجاد سبل لتوفير ما يمكنه من الصمود والاستمرار، كما أنه يتوقع أن يتم تنفيذ قرارات القمتين العربية والإسلامية الخاصة بدعم صموده، وأن تحسن مؤسساته الأهلية، ومؤسسات السلطة توزيع هذا الدعم، ويأخذ هؤلاء العارفون فى الاعتبار أن انتفاضتهم تواجه العدو بشدة على صعد عدة، من بينها الصعيد الاقتصادى الذى شهد إغلاق ثمانين مصنعًا إسرائيليًا إغلاقًا جزئيًا، وأربعة عشر مصنعًا إغلاقًا كليًا، كما شهد إنفاق الجيش

الإسرائيلى ثلاثة أرباع مليون دولار يوميًا وفق ما ذكرت مصادره، وهناك صعيد المواجهة المسلحة التى لا مفر من تصاعدها بعد «التحول»، وقد بدأت جريدة هآرتس تتحدث عن حرب استنزاف حقيقية.

ويتوقع العارفون أن تتكشف غارات المجاهدين على جنود الاحتلال، وقطعان المستوطنين المغتصبين المدججين بالسلاح ليلاً ونهارًا، كما يتوقعون حدوث تطور فى الاستخدام المحدود للسلام كيفًا وكمًا فى مواجهة تصعيد الإرهاب العسكرى الإسرائيلى الذى خصصت له الحكومة الإسرائيلية مبلغ ١٨٧ مليون دولار صادقت عليها فى أسبوع «التحول» يضاف إليها مائة مليون دولار أخرى.

واضح فى ضوء ما سبق أن انتفاضة الأقصى موطنة نفسها على الاستمرار والتصاعد والصمود والصبر على المكاره حتى تتحقق أهدافها فى هذه المرحلة من مراحل الصراع العربى الصهيونى الممتد، وإن لنا أن نتوقع أن يتعزز هذا الصمود بما يحدث فى معركة الحرم القدسى فى الدائرتين العربية والإسلامية، وهى المعركة التى انطلقت شعبيًا إثر انطلاق انتفاضة الأقصى، وشهدنا تجليات فيها على مدى الأسابيع الستة الماضية، وآفاق العمل فى هذه المعركة رحبة بدءًا من مقاومة التطبيع مع العدو الإسرائيلى، ومباشرة أحكام مقاطعته مرورًا بالرد على التحيز الأمريكى، والعداء الأمريكى لنا بما يوصل واشنطن إلى مراجعة سياستها، ولا يستبعد المتابعون أن يتضمن هذا الرد عمليات مبتكرة على صعيد المقاطعة الشعبية، فالرموز الاقتصادية

الأمريكية المفروضة بالعولمة وأخطرها «التدخين» وتشير الأخبار التى يتناقلها الناس فى أماكن وجود جنود أمريكيين فى الدائرتين العربية والإسلامية إلى أن أشكالاً من التعبير عن الغضب من التحيز والعداء الأمريكى للأمة بدأت تظهر ضمن هذا الرد.

وقد نقلت وكالات الأنباء ما حدث من ملاحقة لرجال الأعمال الأمريكيين فى فنادق أندونيسيا، وترددت أخبار التعليمات الأمريكية للجنود بتجنب الظهور بعد أن تعرض أفراد منهم للغضب الشعبى، وتترقب انتفاضة الأقصى تنفيذ قرارات القمتين العربية والإسلامية بكفاءة على الصعيد الرسمى؛ ليتعزز صمودها بالبعد الرسمى فى معركة الحرم القدسى.

عامل بالغ الأهمية فى تصميم انتفاضة الأقصى على الاستمرار هو إيمان راسخ بالله سبحانه الذى بارك المسجد الأقصى، والذى وعد بنصر من ينصره، والذى أعلى من شأن الشهادة، والذى خسف بقارون وبداره الأرض؛ لأنه بغى، ولم يُجده مال ولا علم، فهذا العامل الإلهى موجود، وله الكلمة العليا، وهو يبرز حين يؤدى المؤمنون واجبهم، ويعبرون عن إرادتهم، وقديمًا قال علماؤنا «إن لله عبادًا إذا أرادوا أراد» ويشهد علماء التاريخ بوجود هذا العامل، وإن اختلفت الأسماء التى يطلقونها عليه حسب معتقداتهم، وقد توقف الكثيرون من أبناء الأمة أمام عملية تفجير المدمرة «كول» فى ميناء عدن فى اتقانها وتوقيتها، وأمام أزمة الانتخابات الأمريكية فى توقيتها، وما يتوقع من مضاعفاتها وتداعياتها.

متوقع أن تتكثف مع تزايد الإرهاب الصهيـونى، وتصاعد انتفاضة الأقصى، ومعركـة الحرم القدسى، الجهود الدبلوماسـية على مختلف الصعد الدولية والإقليمية والمحلية لإيجاد حل، وقد رأينا كيف حاول الرئيس الأمـريكى - ولا يـزال يحـاول - فـرض الحل الإسـرائيلى الأمريكى الذى طـرحه فى مفـاوضات كامب دافـيد الثـانية، وذلك بدعوته إلى ما يسـميه وقف العنف، والعودة إلى مـائدة التفاوض التى أعدتها واشنطن منذ مدريد لإملاء الحل العنصرى لقضية فلسطين.

ويبدو أنه مصمم على الاستمرار فى هذا «العبث» الإجرامى حتى نهاية ولايته كى يدخل تاريخ الصراع العـربى - الصهيونى واحد من القارونيين الطغاة البغاة، بعد أن حفل سجل ولايته بالمذابح الصهيونية فى فلسطين ولبنـان التى كانت تتم بضـوء أخـضر من إدارته، وقـد رأيناه يكرر عقد الاجتماعات بهدف إخراج الصهاينة الإسرائيليين من أزمتهم، ويتابع فى الوقت نفـسه تعطيل مجلس الأمن عن اتخاذ أى قرار يردعهم، ويستمر فى محاولة اغتصاب الحرم القدسى.

إن الحل الوحيـد الذى يقبل به الشعب العـربى الفلسطينى فى هذه المرحلة يمكن أن يتـحقق إذا أوجعت الانتـفاضة العـدو الإسرائيلى، وأوصلتـه إلى ضرورة الانسـحاب من الأراضى العـربية المحتـلة عام ١٩٦٧، كمـا انسحب مـن جنوب لبنان، وهو يمكن أن يتحـقق إذا نجحت معركة الأمة فى التـأثير على المصالح الأمريكية، وأوصلت - كما سبق أن قلنـا - واشنطن لمراجعة سياستهـا المعادية لنا، وقد رأينا كيف أن القمتين العربية والإسلامية عبرتا بشكل غير مباشر، وبشكل

مباشر عن الضيق الشديد بهذه السياسة، ولسان حال الأمة «لقد طفح الكيل»، وهو يمكن أن يتحقق إذا نجحت الانتفاضة ومعركة الأمة فى إخراج الاتحاد الأوروبى من سلبيته وتبعيته للسياسة الأمريكية بالتأثير على مصالحه الكثيرة فى منطقتنا، والحق أن انعقاد الشراكة المتوسطية الأوروبية هذه الأيام مناسبة لكى يقوم الاتحاد الأوروبى بمراجعة لسياساته، وللتخلى من ثم عن هذه الصيغة التى حلت محل صيغة الحوار العربى الأوروبى فى محاولة لفرض الكيان الإسرائيلى فيها تمشيًا مع مشروع نظام الشرق الأوسط الأمريكى، وهذا الحل الوحيد يمكن أن يتحقق إذا أحسنا التحرك على صعيد القوى الدولية الأخرى.

وبعد ..

فنحن أمام تحول فى مسار انتفاضة المقدسات المسيحية والإسلامية له ما بعده، وعلى كل منا واجبه إزاءه، ولكل دوره فى تحقيق النصر، وبلوغ الهدف المرحلى بتحرير القدس الشرقية، والضفة، والقطاع، والجولان.

الانتفاضة مستمرة والتفاوض بدون مقاومة لا يصلح ولا يجوز

المعركة الراهنة لحماية المقدسات المسيحية والإسلامية فى القدس، ولمتابعة مواجهة جرائم الصهيونية العنصرية، تقتضى استمرار انتفاضة الأقصى، والانشغال بتتبع مسارها وتصعيدها حتى تحقق هدفًا مرحليًا هو تحرير القدس الشرقية، وأراضى الضفة الغربية، وقطاع غزة، وتخليصهما من المستعمرات الاستيطانية الصهيونية، وإرساء مبدأ حق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم وتعويضهم، وتحميل الكيان الإسرائيلى المسؤولية الأخلاقية والمادية لمعاناتهم.

واضح أن العدو الصهيونى يحاول بأقصى جهده إنهاء انتفاضة الأقصى، وقد أطلق يد مؤسسته العسكرية فى تنفيذ الخطط التى وضعتها على أمل تحقيق هذا الهدف، وها نحن نتابع يومًا بعد يوم جرائمه على هذا الصعيد التى تتضمن قتل المدنيين، وقصف الأحياء، ومحاولة اقتحام بعضها مستخدمًا الدبابات والحوامات والسفن أحيانًا، فضلاً عن الحصار.

واضح أيضًا أن الانتفاضة رغم ذلك كله مستمرة، وهى توشك أن تكمل وقت كتابة هذا الحديث ثلاثة شهور كاملة، وشعبنا العربى الفلسطينى عازم على متابعتها حتى تحقق هدفها المرحلى بعطائه

السخى للتحرير، ولا يزال التحول الذى شهده مسارها قبل شهر محدودًا باعتماد حد أدنى من استخدام السلاح ضد العدو، ولكنه قابل لأن يتزايد إذا لم يرعو العدو، ويبدو أن الاجتهاد الذى يرى إبقاء هذا التحول محدودًا يأخذ فى الاعتبار تأثير الاستشهاد فى صفوفنا على الرأى العام العالمى فى عصر القنوات الفضائية، وقدرة الشعب على تحمل الحصار، واستعداده للعطاء، وتقديم الشهداء، كما يتحسَّب هذا الاجتهاد من ردود أفعال العدو الوحشية إن أصابته ضربات شديدة الإيلام، ويبدو فى الوقت نفسه أن هناك اجتهادًا يرى أن استمرار العدو فى جرائمه سيجعل من الحتمى تصعيد المواجهة المسلحة فى الرد عليه؛ لأن جراح الأبطال من الشهداء والجرحى تنادى بمعاقبته، فضلاً عن اقتناع بأن التصعيد المحسوب ممكن وأكثر فاعلية فى الوصول بالعدو إلى التسليم بحقوق شعبنا.

جديد برز فى الأسبوع الثانى عشر لانتفاضة الأقصى، هو الإعلان عن جولة أخرى من التفاوض تجرى فى واشنطن بدعوة من إدارة كلينتون التى توشك أن تودِّع البيت الأبيض، ونقول الإعلان؛ لأن الاتصالات التى تسعى لإنضاج عملية التفاوض لم تتوقف، وهذا بالجديد الذى برز تضمن فى طياته جديدًا يحدث لأول مرة منذ مؤتمر مدريد قبل تسع سنوات، وهو أن يجرى التفاوض، بينما مقاومة الاحتلال بالانتفاضة مستمرة، وهذا يشير إلى أمرين: أولهما اقتناع القيادة الفلسطينية بأن هذا هو السبيل الصحيح لبلوغ حركات التحرير أهدافها، وهو ما طفقت جماهير الشعب تؤكد عليه، ودأب أهل

الرأى على التذكير به قائلين «التفاوض دون مقاومة لا يصلح ولا يجوز؛ لأنه يوصل إلى الإذعان لاتفاقات تُملى، يفرضها العدو، ويقنن من خلالها الاحتلال».

الأمر الآخر، وهو بالغ الأهمية، هو تسليم العدو بالتفاوض برغم استمرار الانتفاضة، وتخلّيه من ثم عن الشرط الذى كان يضعه لمباشرة عملية التفاوض، «أن يتوقف العنف» على حد تعبيره، وهذا الشرط صاغته قوى الطغيان والهيمنة، ورفعت عقيرتها بإعلانه فى كل مرة واجهتها فيها حركات التحرير، ثم رضخت للتخلى عنه حين تتمسك حركات التحرير بالمقاومة المسلحة التى هى حق شرعى فى القانون الدولى لكل من احتلت أرضه، وهى قبل ذلك توجيه إلهى يتجلى فى قوله تعالى ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

ويتداعى إلى خاطرى ما قرأته قبل سنوات لمحرر مجلة ايكونومست وهو يُسفِّه هذا الشرط علميًا بمناسبة ترديد الحكومات البريطانية له أمام ثوار أيرلندة الشمالية، وجاء يوم وتخلى المستعمرون البريطانيون عنه تمامًا كما تخلت عنه أمريكا حين فاوضت ثوار فيتنام فى السبعينات، وفرنسا حين فاوضت ثوار الجزائر، وكم هو حيوى أن يستلهم المفاوض باسم حركات التحرير روح المقاومة وهو يفاوض، فلا يُفرِّط، ولا يلين، ولا يستسلم.

على الرغم من تسليم العدو بمبدأ التفاوض فى ظل مقاومة قوى التحرير، فإننا نراه يُصعد حربه ضد انتفاضة الأقصى، وإذا كان تَردَّد

فى الشهر الأول للانتفاض أنه يواجه أحداث شغب، فإننا نسمعه اليوم يقول إنه يخوض حربًا ضدها، وقد وصف بيان القمة العربية الحالة القائمة فى فلسطين «بأنها عملية حرب تشنها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى مستخدمة القوة العسكرية لحصاره وعزله»، كما وصفها بيان القمة الإسلامية الذى تلا بأنها «حرب تشنها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى مستخدمة آلتها العسكرية من طائرات، ودبابات، وصواريخ، وزوارق حربية، وذخائر محرمة دوليًا، تزودها بها الولايات المتحدة الأمريكية» والحق أننا نعيش هذه الحرب الإسرائيلية المدعومة أمريكيًا، وعلينا أن نكون منتبهين أقصى درجات التنبه لاحتمالات تصعيدها بتشديد الحصار على الشعب الفلسطينى، وبتكثيف عملية اغتيالات القيادات الفلسطينية، وبضرب المدن والمخيمات، وبتهديد الدول العربية، والتلويح باستخدام مخزونها الحربى إشهارًا لسلاح الرد.

وهذا ما ناقشه المفكر الاستراتيجى د. هيثم الكيلانى فى مقاله «عندما تفكر إسرائيل فى الحرب» (جريدة تشرين ١/ ١٢/ ٢٠٠٠) وانتهى فيه إلى أن العرب وهم يفكرون فى السلام، ويعملون له لتحقيق هدف تحرير الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧، ونصب عينيهم السلام العادل والشامل لابد لهم أن يأخذوا فى الحسبان تلك الإنذارات والتهديدات المتتالية التى تطلقها إسرائيل بين الفينة والأخرى، فالدفاع عن النفس حق مشروع.

ما هى أهداف العدو الإسرائيلى من عملياته الحربية اليومية التى

يقوم بها؟ يبرز هذا السؤال، ونحن نتابع أخبار هذه العمليات فى الضفة والقطاع، ويتبادر إلى الذهن أن هناك فضلاً عن هدف محاولة إخماد انتفاضة الأقصى، والانتقام الحاقد من الشعب العربى الفلسطينى، فإنه يسعى لرسم خريطة على الأرض تمكنه من تثبيت مستعمراته الاستيطانية الكبيرة، وإحكام ربطها بكيانه توطئة لتنفيذ فكرة الفصل بينه وبين فلسطينى الضفة والقطاع، وهى فكرة تجرى مناقشتها فى مختلف الأوساط الإسرائيلية، وتتعدد آراء المستعمرين الصهاينة بشأنها وتختلف، وإن كانت تتفق على «حصر الفلسطينيين فى معازل» ستة منها فى الضفة، واثنان فى القطاع، يتحكم العدو فى الطرق التى تصلها ببعضها»، ولا ضير بعد ذلك عند بعضهم من أن تحمل اسم دولة فلسطينية، ومطلوب بإلحاح فى ضوء وضوح أهداف العدو هذه أن نتشبث نحن العرب على الصعيدين الشعبى والرسمى باستمرار الانتفاضة حتى تحقق أهدافها المرحلية كاملة.

سؤال آخر يبرز، وقد بدأت هذه الجولة الأخيرة من التفاوض العلنى، هو «ما هى احتمالات نجاح إدارة كلينتون فى التوصل إلى اتفاق إسرائيلى - فلسطينى نهائى فى شهرها الأخير فى الحكم؟».

العدو الإسرائيلى يعلن صراحة أنه يريد أن يكون الاتفاق مُتضمنًا إقرار الطرف الفلسطينى بانتهاء الصراع العربى الصهيونى، والذى يمكن القطع به هو أن أى اتفاق يتم التوصل إليه فى هذه الجولة لن ينهى الصراع، بل يدخله مرحلة جديدة، هذا إن أمكن ذلك، والاحتمال الممكن هو التوصل إلى اتفاق للتهدئة حتى يخف التوتر فى المنطقة، وتتولى الإدارة الأمريكية الجديدة مسؤولياتها، وتأخذ

وقتًا فى بلورة أفكارها بشأن التعامل مع الصراع العربى الصهيونى.

واضح فى ضوء ما سبق أن علينا أن نوطن أنفسنا على تمكين انتفاضة الأقصى من الاستمرار والتصاعد، وهذا يعنى أن نوفر لها مستلزمات الاستمرار والتصاعد ماديًا ومعنويًا، الأمر الذى يدعونا إلى طرح موضوع تنفيذ مقررات القمتين العربية والإسلامية، وقد انعقدت لجنة المتابعة الوزارية لمقررات القمة العربية يومى ١٠ و١١/ ١٢/ ٢٠٠٠ فى دمشق، وهذا الموضوع يستحق حديثًا خاصًا.

الموضوع الآخر الذى يستحق التفاتنا هو أن نبلور أفكارنا بشأن كيفية التعامل العربى مع إدارة الرئيس الأمريكى الجديد بوش الابن فى ضوء ما أسفرت عنه الانتخابات الأمريكية الأخيرة من حقائق واحدة منها انكشاف الدور اليهودى الصهيونى فيها وتداعياته، ووجود استراتيجية أمريكية تجاه الصراع يجب التعامل من أجل تغييرها، وما للحزب الجمهورى من تراث فى التعامل مع منطقتنا، وما لبعض خبرائه من اليهود الصهاينة، وإن كانوا أقل من خبراء نظيره الديموقراطى من قدرة على التغلغل بأفكارهم واحد منهم هنرى كيسنجر وزير الخارجية فى عهد الرئيس نيكسون، وقد أطل برأسه مؤخرًا بمقال نشرته جيروساليم بوست فى مطلع شهر ديسمبر كانون أول ٢٠٠٠ ضمنه أفكارًا بشأن التعامل الأمريكى مع الصراع فى هذه الفترة فى ضوء دروس تعامل إدارة كلينتون، وهذا الموضوع يستحق حديثًا خاصًا آخر.

ها هى وكالات الأنباء تنقل، ونحن على وشك إنهاء هذا الحديث، نص مقترحات إدارة كلينتون الأمريكية إلى كل من طرفى الصراع التى

بلورتها بعد جولة التفاوض الأخيرة، وهى تتناول الحدود والأمن، والأراضى، والمستوطنات، والقدس، واللاجئين، والإفراج عن المعتقلين الفلسطينيين، وإنهاء الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، والقراءة المتأنية لها تنتهى بنا إلى أنها لم تخرج عن الورقة الإسرائيلية - الأمريكية التى طرحها كلينتون فى كامب دافيد الثانية فى أفكارها الرئيسة، وإلى أنها تسعى إلى تمكين الصهيونية العنصرية من الاحتفاظ بكل ما فرضه واقع الاحتلال من جهة، ومصادرة جل الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربى الفلسطينى التى منها حق تقرير المصير، وحق إقامة الدولة ذات السيادة، وحق عودة اللاجئين، وحق تحرير فلسطين بكلمة جامعة، ولا يملك المرء حين يسبر أغوار هذه المقترحات إلا أن يردد «كيف يجرؤ الرئيس كلينتون على طرح هذه المقترحات المخالفة للقانون الدولى ولحقوق الإنسان غير آبه بما ينتج عنها من ردود أفعال عربيًا وإسلاميًا ودوليًا؟»

وإن لنا أن نتوقع فشلاً ذريعًا لها، بل إن لنا أن نزداد تمسكًا باستمرار الانتفاضة مؤمنين بأنها السبيل لردع العدو الصهيونى، وللرد على كلينتون الذى لم يأخذ عبرتها بعد، ولم يضع فى اعتباره ما قدمته على مدى ثلاثة شهور كاملة.

بقى أن نقول ما أكثر ما ينبغى أن نعمله عربيًا وإسلاميًا وفاءً بواجبنا نحو انتفاضة الأقصى، ودفاعًا عن أنفسنا فى هذه الحرب الإسرائيلية الأخرى، وإزاء غطرسة القوة الأمريكية، وتعبيرًا عن عزمنا على تحرير القدس وفلسطين، وإننا لقادرون على عمل الكثير بعون الله.

حقائق فى الواقع القائم: الانتفاض مستمر

«من حق أبناء أمتنا الذين يعيشـون مع انتفاضة الأقصى من خلال ما يشاهدونه فى التلفزة، وما يسمعونه فى المذياع، أن يوضعـوا فى صورة الواقع القائم فى فلسطين المحتلة بحقائقه كاملة، كى تتوحد رؤيتهم حول شعار «استمرار الانتفاضة إلى أن تنتصر وتحقق هدفها»، ومن أجل أن ينهض كل منهم بمسؤوليته الفردية فى دعم الانتفاضة، ومقاومة المشروع الصهيونى العنصرى.

كان هذا ما استشعرته طيلة الشهور السبعة الماضية التى مضت على بدء انتفاضة الأقصى، وأنا أتفاعل مع إخوة كثيرين فى مصر حيث أقيم، وفى عدد من الأقطار العربية التى زرتها للمشاركة فى فعاليات لدعم الانتفاضة، ولقد لفتنى فى جميع هذه التفاعلات مدى اهتمام أبناء أمتنا العربية بما يجرى على أرض المعركة، ومدى تأثرهم لمعاناة إخوتهم أبناء فلسطين «المنتفضين»، ومدى تقديرهم لعطائهم، وبخاصة الشهداء والجرحى، ومدى نقمتهم على العدو، وتحرقهم على الإسهام فى مقاومته.

كما لفتنى أيضًا قلق يعترى بعضهم على مستقبل الانتفاضة، وتساؤل الأخ المتعاطف المشفق عن مدى قدرة إخوتهم هناك على تحمل معاناة جرائم العدو الصهيونى العنصرى الذى استخدم الدبابة

والصاروخ والحوامة لتنفيذها، وعمد إلى هدم المنازل، وتجريف المزروعات والأشجار، وأقدم على تدبير عمليات الاغتيال.

ومن حق أبناء شعبنا الفلسطينى العربى «المنتفضين» فى الداخل فى فلسطين وطنهم المحتل، الذين تأثروا غاية التأثر لما رأوه فى الشهر الأول للانتفاضة على شاشة التلفاز من تأييد إخوتهم لهم من المحيط إلى الخليج الذى جرى التعبير عنه بصور شتى، والذين يتوقعون استمرار هذا التأييد، فيتابعون أخبار الاجتماعات العربية الرسمية والشعبية بلهفة، أن يوضعوا فى صورة الواقع القائم فى الوطن العربى على صعيديه الرسمى والشعبى، كى يزداد إصرارهم على متابعة الانتفاضة إلى أن تحقق هدفها.

كان هذا أيضًا ما استشعرته فى كل مرة استمعت فيها من إخوة قادمين من فلسطين المحتلة، وهم يقدمون شهاداتهم عن أحوال الأهل هناك، وقد لفتنى فيما سمعت تألق حقيقة الانتماء العربى التى تتجلى فى الاهتمام بمتابعة صور الوقوف العربى مع الانتفاضة بخاصة، كما لفتنى بروز تساؤل هناك حول أسباب تناقص صور التعبير عن هذا الوقوف، ووجود نقص واضح فى معرفة ما يجرى فى مختلف الأقطار العربية بفعل قصور إعلامى أو تحيز أو صمت مقصود.

فى ضوء ما سبق بدا لى أن أستهل شهر الانتفاضة الثامن بوقفة تعرُّف على الواقع القائم فى وطننا المحتل، وتعريف أبناء الأمة

بحقائقـه، وكذلك على الواقع القائم فى الوطن الكبـير، وتعريف أبناء شعبنا المنتفضين به.

* كان أول جواب سمعته ردًا على أسئلتى عن الحال فى أوساط شعـبنا فى الضفة والقطاع هو وجـود إجماع شـعبى على استـمرار الانتفاضة حتى تحقق هدفهـا، وشعار هذا الإجماع الشعبى هو «لا عودة لما كان عليه الحال قبل ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠».

ومعنى هذا الشعـار هو: أن الانتفاض هو سبـيل التحرير، وهو الذى سوف يفـرض على العدو أن يسلّم فى نهـاية المطاف بالخروج من الضفة والقطاع متخليًا عن المستعـمرات الاستيطانية الصهيونية، والانســحاب الـكامل من القـدس الشرقـيـة، ولا مجـال لإيقـاف الانتفـاضة قبل أن يسلّم العدو الصـهيونى بالانسحـاب والخروج، ومعناه أيضًا الحذر من قبول الدعوة إلى إيقاف الانتفاض بغية العودة إلى المفاوضات؛ لأنها دعوة قوى الهيمنة الدولية والأمريكية بخاصة، ومعها الصهيـونية العنصرية، وهدفها إملاء التسوية الظالمة والحل العنصرى علينا، ولأن الـسنوات الإحدى عشرة الماضـية منذ مدريد والسنوات التسع منذ أوسلو علمتنا أن التفاوض بدون مقاومة لا يصلح ولا يجوز.

بقدر مـا أسعدنى هذا الجـواب الواضح، بقدر مـا لفتنى أنه هو نفســه لسان حــال أبناء الأمة، وقـد سمـعته فى عـدد من الأقطار العربيــة التى زرتها، وها هى دعوة تصلنى وأنا أكـتب هذا الحديث

للمشاركة فى ندوة فى الأسكندرية تنظمها لجنة الحريات بنقابة المحامين، موضوعها «انتفاضة حتى النصر».

وكم وددت أن أشارك فيها لولا انشغالى بمهمة أخرى، فهناك ما يقارب الإجماع فى الأمة على ضرورة انتصار الانتفاضة، وتحقيق هدفها، ولافت أن أهلنا فى الداخل شأن أبناء الأمة فى الوطن الكبير يحذرون من قبول أى وقف للانتفاضة مستذكرين ما رسخ فى ذاكرة الأمة حول الهدنة الأولى والهدنة الثانية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وما نجم عنهما من نتائج سلبية.

* جواب آخر على سؤال حول مدى قدرة المنتفضين على تحمل عسف العدو وجرائمه، هو: «أن قدرة شعبنا على التحمل عظيمة، واستعداده لمتابعة عطائه السخى كبير» ويقترن تقديم هذا الجواب بضرب أمثلة عليه، فها هو الإقبال على الشهادة والاستشهاد مستمر، وها هى أمهات الشهداء يستقبلن من استشهد من أبنائهن بالزغاريد، مدركات ما يوجده الاستشهاد من حياة فى المجتمع، ومؤمنات بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ويلاحظ المراقبون - وهم يتابعون أحداث الانتفاضة - أن أهلنا لم يعودوا يخافون أسلحة العدو، وقد تعودوا على رؤية الدبابة وهى تتقدم، وعرفوا كيف يوقفونها، وألفوا رؤية الصاروخ والحوامة، ووطنوا أنفسهم على أن يغلب صمودهم العدو الذى بدأ يدرك أن استخدام القوة الغاشمة المفرطة لن يوقف الانتفاض.

* تجمع التقارير عن العلاقات بين قوى شعبنا فى الداخل وفصائله وتنظيماته على أن «الوحدة الوطنية» هى التعبير عن واقع هذه العلاقات، وهى اليوم فى أروع صورها، تعبر عن وعى بطبيعة الصراع ضد الصهاينة، وبمتطلبات المعركة الراهنة فيه، كما تعبر عن إدراك بخبرة العقود الأربعة الماضية فى هذه العلاقات، وإن لنا أن نتوقع تحقق تكامل الأدوار بين التنظيمات وبين الشعب والسلطة، وبين مختلف القوى والأفراد من خلال هذه الوحدة الوطنية، بحيث تتجه كل أعمالنا لإرهاق العدو، وكسب المعركة، ومحاصرة «الضالين» العُملاء الذين أكرههم بداية على أن يكونوا عملاء، ومكَّن لهم بالاتفاقات ولا يزال يضغط عليهم، والعمل على «توبة» من يتطلع منهم للتوبة، ومعاقبة من يستمر سادراً فى غيِّه، كما أن لنا أن نتوقع أن تثمر هذه «الوحدة الوطنية انتصاراً فى مواجهة الفساد» التى بدأت بمراجعة النفس ومحاسبتها؛ لأن مناخ الانتفاضة هو غير مناخ ما قبلها الذى أغرى البعض بالفساد.

* هذا هو الجواب عن سؤال يتردد فى بعض أوساط الأمة عن العلاقات بين الفصائل الفلسطينية وقوى الشعب.

* سؤال آخر يتردد حول «قيادة» الانتفاضة، ومدى قدرتها على توفير «وحدة الكلمة» والجواب سهل؛ لأنه نتيجة حتمية لتحقيق «الوحدة الوطنية» وهذا الجواب هو أن هناك اليوم «قيادة» واحدة للشعب كله، يشارك فيها الجميع من خلال مؤسساتهم التنظيمية وروابطهم الاجتماعية، تتعاون فيها السلطة الجزء مع المنظمة الكل،

تتضافـر الأجهزة معًا فى المعركـة، وعلى رأس الهرم رئيس المنظمة رئيس السلطة.

هذه الظاهرة بدأت بوقفـة القيادة فى «كامب دافيـد» حفاظًا على الحرم الشريف، وحق العودة، وهى وقفـة تاريخية تضافرت عوامل فى صنعها، أهمها إرادة الشعب، ودعم الأشقاء، وشخصية القائد الذى وقفـها، وهى شخصـية لم يحسن بيل كلينتون قـراءتها، ولا العـدو الصهـيـونى، وقد نمـت هذه الظاهرة مع انطلاق انتـفاضـة الأقصى وباستـمرارها، فإذا «بشرعـية المقاومة» تتـعزز من جديد، وكانت أوسلو قد أنهكتها.

ولافت أن ذلك الحديث الذى كـان يتردد قبل تلك الوقفـة حول «من يخلف أبا عـمار؟» توقف تمامًا، ليـحل محله حـديث وحدة قيـادة الانتـفاضـة من خلال الوحـدة الوطنية فى هرمٍ واحـد بكل مسـتوياته من قاعـدته إلى قمتـه، ولافت هنا أن الحملة الإعلامـية الصهيونيـة الأمريكيية على القيادة بزعم أنها فوتت فـرصة تاريخية تأتى بعكس ما يقصـده منها منظموها، فتجعل الناس أكـثر تقديراً لموقف القيـادة الذى صمـد فى وجه «مؤامـرة تاريخيـة» فى كامب دافيد أمريكية - صهيونية.

مثل على ذلك مـا صدر من تعليقـات فى أوساط شعـبنا وأمتنا على سؤال وجهـه صحفى عربى مقيـم فى واشنطن لعربى أمريكى من الناشطين، ونص السؤال هو: «هل تعتقد أن عـرفات بإحجامه

عن توقيع كامب دافيد قد فقد فـرصة ذهبية لن يتحصل على مثلها قبل خمسين عامًا؟» والصحفى هنا يـختبر هذه المقولة الصهيونية - الأمريكية على الأرجح، ولا يعـبر عن اقتناعه، وكانت التـعليقات التى سمـعتهـا: «أى فرصـة ذهبية هذه التى تتـحدث عنهـا؟ إنها مؤامـرة تاريخية، وقد عـبرت القيـادة بصمودها أمامـها عن إرادة الشعب والأمـة، وكفى حديث عن «فرص» فقـدت أو ضاعت فى تاريخ الصراع، ومنهـا زعم «قبول التقـسيم عام ١٩٤٨»؛ لأن هذه ليـست فـرصًـا، وإنما هى تمكيـن للعـدو، ولأن التـمـسك بالحق واستمرار المقاومة لاسترجاعه هى الفرصة الحقة.

* وسـؤال آخر يتـردد فى أوسـاطنا العـربية حـول واقع العـدو الصهـيونى وداعمـه الأمريكى بعـد سبعـة شهور من الانتـفاض، والجـواب هو «إن حـالة من الاهتـزاز، وفـقـدان الصـواب تتلبس المستعـمر المستوطن، هى حالة المغـتصب سارق الأرض الذى تلطخ بجرائـم لا تحصى، وهو يواجـه مقاومـة صاحب الحق؛ ولـذا فإن هاجسه الذى ينام ويصحو عليـه هو «أمنه» الجماعى والفردى، وما هو قادر على توفيره لنفسه، رغم كل مزاعم مجرم الحرب شارون، والمضى فى العـسف والقـمع والعنف، وحـالة العـدو هذه سـوف تتفاقـم إذا استمر الانتفـاض، وعززته مقاومـة الأمة واستخـدامها أوراقها للوصول بالداعم الأمريكى للعدو إلى مراجعة موقفه.

وقد بدأت نذر ذلك أمام ما نقلته وكالة الاسـتخبارات الأمريكية عن مشاعر أبناء أمتنا الناقمة على الموقف الأمريكى هذا، فكيف إذا

جرى التعبير عن هذه المشاعر شعبيًا بالنهوض بالمسؤولية الفردية فى المقاومة؟ وكيف إذا بدأت الدول العربية رسميًا حصر أوراقها التى يمكن أن تستخدمها للتأثير على الموقف الأمريكى وحشدها؟ وهاهم الخبراء يقولون، ومنهم جيمس زنجبى «هذا يعنى حساب عدد الشركات الأمريكية التى لها حجم من الأعمال فى العالم العربى، واستخدام ذلك لموازنة القوى مع السلطة السياسية فى واشنطن».

هذه هى حصيلة وقفة التعرف على حقائق الواقع القائم فى فلسطيننا، وفى وطننا العربى الكبير فيما يتعلق بانتفاضة الأقصى فى بداية شهرها الثامن، وهناك تفصيل لحقيقة نؤكدها ونحن نتجه لأهلنا المنتفضين وهى: «إن أمتكم تعتز بكم، وتقف معكم، فثقوا بها وأنتم ترفعون شعار استمرار الانتفاضة حتى تحقق هدفها، وسوف ترون فى الأيام القادمة مزيدًا من التعبير عن هذا الوقوف شعبيًا، ورسميًا، وجماعيًا، وفرديًا»، وهناك تفصيل أيضًا فى الحديث عن إدارة بوش، ومصير شارون، لنا عودة إليه.

تقويم دعم الأمة لانتفاضة الأقصى

انتفاضة الأقصى مستمرة فى مطلع عام ميلادى جديد، وقرن جديد، وألفية جديدة، لتعبر عن ولادة جديدة أخرى لشعب عربى فلسطينى تمتد جذوره إلى فجر التاريخ مع شعوب أمته العربية التى شيَّدت مع أمم أخرى الحضارة العربية الإسلامية واحدة من أعظم حضارات الإنسان.

وبينما تجرى المعارك على أرض فلسطين بين «المقاومة» و«الصهيونية العنصرية» التى يشن كيانها الإسرائيلى حربًا إجرامية لإنهاء الانتفاضة، لا تزال الإدارة الأمريكية تحاول فرض حل عنصرى لقضية فلسطين وضع رئيسها بيل كلينتون توقيعه عليه، وقدمه فى صورة مقترحات تستهدف الالتفاف على انتفاضة الأقصى ووأدها، وقد كشفت صهيونية الرئيس الأمريكى بيل كلينتون بكل ما فى الصهيونية من عنصرية وعداء للقانون الدولى، ولقرارات الأمم المتحدة، وحقد على الحضارة العربية الإسلامية، وسيتحدد مصير هذه المقترحات نهائيًا يوم انتهاء ولايته فى ٢٠/١/٢٠٠١، وعندها تكون وقفتنا فى تقويم عهد هذا الرئيس الأمريكى الصهيونى من منظور الصراع العربى الصهيونى.

ما يهمنا اليوم فى المقام الأول هو استمرار الانتفاضة حتى تحقق هدفها المرحلى بتحرير الضفة الغربية وقطاع غزة، ولكى تستمر الانتفاضة لابدّ لها، فضلاً عن العطاء السخى الذى يقدمه أهلنا دعم

الأمة فى الدائرتين العربية والإسلامية، ومن هنا تتجه أنظارنا إلى الاجتماع القادم للجنة المتابعة الوزارية لمقررات القمة العربية الأخيرة، وتنفيذ هذه المقررات بعامة، وتحرك الأمانة العامة لجامعة الدول العربية على هذا الصعيد.

لقد سبق أن حددنا «المعيار الموضوعى» لتقويم القمة العربية، وقلنا إن عناصر التقويم تتضمن سياق الانعقاد، والاستجابة لدعوة المشاركة، وخطابات رؤساء الوفود، والقرارات التى صدرت، ثم هذا هو الأهم تنفيذ هذه القرارات، وفيما يخص سياق الانعقاد، وضح لنا أن هذا العنصر يجعل انعقاد هذه القمة العربية حدثًا عظيمًا فى تاريخ النظام العربى، والعمل العربى المشترك؛ لأنها أعادت للنظام العربى اعتباره من خلال المشاركة الجماعية لأعضائه فيها، والتمسك به، ومقاومة نظام الشرق الأوسط الاستعمارى الصهيونى الذى حاول هذا التحالف فرضه منذ مؤتمر مدريد بعد زلزال الخليج بديلاً عن النظام العربى.

وتتداعى إلى الخاطر فصول هذه المقاومة على مدى تسعة أعوام التى استهلها نفر من المفكرين العرب حملوا لواءها، ثم كانت قمة الإسكندرية الثلاثية علامة بارزة فيها آخر عام ١٩٩٤، ثم قمة القاهرة فى مطلع صيف ١٩٩٦ بدون العراق علامة بارزة أخرى، وصولاً إلى هذه القمة بعد انتفاضة الأقصى، وكم كان أمرًا عظيمًا أن تخصص القمة ربع قراراتها لإعادة الحيوية للنظام العربى وإحكام آليته.

فيما يخص استجابة الدول الأعضاء للمشاركة، رأينا كيف كانت

استجابة رائعة وعلى أعلى مستوى فى الغالب الأعم، وهى استجابة كان للانتفاضة دور خاص فيها، وقبل ذلك لاستشعار أعضاء النظام حاجتها الماسة إليه، وقد أدرك كل واحد منهم هذه الحاجة الماسة أثناء فترة الجمود الذى حل بالنظام، وأعلى من شأن هذه الاستجابة خطابات رؤساء الوفود فى جلسة الافتتاح؛ حيث تضمنت هذه الخطابات معان كريمة، ومواقف جيدة، وتجلى فيها تأثير روح الانتفاضة وما للاستشهاد من قدرة على الإحياء، انطلاقًا من حقيقة أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ومن هؤلاء الشهداء الصبى محمد الدرة الذى كانت صورته ماثلة وهو فى حضن أبيه، أمام كل متحدث فى القمة، وتستحق هذه الخطابات أن تحلل بنظرة نقدية موضوعية فى حديث خاص.

جاءت قرارات القمة العربية لتعبّر عن الجامع العربى المشترك بين الدول الأعضاء فى النظام العربى، ولتصوغ موقفًا واحدًا تجاه الصراع العربى الصهيونى وتسويته، وتجاه انتفاضة الأقصى ودعمها، وتجاه مقاومة تغلغل العدو الإسرائيلى ومعاقبته على جرائمه، فضلاً عن إحكام آلية النظام العربى، وهكذا اعتمدت القمة العربية بالنسبة للصراع استراتيجية السعى للسلام العادل الشامل، وكانت قبل ذلك قد اعتمدت استراتيجية السعى للسلام بدون تحديد لمواصفاته الأمر الذى أُسيء فهمه، واتخذت قرارات لدعم الانتفاضة، بعد أن أدانت العملية الحربية الإسرائيلية، وجاءت قراراتها لمقاومة التغلغل الصهيونى، ومعاقبة العدو على جرائمه لتشير إلى تطوير محمود فى

مواجهتــه، وكذلك جاءت قراراتها بشأن تقــوية النظام العربى واعدة بتوفير قوة دافعة له.

جميع هذه العنــاصر فى معيار التــقويم الموضوعى للقمــة العربية، دللت على أن هذه القمة حققت إلى حد ليس بالقليل ما كان متوقعًا منها، وإن لم يبلغ ما حققته طموح الأمة، وذلك على غير ما عممه إعلام العدو الصــهيونى الغربى الذى عمد إلى تيـئيس أبناء الأمة من جدوى أى عمل عربى مشترك، والحق أن ما أوجزناه فى تطبيق المعيار لتقويمــها يستحق تفضــيلاً فى مجال آخر لأن مــا نركز عليه فى هذا الحــديث هو العنصر الأهـم البــاقى، وهو تنفــيذ قــرارات القمــة فى أقسامــها الأربعة، وهذا ما يجـعل أنظارنا تتجه إلى الاجتــماع القادم للجنة المتابعة الوزارية لمقــررات القمة العربية التى ذكر أنها ســتجتمع فى تونس يوم ٢٠٠١/١/١٠.

لقــد سـبق لــهــذه اللجنة أن اجــتــمــعت فــى دمــشق يومى ١٠ و١١/ ١٠/ ٢٠٠٠، ويومهــا حرص المعنيــون بتقدم النــظام العربى، وبدعم الانتفاضة أن يتابعوا نتائج اجتماعها ليروا إلى أى مدى حدث تقدم على صعيد تنفيذ قرارات القمة، وبخاصة وأن تصريحات كثيرة كررت الحديث عن تأخر فى التنفيذ وقــصور فيه، وقد أحسنت وكالة الأنباء الســورية حين عمــمت توصيات الــلجنة، بعدما ذكــر أنها لن تعلن لأن الإعلان ضرورى والمساءلة واجبة.

* كان من بين توصيات اللجنة التى درست تفـعيل مكتب المقاطعة العربيــة ضد إســرائيل أن تدعو الدول العــربية لعقــد اجتــماع طارئ

لمكاتب المقاطعة العربية فى دمشق لهذا الغرض، والسعى لرفع الحصار عن الشعب الفلسطينى، فماذا تم بشأن الأمرين؟ وبخاصة وأن العدو ماضٍ فى حصاره، ونود أن يُعرَّف الرأى العام بخطوات هذا السعى، وأن نسمع عن عودة الفعالية لمكاتب المقاطعة على الصعيد الرسمى، وعن متابعة المقاطعة التى تمت على الصعيد الشعبى بتلقائية.

لقد تحدثت توصيات اللجنة عن دعوة الدول والهيئات والمؤسسات الدولية للعمل على إنهاء سياسة الحصار التى تنتهجها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، وتسهيل دخول البضائع والمنتجات الفلسطينية إلى الدول العربية بأسرع وقت ممكن، ودعوة وزراء التجارة والاقتصاد العربى لعقد اجتماع على مستوى نواب الوزراء لبحث الإجراءات العملية لتقديم شكوى إلى منظمة التجارة العالمية والمؤسسات الأجنبية الأخرى لوقف الإجراءات الإسرائيلية لحرية مرور السلع والمنتجات الفلسطينية، والتوصية إذا نظرنا إليها باعتبارها خطوة أولى، توصية جديدة، وأبناء الأمة يتطلعون إلى أن يعرفوا ماذا تم بشأن تنفيذها، فهل تمت دعوة الدول والهيئات والمؤسسات الدولية للعمل على إنهاء سياسة الحصار؟ ومن هى هذه الدول؟ وماذا كان جواب كل منها؟ ماذا قال الاتحاد الأوروبى بالذات الذى أرسل مندوبه لبحث منظمة التحرير الفلسطينية على قبول اقتراحات كلينتون العنصرية؟ ماذا قالت الولايات المتحدة الأمريكية التى لا تزال تتمسك بزعم كونها «راعى عملية سلام»؟ وماذا قال آخرون؟ وهكذا . . لأن

من الضـرورى مـعـرفـة هذه المواقف، وحـفظهـا فى سـجل تاريخ الصـراع، وأخذهـا بعين الاعـتـبار فـى العلاقـة بهـذه الدول على الصعيدين الرسمى والشعبى، والأسئلة نفسها تثور بالنسبة للإجراءات العملية التى تتخذها دولنا لتقديم شكوى إلى منظمة التجارة العالمية، ومثيـلاتها لوقف الإجراءات الإسرائيليـة المتخذة لتعطيـل حرية مرور السلع والمنتجات الفلسطينية.

إننا نتطلع إلى أجوبة تصـدر عن اجتماع اللجنة القـادم، وحبذا لو أن الأمانة الـعامة لجـامعـة الدول العربيـة انتظمت فى إصدار تـقرير شهـرى عما تم تنفـيذه عمليًـا من قرارات القمـة العربية، فـهذا من مهامها، وهو أيضًـا سبيل لتعزيز الثقة الشعبـية بالنظام العربى وبها، وهو مطلوب كى يسـتنيـر به العمل الشـعـبى العربى، وقـد تطرقت توصيات اللجنة الوزارية فى اجـتماعها السابق إلى تنفـيذ قرار الدعم المالى للانتفاضة «وضرورة التزام الدول العـربية بتحويل ما أعلنته من إسهـام فى صندوقى الانتفاضـة والقدس»، و«تنفيـذ ما قررته القـمة بتقديم الدعم المالى للبنان لمساعدته فى إعـادة «الإعمار»، وما أكثر ما تدين به الأمة للبنان الغالى ومقاومته العظيمة، وكذلك أوصت اللجنة «بتقـديم ورقة عـمل للخطوات التنفـيذية المطلوبة لتـشكيل لجنة من خبراء القانون الدولى لمتابعة قرار القمة العربية بشأن محاكمة مجرمى الحرب الإسرائيليين ومـلاحقتهم» فما الذى تم بشـأن هذه التوصيات المباركة؟

الإجابات التى نتطلع إلى معرفتها من خلال اللجنة والأمانة تمكننا من

تقويم الدعم الرسمى العربى للانتفاضة بغية تأمين استمراره حتى يحقق نضال شعبنا هدفه المرحلى، ويبقى أن نولى موضوع الدعم الشعبى للانتفاضة عناية خاصة، ونفرد له حديثًا خاصًا، لنحيط أولاً بأشكاله وحجمه ماديًا ومعنويًا انطلاقًا من كون الأمة تخوض معركة أخرى فى هذا الصراع العربى الصهيونى الممتد، ولتقوم المنظمات الشعبية ثانيًا بوضع خطة شاملة لتوفير انتظام هذا الدعم الشعبى، ولافت أن الحديث بهذا الشأن تردد فى عدد من الأقطار العربية فى وقت واحد.

وقد أقرت الأمانة العامة للمؤتمر القومى العربى فى اجتماعها يومى ١ و٢/ ١٢/ ٢٠٠٠ اقتراحًا بتشكيل هيئة عربية عليا للمتابعة والتعبئة لتنسيق النشاطات العربية الداعمة للانتفاضة فى فلسطين، وأن تكون نواتها رؤساء الاتحادات النقابية العربية، ومن بعض الفعاليات، وأن تكون هيئة مستقلة شاملة، وقد لحظت فى الحديث عن الدعم الشعبى فى عدة عواصم عربية تأكيد من يردده من أهل الرأى على ضرورة أن يتكامل مع الدعم الرسمى ويتناغم، وينال منذ البداية تفهم الحكومات وموافقتها، بل ومباركتها؛ لأننا فى هذه المعركة نقف جميعًا رسميًا وشعبيًا فى صف واحد فى مواجهة الصهيونية، وقوى الطغيان التى تدعمها، ولابد أن نصل بسفينتنا الواحدة إلى شاطىء النصر، مدركين أنه أيًا كانت نتيجة محاولات كلينتون فإن الصراع مستمر، وقد دخل بانتفاضة الأقصى مرحلة جديدة.

فلنوطن النفس إذًا على أن النضال مستمر، وعلى أن تتابع الأمة رسميًا وشعبيًا لدعم انتفاضة الأقصى، ونصب العين قوله تعالى ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾.

القمة العربية وفتح ملف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية حدث له ما بعده

لعل من أهم ما حدث فى مؤتمر القمة العربى الأخير الذى انعقد بعمّان عاصمة الأردن فى ٢٨/ ٣/ ٢٠٠١، هو فتح ملف «علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بالكيان الإسرائيلى» فهذا «حدث» له ما بعده على المستويين الشعبى والرسمى فى الوطن العربى.

وسوف تكون له تفاعلاته وتداعياته، وهو يستحق العناية العظيمة به؛ لأن فتح هذا بعد عقد من زلزال الخليج، وانعقاد مؤتمر مدريد يوم ٣٠/ ١٠/ ١٩٩١ يعنى مباشرة «مراجعة» عربية لعملية التسوية الأمريكية الإسرائيلية التى أطلق عليها «مصممها» وراعيها الأمريكى تضليلاً «عملية سلام الشرق الأوسط» كما أنه يعنى الشروع فى مواجهة العداء والعدوان اللذين يستهدفنا بهما نحن العرب هذا التحالف الآثم الشرير لقوى الهيمنة الطاغوتية الأمريكية والصهيونية العنصرية.

لقد وقع هذا «الحدث» فى وقت أكملت انتفاضة الأقصى فيه ستة شهور، رأينا أثناءها من عداء التحالف الأمريكى الصهيونى وعدوانه وجرائمه الكثير، مما أضيف إلى كتاب من الممارسات الإرهابية غير الإنسانية المخالفة للقوانين والأعراف الدولية، وميثاق

حقوق الإنسان بخاصة على مدى ستة عقود منذ مؤتمر «بلتيمور الصهيونى» فى نيويورك عام ١٩٤٢ الذى كرَّس هذا التحالف، و«المراجعة» التى باشرناها «والمواجهة» التى شرعنا فيها تقتضيان أن يكون مضمون هذا الكتاب حاضراً فى ذاكرة الأمة بكل فصوله.

السبب المباشر فى وقوع هذا الحدث هو الفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن أثناء انعقاد القمة العربية على مشروع قرار «بتوفير حماية دولية للفلسطينيين» فى الحرب التى يشنها الاحتلال الإسرائيلى عليهم، فقد عبَّر هذا الفيتو الأمريكى مرة أخرى عن العداء والعدوان ضد الدول العربية جمعاء، وعلى نظرة الاستعلاء والاستهانة «بمؤتمرهم» وكان حتمًا أن يأتى الرد العربى الرسمى، وقد جاء فى البند العاشر من قرارات القمة وهو «عبّر القادة عن استيائهم البالغ لاستخدام الولايات المتحدة حق النقض «الفيتو» فى مجلس الأمن ضد مشروع القرار حول حماية الشعب الفلسطينى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وإنشاء قوة الأمم المتحدة للمراقبة فى تلك الأراضى، ويعبرون عن رفضهم التام للتبريرات الأمريكية بوصفها «راعية» لعملية السلام، وعضواً دائمًا فى مجلس الأمن، وتتحمل مسؤولية خاصة تجاه صياغة الأمن والسلام الدوليين، أما الرد العربى الشعبى على هذا الفيتو الأمريكى الأخير، فكان «غليانًا» و«غضبًا» جرى التعبير عنهما فى مظاهرات الأهل فى فلسطين المحتلة، وفى مظاهرات الطلاب ومسيرات النقابات هنا وهناك فى الوطن العربى، وفى توجه كثيرين من أبناء الأمة لمقاطعة

البضائع الأمريكية، وسنذكر مع هذا السبب المباشر فى وقوع الحدث، فضل دول عدم الانحياز التى أصرت على أن يجرى التصويت على مشروع القرار الذى تقدمت به، كما سنذكر تخاذل الدول الأوروبية التى امتنعت عن التصويت.

ما كان لهذا الفيتو الأمريكى أن يؤثر هذا التأثير فى القمة العربية وأعمالها لولا المناخ الذى ساد فيها بفعل انتفاضة الأقصى بشأن «العلاقات الأمريكية الإسرائيلية» الذى عبّرت عنه خطابات الملوك والرؤساء بدرجات متفاوتة فى هذه القمة وسابقتها قبل خمسة شهور، وفى قمة قطر الإسلامية قبل أربعة شهور، فكثير هى الإشارات التى تضمنتها الخطابات لملف التحالف الأمريكى الإسرائيلى، وهى تستحق من المختصين بدراسة علم السياسة الوقوف أمامها، وهم يرصدون ما يجرى من تحول فى المرحلة الراهنة من الصراع العربى الصهيونى، ومن بين هذه الخطابات خطاب الأمير عبد الله بن عبد العزيز فى قمة القاهرة، لما له من دلالات بحكم مكانة «السعودية» فى العمل العربى المشترك، وعلاقات السعودية بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولقد جاء خطاب الرئيس السورى بشار الأسد فى قمة عمان فى «تنظير» واقع الكيان الإسرائيلى و«تعليل» انتخاب الإسرائيليين شارون رئيسًا لحكومتهم لكونهم «يشكلون مجتمعًا عنصريًا أسوأ من النازية»، ليسجل «تحولاً» بالغ الأهمية فى الخطاب العربى الرسمى من حيث تعامله مع الكيان الإسرائيلى باعتباره «استعمارًا

استيطانيًا عنصريًا» وذلك للمرة الأولى منذ أن بدأت مساعى التسوية الأمريكية للصراع العربى الصهيونى بعد حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧.

قد يقول البعض من أبناء أمتنا، ولقولهم ما يبرره «أليست هذه الخطابات مجرد كلام؟ لماذا يلتفت كاتب هذا الحديث إليها؟ ألا يذكر مئات الخطابات التى قيلت للتنفيس عن غضب جماهيرى، وتلك التى تبددت كلماتها فى الهواء؛ لأنها لم تتحول إلى فعل؟ وما أكثر الذين يقولون ما لا يفعلون، وقديمًا قال أجدادنا بلسان قائل المثل: «أسمع جعجعة و لا أرى طحنًا» نحن نتوقع عملاً يُصدّق ما تضمنته الخطابات من إيجابيات فى القول.

ويقول كاتب هذا الحديث مع آخرين من أبناء أمتنا لهذا البعض من إخوتهم «بداية إن لقولكم ما يبرره، ونحن نضم صوتنا مع صوتكم فى ضرورة تحوّل القول الإيجابى إلى فعل مؤثر وعمل صالح، وهذا يدعونا إلى أن ننظر فى آلية هذا التحول، وهذه الآلية تتضمن الوقوف أمام القول الإيجابى وإبرازه أولاً، ثم الحث على تنفيذه، والمساعدة فى ذلك، ثم المساءلة والمحاسبة.

لأن مراكز البحث التابعة لقوى الهيمنة الأمريكية والصهيونية راعية هذه الآلية تحول القول إلى فعل، رأينا الإدارة الأمريكية تهتم بما تردد فى القمة العربية الأخيرة بشأن التحالف الأمريكى الإسرائيلى، وتنظير الكيان الإسرائيلى باعتباره استعمارًا استيطانيًا

وتقف أمـام القرار الذى تضمـن تعبيـر «الاستـياء البـالغ» وتعبـير «الرفض التـام»؛ لأنه جديد يحـدث لأول مرة منذ مؤتمـر مدريد، وهكذا رأينا المتحـدث باسم الخارجـية الأمريكيـة ريتشارد فـاوتشر يسارع إلى التصريح منتقداً ما قالـه الرئيس السورى وواصفًا تشبيهه عنصرية الصهيـونية بأنها أكثر من عنصرية النازيين بأنها «تشـبيهات خاطئة تمـامًا وغير مقـبولة، وغير مناسـبة على الإطلاق» ثم أردف قائلاً: «أن الإدارة الأمريكية مازالت تراجع بيان القمة العربية» كما رأينا مساعـد وزير الخارجية الأمريكيـة إدوارد ووكر يشنّ فى اليوم التالى ٣١/٣ هجومـًا عنيفًا على دول عربيـة، كما أوردت الأهرام قائلاً: «أن انتقاد القمة العربية التى انعـقدت فى عمان كان قاسيًا، وغير مقبول فى بعض الحالات بالنسبة للولايات المتحدة».

كمـا انتقد كـلمة الرئيس الأسد وقـال: «إن بشار يتـخذ موقـفًا متصلبًا تجاه إسرائيل، وأن وصفه للصهيونية بالعنصرية غير مقبول، ومع ذلك يريد الرئيس بوش العمل معـه»، وقد بدأ أثر ما ورد فى القمـة العربية بشـأن أمريكا والكيان الإسرائـيلى على وجه الرئيس جـورج بوش فى لحظة انفـعال فى مـؤتمره الصـحـفى الذى تناول الوضع المتـفجـر فى الأراضى الفلسطيـنية يوم ٣١/٣؛ حـيث بدا مـربداً متـجهـمًا فـاقد الأعـصـاب يريد من عرفـات وقف العنف (!!كذا).

قلنا إن فتح ملف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية سوف تكون له تفاعلاته ومـضاعفاته، وهو يؤذن بمباشـرة «مراجعة» عربيـة لعملية

التسوية الأمريكية الإسرائيلية، وبالشروع فى «مواجهة» للعداء والعدوان الأمريكى الصهيونى علينا، وقد بدأت بعض التفاعلات بالظهور، ورأينا «تزحزحًا» أمريكيًا عن موقف إدارة بوش بشأن التعامل مع أحداث الحرب التى تشنها الحكومة الإسرائيلية على شعب فلسطين العربى، فبعد أن تضمن هذا الموقف «إعطاء مجرم الحرب شارون الضوء الأخضر لتصعيد الإرهاب الصهيونى فى هذه الحرب، مُنحيًا فى الوقت نفسه باللائمة على السلطة الفلسطينية فى ما أسماه «روافد العنف»، ومطالبًا «عرفات» بإصدار بيان بإدانة العنف إلى آخر ما ردده من فجور القول، هاهو اليوم فى نهاية زيارة الرئيس مبارك يتحدث عن «اتخاذ الجانبين خطوات لوقف العنف» كما أورد مسؤول أمريكى على لسان الرئيس بوش فى بيان البيت الأبيض عن لقاء الرئيسين «الأهرام ٥/ ٤».

وهاهى واشنطن تتحرك للجم شارون بهزة خفيفة، ونشدد هنا أن ما حدث ليس أكثر من «تزحزح» ولكنه قابل إذا تابعنا حصر أوراقنا العربية وحشدها للتأثير على مصالح أمريكا أن ينتقل تدريجيًا إلى «التحول».

من بين التفاعلات التى ظهرت هذه التصريحات التى رددتها وكالات الأنباء يوم كتابة هذا الحديث عن وزير الإعلام والثقافة بدولة الإمارات العربية المتحدة عقب افتتاحه يوم ٤/ ٣ معرض «مائة شهيد . . مائة حياة».

وانتقد الشيخ عبد الله بن زايد آل نهيان بشدة فى تصريحاته هذه الدعم غير المحدود الذى تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل، وتمارس به إرهابًا مستمرًا ضد الشعب الفلسطينى، وقال: «إنه يجب على الولايات المتحدة التى تصدر سنويًا قوائم بالدول التى تسميها داعمة للإرهاب ألا تنسى أن تصنف نفسها من أوائل هذه الدول مع إسرائيل»، ووصف الإسرائيليين بالنازيين الجدد، رأتهم الغرب باستخدام معايير مختلفة فى تقييمه للجهود والعرب المسلمين قائلاً: «إنه ربما تكون قيمة اليهودى المادية من وجهة نظر الغرب أعلى من قيمة المسلمين والمسيحيين بغض النظر عن جنسياتهم» وقد أبرز معلق إذاعة لندن دلالة هذه التصريحات التى تصدر من مسؤول خليجى.

إن هدف الأمة العربية من فتح ملف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية هو الوصول من خلال المراجعة والمواجهة بالولايات المتحدة الأمريكية إلى أن تكون إسرائيل عبئًا استراتيجيًا عليها لا ركيزة استراتيجية لها.

وبغية تحقيق هذا الهدف فإن هناك موضوعين يستحقان أن ندرسهما جيدًا، الأول هو جوهر العلاقة بين قوى الهيمنة الطاغوتية الأمريكية والصهيونية العنصرية، بغية معرفة كيفية التأثير عليها وتفكيكها، والثانى هو سياسة إدارة الرئيس بوش تجاه الصراع العربى الصهيونى فى مرحلته الجديدة الراهنة، ولكل من هذين الموضوعين حديثه.

التصدى للعداء الأمريكى لأمتنا

كيف نتصدى نحن العرب والمسلمين فى الدائرتين العربية والإسلامية لهذا العداء الذى تواجهنا به الولايات المتحدة الأمريكية؟
يبرز هذا السؤال ويُلح علينا فى هذه الفترة التى يُصعّد فيها العدوان الصهيونى العنصرى الحرب التى يشنها منذ ثمانية شهور على شعبنا العربى الفلسطينى فى وطننا المحتل، وعلى انتفاضة الأقصى العظيمة، وعلى المؤسسات القيادية الفلسطينية، بدعم غير محدود تقدمه الإدارة الأمريكية له ماديًا ومعنويًا.

الأحداث الجارية فى هذه الحرب الإجرامية العنصرية تقدم شواهد متتالية على هذا الدعم الأمريكى غير المحدود. وآخرها فى الأسبوع الثالث من شهر آيار/ مايو زمن كتابة هذا الحديث استخدام العدو الصهيونى طائرة إف ١٦ الأمريكية لضرب نابلس ورام الله، ومتابعة استخدام الحوَّامات الأمريكية فى القصف وأشكال أخرى من السلاح والعتاد الأمريكى. هذا على الصعيد المادى، أما على الصعيد المعنوى فانتهاج سياسة تدعم العدوان الصهيونى، وتحول دون مساءلته دوليًا على انتهاكه المواثيق الدولية.

نعم برز هذا السؤال منذ حرب ١٩٦٧ مع كل إدارة أمريكية

حكمت الولايات المتحدة. وهو هذه المرة يبرز منذ الأيام الأولى لإدارة جورج دبليو بوش الجمهورى. ذلك أن الشهور الأربعة التى مضت حتى الآن فى ولايتها حفلت بالكثير من العداء لأمتنا، ولشعب فلسطين العربى، وللمقاومة الباسلة فى وجه الاحتلال، ولانتفاضة الأقصى بخاصة. وما أسرع ما تجلى هذا العداء فى سلوك شخوص الإدارة من مستشارة الأمن القومى كوندوليسا رايز إلى وزير الخارجية كولن باول إلى رئيسها جورج دبليو بوش، فضلاً عن آخرين.

ليس صحيحًا ما يتردد فى بعض التحليلات والتعليقات من أن هذه الإدارة لا تزال تدرس ما ينبغى أن تكون عليه سياستها تجاه قضية فلسطين والصراع العربى الصهيونى؛ لأنها فى حقيقة الأمر وضعت خطوط هذه السياسة قبل توليها فى ضوء ما اقترحته عليها مراكز البحث التابعة للحزب الجمهورى ومراكز القوى التى تؤثر عليها. ولأنها باشرت السير على هذه الخطوط منذ يومها الأول ولا تزال.

إن استحضاراً لتحركات الإدارة تجاع الصراع العربى الصهيونى فى الشهور الأربعة الماضية يوضح لنا أهم هذه الخطوط:

* ففيما يتعلق بعملية التسوية التى اسمها "سلام الشرق الأوسط" تبنَّت إدارة بوش خط عدم السعى لإبرام اتفاق نهائى بين "الإسرائيليين والفلسطينيين"، والتوقف عند ما تم إبرامه من اتفاقات جزئية. وكان أحد "منظرى" الحزب الجمهورى قد طرح هذا الخط

منذ عام ١٩٩٧ في عهد إدارة كلينتون الثانية، حين كتب ريتشاد هاس في مجلة "فورين أفيرز" مقاله "لا اتفاقات أخرى" "treaties more no" .

وشرح هنرى كسنجر هذا الخط للإدارة الجمهورية الجديدة في مقاله الذى نشرته جيروزاليم بوست فى ١٢/ ٢٠٠٠ وعلله بقوله "الأطراف المعنية غير مستعدة للوصول إلى تسوية نهائية، على الأقل بشروط يقبلها الطرفان. والاندفاع نحو الحل النهائى ربما يسفر عن انفجار آخر. ولذلك فإن اتفاقية سيناء التى تم التوصل إليها عام ١٩٧٥، وجوهرها أن الاتفاقية سارية إلى أن تلغيها أخرى، تفى بالغرض بدلاً من إبرام اتفاقية سلام فى هذه المرحلة" .

* وفيما يتعلق بالاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية فى الضفة وغزة والقدس والجولان ومزارع شبعا، فإن الخط الذى تبنَّته إدارة بوش هو استمرار هذا الاحتلال، ومعارضة أى تحرك فى الأمم المتحدة لإدانته، أو التضييق عليه، جريًا على ما سارت عليه الإدارات الأمريكية منذ حرب ١٩٦٧ .

* وفيما يتعلق بالاستيطان الصهيونى فى هذه الأراضى العربية المحتلة تبنَّت الإدارة خط السماح به، ودعمه ماديًا. فإن لم يساعد المناخ السياسى المحيط بالصراع على إقامة مستوطنات جديدة، يكون التوسع فى المستوطنات القائمة التى لم تترك طرفًا فى الضفة والقطاع إلا واخترقته. وهذا التوسع كفيل بأن يقضم جل الأراضى المحيطة

بالمدن بحيث تتحول إلى "معازل" تم إحكام خنقها بالمستوطنات. وهكذا تابعت هذه الإدارة السياسة الأمريكية تجاه الاستيطان الصهيونى العنصرى فى الأراضى المحتلة، التى انتقلت ضمن فرض الأمر الواقع من اعتباره "غير شرعى مخالف للقانون الدولى"، إلى اعتباره "ليس غير شرعى ولكنه يمثل عقبة فى طريق السلام"، إلى اعتباره "لا يتناقض مع السلام".

ويضمن هذا الخط تلقائيًا دعم التهجير الصهيونى لليهود من أوطانهم سياسيًا ثم ماديًا لاستيعابهم فى المستوطنات. ويتداعى إلى الخاطر كيف دعا سمحا دينتس رئيس الوكالة اليهودية فى آخر يوليو تموز ١٩٩٢ برنامج السنوات الأربع للوكالة، وفى رأس أولوياتها تهجير مليون يهودى، والحصول على قروض لاستيعابهم، فإذا بالرئيس الأمريكى آنذاك جورج بوش الأب يقول فى جمعية بناى بريث الصهيونية يوم ٨/ ٩/ ١٩٩٢ "يمكننا تشجيع البحث عن السلام، واستقبال المهاجرين فى الوقت نفسه، فللهدفان طابع إنسانى (على حد زعمه) وهما يتمتعان بدعمنا الكامل".

* فيما يتعلق بالقدس والمقدسات المسيحية والإسلامية تبنت الإدارة سياسة عدم بحث هذا الموضوع، وإبقاء الوضع الراهن القائم منذ حرب ١٩٦٧ الذى يبقى القدس ومقدساتنا أسيرة الاحتلال، ويمكّن للصهاينة العنصريين من الاستمرار فى "تهويد" القدس، وزرع "المستوطنات" فيها بدعم أمريكى مادى معنوى، نباتًا شيطانيًا، وإفساح المجال أمام المخططات الصهيونية الإجرامية تجاه الحرم القدسى.

خطوط السياسة الأمريكية فى عهد إدارة بوش الابن الجمهورى فيما يخص دعم الاغتصاب الصهيونى لفلسطين، فى ضوء ما سبق، واضحة بينة، يجرى تنفيذها يوميًا منذ يومها الأول. فماذا عن خطوط هذه السياسة تجاه شعب فلسطين والأمة العربية وحقوق الأمة الثابتة غير القابلة للتصرف فى فلسطين؟

* الخط الأول هو إنكار هذه الحقوق التى تحدثت عنها الشرعية الدولية، والعداء من ثم لانتفاضة الأقصى التى تريد إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للضفة والقطاع، وتبنى الموقف الإسرائيلى القائل بإيقاف الانتفاضة شرطًا للتفاوض "الإملائى" مع الفلسطينيين الذى دعمته واشنطن تسع سنوات بطولها منذ مدريد.

* الخط الثانى هو اعتبار جهاد شعب فلسطين لتحرير أرضه "إرهابًا" ومن ثم تبرير كل جرائم "الإرهاب الصهيونى" اليومى والسكوت عنها بل ودعمها ماديًا ومعنويًا.

* الخط الثالث الضغط الشديد على القيادة الفلسطينية "لترضخ" للعدو الإسرائيلى "وتسلِّم" له بما خطَّطه "للتسوية". وقد عبّر رموز الإدارة بأفعالهم وأقوالهم عن عداء لشعب فلسطين العربى. ولذا لم نجد مناصًا من وصفه بأنه عداء "حاقد".

لافت أن هذه الخطوط كلها تنتمى إلى سياسة القوة الغاشمة التى تحاول القمع، فماذا عن "الجزرة" بعد استخدام "العصا الغليظة" فى سياسة هذه الإدارة؟

* لقد اقترح هنرى كسنجر فى مقاله آنف الذكر أن تكون "الجزرة" "هوية اقتصادية قابلة للحياة" بعد "صياغة حدود التسوية" وذلك استجابة "للقلق الفلسطينى المتعلق بالقدرة على عيش حياة كريمة". (بهذه الكلمات بنصها وهى لا تحتاج إلى تعليق). ويضيف "ويجب التقريب بين الأراضى الفلسطينية بصورة أكبر مع خفض نقاط التفتيش الإسرائيلية. كما أن الوقت حان بالنسبة لإسرائيل لمراجعة سياسة الاستيطان خاصة بما يتعلق بالمستوطنات المكشوفة والمعرضة بصورة دائمة لاندلاع أعمال العنف. ويجب تعزيزها سواء بإبرام اتفاق أو بدونه". وهكذا فإن "الجزرة" هى "المعازل" العنصرية للفلسطينيين.

حين تبنت أوساط الحزب الجمهورى خطوط هذه السياسة، وتولت إدارة بوش الحكم فى واشنطن، كان أول ما فعلته لتنفيذها، هو دعم إرييل شارون فى الانتخابات الإسرائيلية، وقبول مشروعه العنصرى فى التسوية، ومن ثم إنجاحه بوسائل تتقنها المؤسسة الأمريكية الحاكمة. وقد سارعت إلى استقبال مجرم الحرب شارون بعد انتخابه، وأعطته الضوء الأخضر لتنفيذ سياسة تصعيد الحرب التى يشنها الصهاينة على شعب فلسطين العربى. وكان هذا أخطر ما فعلته إدارة بوش.

العداء الذى تواجهنا به الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد إدارة بوش، كما وضح مما سبق، ذكرنا بالمثل "بَلَغَ السيل الزبى" فكيف نتصدى له؟

لم نسأل "هل نتصدى له؟" لأن التاريخ الإنسانى يبين لنا أن الشعوب مهما كان حال قيادتها لا بد أن تتصدى لهذا النوع من العداء ولأعدائها، فالله خلق الإنسان مهيأً للثورة على الظلم وللدفاع عن نفسه. ولذا فإن التصدى لهذا العداء الأمريكى الرسمى الحاقد أمر حتمى على الصعيد الشعبى فى الدائرتين العربية والإسلامية. والمهم هو كيف يكون التصدى فى ضوء حقائق واقعنا بإيجابياته وسلبياته؟

فأما سلبيات هذا الواقع على الصعيد الرسمى فغير خافية، ومثل واحد مرّ علينا ما حدث فى مؤتمر قمة عمان هذا العام الذى ناضلت الأمة ومفكروها لانعقاده، فإذا بالبعض يجر المناقشات فيه إلى تناقضات ثانوية أثرت سلبًا على ما كنا نتوقعه من نتائج له. وأما إيجابيات هذا الواقع على الصعيد الرسمى أيضًا فقائمة. ودليل عليها أن مؤتمر القمة صمد، وحقق حدًا من النجاح. ومن أهم مظاهر هذا النجاح أنه فتح ملف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية كما أوضحنا فى مقال سابق، وأنه قدَّم للعالم قراءة عربية رسمية لحقيقة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى الذى جاء بإرييل شارون رئيسًا لكيانه بالانتخاب.

التصدى للعداء الأمريكى الحاقد يكون أولاً بتحديد هدفنا منه وهو أن نصل بالإدارة الأمريكية إلى الإحساس بأن مصالحها فى وطننا العربى الكبير سوف تضار ما دامت قد انتهجت سياسة العداء الحاقد. ويكون ثانيًا بالتعبير قولاً وعملاً للمس بهذه المصالح فى حدود طاقتنا

وبما يحقق إيصــال رسالتنا للإدارة الأمريكيــة، ويكون ثالثًا بأن نرسم نحن العرب خطًا أحــمر يرفض أن تعتمــد أمريكا الكيان الصهــيونى العنصرى ركيزة استراتيــجية لها فى المنطقة، وصولاً إلى أن تسلّم من خلال التأثير على مصالحها بأنه عبء استراتيجى عليها.

إذا كان تصدينا لــهذا العداء الأمريكى حتــمى، وإذا كان هدفنا منه واضح، وكذلــك سبيلنا إلــيه، يبقى علــينا أن نباشره فــورًا ردًا على أحداث الأسبوع الثالث من شهر آيار، التى شهدت استخدام السلاح الأمــريكى وطائرة إف ١٦ فى جــرائم حكومــة شارون الصــهــيونيــة العنصرية.

هناك أولاً التــصدى على المســتوى الشــعبى. ومــسئــوليته فــردية وجماعية. فأما المسئولية الفردية فتدعو إلى تصدى كل فرد عربى لهذا العداء الأمريكى بما يستطيعه. وأبسطه أن يقاطع - ما أمكن - كل ما هو رسمــى أمريكى، وكل مــا هو مفــيد للاقتــصاد الأمــريكى الذى تتحكم فيه قوى الــهيمنة المناصرة للصهيونية. وأعــرف صديقًا مبتلى بالتــدخــين لا يســتطيع الإقــلاع عنه يأبى شــراء التــبغ الأمــريكى، ويستــعيض عنه بغيــره. وأعرف إخوة ألزمــوا أنفسهم أن لا يشــتروا "رموز" العــولمة الأمريكية المــعروفة، "ولا تســتصغــرن من المعروف شيئًــا". فهذا النهوض بالمســئولية يفعل فــعله على الصعيد الــشعبى الفردى.

أما المسئولية الجماعية ففــعلها أكبر على الصعيد الشعبى. وقد رأينا

مؤخرًا أمثلة حية عليها، مثل ما بادرت إليه نقابة الصيادلة بشأن أدوية أمريكية. والتصدى الجماعى هذا أكثر فاعلية، وفى حاجة إلى ترتيبات. ومسئوليتها تقع على أكتاف النقابات واللجان والمنظمات الشعبية فى مختلف أقطار الوطن العربى.

هناك ثانيًا التصدى على المستوى الرسمى العربى. ومسئوليته فردية تتحملها كل دولة على حدة. وجماعية تتحملها الدول مجتمعة فى النظام العربى. والذى يحدد كل من النوعين هى الدول ذاتها. ولا تطالبها شعوبنا إلا فى حدود طاقتها.

وتذكر شعوبنا أمثلة على النوعين فى مناسبات سابقة تدل على إمكان الفعل. وهى لا تنسى ذلك اليوم المجيد من أيام العرب حين التقى قادة الدول النفطية، واتخذوا قرارًا مدروسًا فى أعقاب حرب رمضان كانت له نتائجه الملموسة.

إن شعب فلسطين العربى كفيل، كما أثبت فى انتفاضته، بالتصدى لمجرم الحرب شارون وحكومته، وهو عازم على الصمود، وتحمل المعاناة، وفى الوقت نفسه تلقين المستعمر المستوطن الصهيونى درسًا مؤداه أن أمنه المطلق لن يتحقق، وأن السبيل لتوفير الأمن لليهود أينما كانوا، وفى دائرتنا الحضارية، هو نبذهم الصهيونية العنصرية. ويبقى أن تكون أمتنا فى الدائرتين العربية والإسلامية كفيلة بالتصدى للعداء الأمريكى الذى يواجهنا.

الانتفاضة فى شهرها التاسع

قدرة على الاستمرار وتقدم فى طريق التحرير

أكتب هذا الحديث، وقد أكملت انتفاضة الأقصى شهرها الثامن. وأجدنى منعطفًا إلى تسجيل "شهريات" الانتفاض، والوقوف أمام أهم الأحداث فيها. وذلك من موقع الحرص على استمرار الانتفاضة، ومقاومة محاولات إجهاضها، إلى أن تحقق - بإذن الله - هدفها الذى هو تحرير الأراضى الفلسطينية والعربية المحتلة عام ١٩٦٧ خطوة على طريق تحرير فلسطين، وإنقاذ اليهود من براثن الصهيونية العنصرية بإيجاد الحل الصحيح للمسألة اليهودية التى برزت فى دائرة حضارة الغرب وفقًا لقيم حضارتنا العربية الإسلامية.

وحديث "الشهريات" هذا يمكّن من تتبع الخط البيانى للانتفاض، ويشير إلى أهم الموضوعات المتصلة به للعناية بها، وهو استمرار "لأسبوعيات المقاومة" التى التزمت بكتابتها منذ نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

ذكر الهدف الذى يتطلع شعبنا أن تحققه الانتفاضة ضرورى لتحديد الخط الأحمر الذى لا يجوز قبل الوصول إليه إيقافها، ولا السماح بإجهاضها. وهو أيضًا تعبير عن اقتناع شعبنا وأمتنا بعامة أنه هدف ممكن التحقيق فى هذه المرحلة الجديدة التى دخلها الصراع العربى

الصهيونى مع بدء انتفاضة الأقصى، وهذا يعنى تحرير الضفة والقطاع من أراضى فلسطين، والجولان السورية، ومزارع شبعا اللبنانية معًا. وقرن هذا الهدف المرحلى بالهدف النهائى فى مطلع الحديث منطلقًا من أن تحقيق ذلك لن ينهى الصراع بل يدخله مرحلة أخرى لأن صراعنا ضد الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى مستمر إلى أن ينبذ اليهود الصهيونية العنصرية، وتتخلى قوى الهيمنة الطاغوتية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عن فكرة وجود قاعدة استعمارية استيطانية لها فى قلب وطننا العربى ودائرتنا الحضارية الإسلامية، فيتحقق لنا تحرير فلسطين، وطرح حلّنا الحضارى للمسألة اليهودية.

أول ما نسجله فى "الشهرية" هو نجاح الانتفاضة فى الصمود والاستمرار خلال شهرها الثامن أمام درجة عالية من تصعيد حكومة مجرم الحرب شارون بتكتلها الصهيونى، لعدوانها على شعبنا العربى الفلسطينى بدعم إدارة بوش المادى، المتمثل بالسلاح والمال الأمريكى، والمعنوى المتمثل بالدعم السياسى والدبلوماسى. وقد سجل هذا الصمود ذروته حين استخدم العدو طائرة إف ١٦ فى قصفه مواقع فلسطينية. وكان من ثمار ذلك تألب دول كثيرة على الإدارة الأمريكية وسياستها. ثم جاء استمرار الانتفاضة دليلاً على "مخزون التحرير" لدى شعبنا. أدى ذلك كله إلى اضطرار مجرم الحرب شارون إلى إعلان "وقف العنف" من طرفه فى حركة دعائية خادعة مع استمرار العدوان على الأرض. ثم جاءت عمليتا القدس الغربية فى يوم واحد لتؤكدا العزم على استخدام "مخزون التحرير" حتى بلوغ الانتفاضة

هدفها. وفرضت هذه الأحداث جميعها على إدارة بوش أن تتحرك رغمًا عنها حفاظًا على مصالحها أولاً ولمساعدة الحكومة الإسرائيلية فى "أزمتها" التى سببتها لها الانتفاضة.

نسجل ثانيًا فى "الشهرية" استمرار عيش أبناء أمتنا فى الدائرة العربية ودائرة الحضارة الإسلامية مع الانتفاضة، واستمرار انشغال دولنا فى الدائرتين بالانتفاضة وتفاعلاتها.

على صعيد أبناء الأمة استمر التعبير عن وقفتهم الواحدة شعبيًا مع إخوتهم المنتفضين، فى النهوض بالمسئولية الفردية فى مقاومة التحالف الصهيونى الأمريكى، وبالمسئولية الجماعية أيضًا. والأمثلة كثيرة فى كل قطر على المستويين، وحبذا لو تم تسجيلها لتستقر فى ذاكرة الأمة. ولا مجال هنا لسياق نماذج منها. وعلى صعيد دولنا رأينا تحركات جادة سياسية ودبلوماسية فرضت على إدارة بوش أن تعدل شيئًا قليلاً من موقفها العدائى للانتفاضة ولشعبنا ولأمتنا. ولا يزال هناك الكثير مما ينبغى عمله على الصعيدين الرسمى والشعبى عربيًا وإسلاميًا.

نسجل ثالثًا التحرك الذى حدث على الصعيد الشعبى للتنسيق بين التحركات الشعبية العربية التى تعمل على دعم الانتفاضة، وذلك بهدف تأسيس إطار جامع لها يعبر عن الأمة كلها، ويوظف العمل الشعبى فى التكامل مع العمل الرسمى، وهكذا انعقد الاجتماع الثانى للجنة الشعبية العربية لدعم الانتفاضة الفلسطينية، ومقاومة المشروع الصهيونى فى بيروت بلبنان يوم ٢٤/ ٥/ ٢٠٠١. وكان الاجتماع التأسيسى الأول للجنة قد انعقد فى دمشق يوم ١٠/ ١/ ٢٠٠١ بمبادرة من اتحاد

العمال العرب واتحاد المحامين العرب، وبمشاركة شخصيات عامة من مختلف الأقطار العربية، وانتهى بتشكيل مكتب تنفيذى. وقد جاء الاجتماع الثانى فى عيد المقاومة والتحرير لمشاركة لبنان فى الاحتفال بالذكرى الأولى للانتصار على العدو الإسرائيلى، وفرض انسحابه من الجنوب، ولاستلهام دروس المقاومة اللبنانية، ولقراءة واقع الانتفاضة بهدف دعمها، وفى النظر للأسلوب الأمثل لعمل اللجنة.

يمكن القول إن هذا الاجتماع الثانى حقق أهدافه، بما يمكِّن اللجنة من الانطلاق فى عملها، وما كان أروع مشاركة لبنان الرسمى برئاساته الثلاثة فى حفل الافتتاح، ومشاركة لبنان الشعبى، واللقاء بالسيد حسن نصر الله، وتفصيل هذا التحرك يستحق حديثًا خاصًا، ليس هنا مجاله، ولعل عمل اللجنة المقبل يكتب خطوطه الرئيسة.

نسجل رابعًا ما حدث فى احتفال لبنان والوطن الكبير كله بيوم المقاومة والتحرير، وآثار ذلك على العدو.

كان الاحتفال عظيمًا رسميًا وشعبيًا فى لبنان، وشاركت فيه الأمة بشعوبها كافة بصور شتى منها المتابعة عبر التلفزة للفعاليات التى أقيمت فى الاحتفال، وبخاصة من خلال تليفزيون "المنار" المعبّر عن "حزب الله" . ومن أبرز ملامح الاحتفال الرسمى اللبنانى مشاركة الرئاسات الثلاثة، وكبار الشخصيات الممثلة لكل قوى المجتمع، فى "وحدة وطنية" رائعة كانت عاملاً أساسيًا فى تحقيق الانتصار. ومرة أخرى جاء خطاب رئيس الجمهورية العماد إميل لحود وتصريحاته لتطرح رؤية لبلوغ السلام العادل، ولتحدد موقفًا متميزًا، سيبقى يذكر للبنان.

فالمقاومة حق مشروع حتى تحقق أربعة أمور هى الانسحاب الإسرائيلى من مزارع شبعا اللبنانية، ومن الجولان السورية حتى خط ٤/ ٦/ ١٩٦٧، ومن الضفة الغربية وقطاع غزة، وعودة اللاجئين الفلسطينيين المقيمين فى لبنان إلى فلسطين.

لقد شارك أهلنا فى فلسطين من خلال انتفاضة الأقصى بهذا الاحتفال بيوم الانتصار اللبنانى. وشاركت شعوب الأمة بصور مختلفة "مجدت" المقاومة طريقًا للتحرير، وأعربت عن العرفان لأبطال المقاومة اللبنانية، وأكدت تضامنها مع انتفاضة الأقصى. وأذكر أننى حاولت أن أصوغ بكلمات لسان حال الأمة فى هذه المناسبة، حين شرفنى إخوتى فى اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة بافتتاح اجتماعهم فى يوم التحرير والمقاومة، فقلت مخاطبًا الجمع: "المقاومة طريق التحرير، والتحرير روح العصر، والشهادة فى سبيل الله البارئ المصور القدوس هى أعلى مراتب المقاومين. وقد شاء خالق الموت والحياة أن يجعل الشهداء أحياء عنده، وأن يكون فى استشهادهم إحياء لبنى قومهم. الله كرم بنى آدم وخلق الناس أحراراً متساوين، والعنصرية من ثَمَّ جريمة. شأنها شأن الاستعمار. وأفظع أشكال الاستعمار، الاستعمار الاستيطانى العنصرى. وأبشع صوره فى عصرنا الصهيونية فكرًا وحركة. وقد استهدفت قوى الهيمنة الغربية بها أمتنا للتحكم فى وطننا العربى الكبير ودائرتنا الحضارية الإسلامية، فكان الغزو الصهيونى الاستعمارى لفلسطين، واتصلت مقاومتنا لهذا التحالف الصهيونى الاستعمارى الأثيم على مدى قرن بطوله. نحن اليوم فى الذكرى الأولى ليوم

التحرير والمقاومة، الذى هو من أروع ثمار المقـاومة وأطيبها، عشناه مع لبنان ووعت الأمـة دروسه وعـبره، بذلك اليـوم المجيد بدأت مـرحلة جديدة فى الصراع العربى - الصهيونى المـتد، وما أسرع ما قامت بعد أربعة شهور من انتـفاضة الأقصى والمقدسات المسيحـية والإسلامية فى فلسطيننا المحـتل. وما أروع مـا تعبـر به الأمة عن تأييـدها للانتفـاضة والمقاومة على الصعيد الشعبى فى إجماع مشهود.

نسجل خامسًـا انعقاد اجتماع وزراء خارجـية منظمة المؤتمر الإسلامى فى الدوحة بقطر يوم ٢٥/ ٥/ ٢٠٠١، وإصـداره بيانًا فى ختام أعـماله أكد فيه ضرورة الالتزام بتطبيق أحكام المقاطعة الإسلامية ضد إسرائيل، ودعا الدول الإسـلاميـة الأعضاء فى المنظمـة التى أقامت عـلاقات مع إسرائيل فى إطار "عملية السلام" إلى قطع هذه العلاقات بما فيها إقفال البعثـات والمكاتب، وقطع العلاقات الاقتصـادية، ووقف جميع أشكال التطبيع "حتى تقوم بتنفيذ قرارات الأمم المتـحدة الخاصة بقضية فلسطين والقـدس الشريـف والصراع العـربى الصـهـيونى" وحـملت المنظمـة "إسرائيل" المسـئوليـة الكاملة على عدوانهـا، كما حـملت المسئـولية الإسرائيلية تبعات جرائم الحرب التى يقترفونها" .. إلى آخر القرارات. وكانت لجنة العمل العربية المنبثقـة عن القمة العربية قد اتخذت مثل هذا القرار على صعيد الجامعة العربية. وواضح أن هذا التحرك على الصعيد الرسمى العربى والإسلامى هو بداية استخدام أوراق كثيرة بأيدينا تنتظر الأمة إحـسان اسـتخـدامهـا، ويبقى أن تسـارع الدول إلى تنفيـذ هذه القرارات بفاعلية وإتقان.

نشـير هنا إلى ظاهرة "الدولة الضـالة" فى إطار المجمـوع الذى هو دائرة الوطن العربى الكبير ودائرة الحضارة الإسلامية. و"الدولة الضالة" هى تلك التى خرجت عن "المجموع" فى تعاملها مع العدو الإسرائيلى وفى خـضوع للضـغط الأمـريكى الذى يطالبـها بالـتواطؤ مع العـدو الإسرائيلى ضـد المجموع. وكم كـان مؤسفًـا أن تكون موريتـانيا التى نعرف أصالة شعبها، وإسـهامها فى حضارتنا هى "الدولة الضالة" فى هذه المرحلة من الصراع. ومطروح علينا فى الدائرتين كـيف نتعامل مع هذه الظاهرة، وذلك من خـلال دراسة أسـباب حدوثـها أولاً، ووضع اليد على الأوراق التى استطاع بها التحالف الإسرائيلى الأمريكى التفرد بها والضـغط عليها. ثم اتخـاذ اللازم لمساءلة حكومـتها ومحـاسبتـها ونصب العين استعادتها إلى المجموع.

بقى أن نسجل أخيـرًا فى "الشهرية" أمرًا واحدًا يـتعلق بالعدد، نراه يستحق التسجيل، والوقوف أمامه، وكانت النقاط السابقة جميعًا تتعلق بنا وبقدرتنا على الفعل.

الأمر هو اضطرار إدارة بوش إلى القيام بتـحرك دبلوماسى فى ساحة المعركة المباشرة، وتكليفها سفيرها فى الأردن وليام بيرنز مبعوثًا للاتصال بالإسرائيليين والفلسطينيين بهدف التـهدئة، والبحث فى تنضيد "تقرير ميتشل" الذى تم إعلانه رسميًا فى أمريكا.

ما يهمنا فى هذا الأمر أن يكون واضحًا لنا أن هذا التحرك الأمريكى لم يأت إلا بفضل اسـتمرار الانتـفاضة وصـمودها، وأن إدارة بوش لا تزال على خطوط سياستها العدائية التى شرحناها فى حديث سابق، لم

تتزحزح عنها إلا قليلاً. وهذا ما كشفت عنه تصريحات كولن باول وزير خارجيتها الذى يريد التهدئة قبل إعلان وقف الاستعمار الاستيطانى، ووقف توسيعه، وكذلك تصرفات الرئيس بوش، وأن يكون واضحًا أيضًا أن هذا التحرك يستهدف فى المقام الأول حماية الكيان الصهيونى الذى حاصرته معنويًا الانتفاضة بكشف عنصريته وجرائمه، وقد كان هذا شأن كل تحرك أمريكى سابق.

ما نتوقعه من المستوى الرسمى العربى وقيادة الانتفاضة هو أن يحسنوا الرد على هذا التحرك، وذلك بمواجهة الولايات المتحدة بحقيقة كونها طرفًا معاديًا لنا فى الصراع يتحمل نصيبًا كبيرًا من المسئولية عن كل الجرائم الصهيونية فى حقنا، ومن ثم الوصول بها من خلال استخدام ما لدينا من أوراق ضاغطة إلى مراجعة هذه السياسة العدوانية والتخلى عنها، وهذا يعنى أن نرفض أن تكون أمريكا راعيًا وشريكًا وأن يواجه "بيرنز" بحقائق الموقف الأمريكى، وأن لا تقبل منها إلا الامتثال لقرارات الشرعية الدولية.

إن للمستوى الرسمى العربى أن يجتهد فى أسلوب إدارة مواجهته للعداء الأمريكى، فيقبل مثلاً تقرير ميتشل مركزًا على إيقاف الاستيطان، ولكن المستوى الشعبى العربى يجد أن من حقه أن يعلن هذا التقرير الذى انطلق من نظرة قوى الهيمنة، وهرب من معالجة أصل الداء وهو الاحتلال والاغتصاب والعنصرية، فجاء هزيلاً يخدم تكتيك دبلوماسية أمريكا. لقد كان الشهر الثامن للانتفاضة حافلاً بما يؤكد قدرتها على الاستمرار والتقدم على طريق التحرير.

المقاومة وحدها هي سبيل التعامل مع واشنطن

المقاومة، والمقاومة وحدها، هى التى فرضت على إدارة بوش الأمريكية أن تكثِّف من تحركاتها فى ساحة الصراع العربى - الصهيونى فى مطلع الشهر التاسع لانتفاضة الأقصى. وقد سجّل تاريخ الصراع دور عملية تل أبيب الاستشهادية مساء يوم الجمعة ١/ ٦/ ٢٠٠١، ٩ ربيع الأول ١٤٢٢هـ فى هز هذه الإدارة هزاً عنيفًا دعت كولن باول وزير الخارجية فيها إلى أن يصرح يوم ٤/ ٦ قائلاً "إن منطقة الشرق الأوسط على شفا حفرة عميقة جداً، وتكاد تسقط فى مستنقع التصعيد والعمليات الانتقامية المتبادلة.

وقد سعت الإدارة الأمريكية خلال الساعات الأخيرة إلى تجنب تلك الكارثة". ثم أثنى على قرار ياسر عرفات بالوقف غير المشروط لإطلاق النار، وطالب "إسرائيل بالحذر فى رد الفعل المحتمل على العملية الاستشهادية تفاديًا للسقوط فى الهاوية".

كانت المقاومة، والمقاومة وحدها، هى التى أجبرت إدارة بوش الأمريكية من خلال استمرار الانتفاض وبعدد من العمليات الاستشهادية، على أن تعيّن وليام بيرنز مبعوثًا لها فى المنطقة قبل ذلك ببضعة أسابيع متخلية عن الموقف الذى اتخذته منذ توليها بإطلاق يد مجرم الحرب إرييل شارون فى سعيه لقمع انتفاضة

الأقـصى "بوسـائله الأمنيـة" . وهـو الموقف الذى بلورته مـراكـز البحث الـتابعة للحـزب الجمـهورى، ونادى به عـتاة الأمريـكيين الصهاينة من مفكريه، مثل هنرى كسنجر وريتشارد هاس.

أحد الأهداف الـتى تضعهـا المقاومـة العربيـة بعامـة وانتفـاضة الأقصى بخاصة نصب العين فى هذه المرحلة من الصراع التى ارتفع فيها شعار التحرير من جديد، هو هدف الوصول بالولايات المتحدة من خـلال المقاومـة إلى إدراك أن الكيان الإسـرائيلى الصـهيـونى العنصرى سيكون عبئًا استراتيجيًا عليها لا ركيزة استراتيجية لها فى الدائرتين العـربية والإسلامـية، كمـا رسم واضعو الاسـتراتيجـية الأمريكية فى المنطقة منذ مؤتمر بِلتمور عام ١٩٤٢ . فما الذى ينبغى عمله فى نطاق المقـاومة العربيـة بعامة وانتـفاضة الأقصى بخـاصة لبلوغ هذا الهدف؟

أول ما يـنبغى عـمله هو استـحضـار الوظيفـة المسندة للقـاعدة الاستعـمارية الاستيطانيـة الصهيونية فى الاسـتراتيجيـة الأمريكية، على مخـتلف الصعـد العسكرى والاقتـصادى والتقـنية والسيـاسة النفسية. وتحفل المكتبة بالكثير مما كتب عن كل صعيد. ونكتفى هنا بإشارات.

فعلى الـصعيـد العسكرى نجـد أن وليام أركـين مراسل الشـئون العسكرية لصحيفة "واشنطن بوست" يصف "إسرائيل" فى تقريره فى موقع الإنترنت بأنها "عاصمة القواعد السرية للجيش الأمريكى

فى العالم للمناورات المشتركة وحفظ المعدات الطارئة" . وهو يذكر ثلاثة مواقع سرية تحمل أرقام ٥١ و٥٣ و٥٤ مخصصة لذخيرة وقطع غيار بقيمة نصف مليار دولار.

وهناك ستة مواقع أخرى لتخزين سيارات أجهزة ومستشفى طارئ للطيارين وجنود البحرية ورجال القوات الأمريكية الخاصة. وبالنسبة للمناورات المشتركة هناك قاعدة سلاح الجو "بناطيم" التى تستقبل طائرات حربية أمريكية، ويتدرب فيها الطيارون على القصف فى النقب. وقد أوردت مجلة فلسطين المسلمة فى عددها ٦/ ٢٠٠١ تلخيصًا للتقرير.

وهناك تقارير كثيرة تابعتها دار الجليل "عن دور ميناء حيفا كقاعدة بحرية أمريكية يتزود منها الأسطول الأمريكى السادس فى البحر المتوسط. وها هى الأخبار ترد وقت كتابة هذا الحديث عن مناورات مشتركة أمريكية إسرائيلية تركية. ومعلوم أمر السياسة الأمريكية فى اعتماد "إسرائيل" قاعدة نووية عسكرية فى منطقتنا.

يمكن للقارئ الكريم لهذا الحديث أن يستحضر وظيفة الكيان الإسرائيلى فى الاستراتيجية الأمريكية على بقية الصعد. ويتضح مما أوردناه من إشارات بشأن الصعيد العسكرى أن أى خريطة إسرائيلية جرى تقديمها فى عملية التسوية منذ مؤتمر مدريد كانت تضع فى اعتبارها فى المقام الأول هذه الوظيفة العسكرية. وهذا يسهم فى تفسير دعم السياسة الأمريكية للاحتلال الإسرائيلى للضفة والقطاع

والجولان، ويبين أن خريطة مجرم الحرب شارون التى أعلنها بعد انتخابه رئيسًا للوزارة الإسرائيلية كانت بمعرفة واشنطن وموافقتها.

ينبغى أيضًا أن نسبر أغوار هذا التحرك الأمريكى، من حيث التوقيت والهدف والأسلوب، كى نحسن التعامل معه.

فأما التوقيت فقد جاء تحرك إدارة بوش حين أوشكت سياسة شارون الأمنية وجرائمه المتتالية على مدى حوالى ثلاثة شهور أن تأتى "بكارثة محققة" بعد عملية تل أبيب الاستشهادية التى كشفت عدم جدوى "الشارونية"، وحين بدا أن الكيان الإسرائيلى على وشك السقوط فى هاوية، كما عبر كولن باول بفعلها.

ولم يكن هذا التحرك الأول من نوعه فى تاريخ التحركات الأمريكية. إذ يتداعى إلى الخاطر كيف تحرك كلينتون أوائل عام ١٩٩٦ لتحتوى "الإسرائيلى الهائج" بعد عملية استشهادية فى تل أبيب فى الأسبوع الثانى من الشهر الثالث سبقتها عمليتان استشهاديتان فى القدس وعسقلان يوم ٢٥/ ٢/ ١٩٩٦. وكانت العمليات الثلاثة قد أعقبت قيام الإرهاب الإسرائيلى الرسمى باغتيال الشهيد د. فتحى الشقاقى فى مالطة فى ١٠/ ١٩٩٥ وبعدد من الجرائم الأخرى.

ويومها دعت إدارة كلينتون إلى عقد مؤتمر لمقاومة الإرهاب وفق مفهومها، وسعت إلى تطبيق "مكارثية عالمية" تلاحق كل من يقول بحق المقاومة الذى هو حق إلهى أقرته الشرعية الدولية. ولكنها لم

تنجح. وتفصيل ذلك في كتابنا "أزمة الحل العنصرى".

وأما الهدف فهو دومًا مزدوج، حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة إثر تهددها بكارثة، واحتواء الإسرائيلى الهائج وإسكاته وضبط سلوكه بغية تقديم العون له كى لا يقع فى هاوية.

وأما الأسلوب فهو دومًا أسلوب قوى الهيمنة الطاغوتية الذى يعتمد تشكيل لجان وإرسال مبعوثين وتقديم مسكنات مع التمسك بمبدأ رفض التفاوض مع حركات التحرير أثناء ازدهار المقاومة والتشدد فى طلب وقف ما تسميه "العنف" أولاً.

وقد تجلى هذا الأسلوب أيما تجلٍّ فى لجنة ميتشل قبل شهور ثم فى إرسال جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية قبل أيام. وجاءت مقترحات تينيت بالغة "الصفاقة" فى تعاملها مع شعب منتفض يعيش انتفاضة الأقصى منذ تسعة شهور، وفى نظرتها إلى أمة ينتمى إليها الشعب. فهذه المقترحات عرضت "اتفاقًا أمنيًا" يقضى استسلام فلسطينى وبإحداث فصل بين السلطة والشعب، من خلال إجبار السلطة على اعتقال المجاهدين الأبطال نيابة عن العنصريين المحتلين وقوى الطغيان التى تدعمهم. وكما هى العادة جاء شريط المشاهد فى هذا الاتفاق الأمنى "وقف العنف، فإجراءات ثقة، فجلوس على مائدة التفاوض من جديد" وفق مصطلحاتهم المضللة.

النتيجة التى نصل إليها من سبر أغوار التحرك الأمريكى هى أنه

تحرك معادٍ، وينبغى التعامل معه على هذا الأساس، وبما يخدم هدف مواجهة هذا العداء.

* إن مواجهة هذا العداء تتطلب منا أول ما تتطلب إعلان حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية "دولة خارجة عن القانون الدولى" فى الصراع العربى الصهيونى، واعتماد سياسة معها تفرض عليها أن تكشف أوراقها ليشهد عليها العالم كله. وهذا يقتضى بداية الكفّ عن القبول بها راعيًا لعملية تسوية، لأنها ليست مؤهلة لهذه الرعاية ما دامت تواجهنا نحن العرب والمسلمين بالعداء. كما يقتضى أن نعتمد سياسة معها تفرض عليها كشف أوراقها ليتأكد للعالم أنها دولة خارجة عن القانون الدولى، وتتبع قانونًا خاصًا هو قانون راعى البقر الأمريكى الذى طبقته مع سكان القارة الأمريكية الأصليين.

* لقد آن الأوان لتحقيق ذلك كى نعمل كى يطالب المجتمع الدولى الولايات المتحدة بتقديم خريطتها لتسوية الصراع، بغية إثبات أنها دولة خارجة عن القانون الدولى. وواضح من خلال تتبع السياسة الأمريكية منذ عام ١٩٦٧ أنها تبنت خريطة لتسوية الصراع تتحدى قرارات الشرعية الدولية الخاصة بفلسطين والأراضى العربية المحتلة، وتستهدف تمكين الكيان الإسرائيلى الصهيونى من اغتصاب جل هذه الأراضى بإقامة المستعمرات الاستيطانية، وتهويد القدس، وإن احتالت على إخفاء ذلك بأساليب مختلفة.

إن إدراك حقيقة السياسة الأمريكية فى الصراع العربى الصهيونى والاقتناع بأنها سياسة معادية للشعب الفلسطينى وأمته العربية تستهدف اغتصاب فلسطين كلها والتسلط على الوطن العربى كله، ستجعل مقاومتنا على الصعيد الشعبى، بالمعنى الواسع للمقاومة، تضع نصب عينها استهداف المصالح الأمريكية والتأثير عليها إلى جانى استهداف الكيان الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى العنصرى.

وسوف تحث الحكومات العربية على الصعيد الرسمى لاستخدام بعض ما لدينا من أوراق، وهى كثيرة. وقد قابلت الأمة بارتياح ما صرح به وزير الدفاع السعودى حول مقاطعة الشركات الغربية التى تتعامل مع "إسرائيل" إذا استمر العدوان الإسرائيلى على الشعب الفلسطينى. وقبل ذلك قابلت الأمة بارتياح إلغاء ولى العهد السعودى رحلته إلى أمريكا وكندا.

فلنتابع إذا اعتماد المقاومة للوصول بواشنطن إلى التخلى عن العداء الصارخ للعرب وإدراك أن القاعدة الصهيونية ستكون عبئًا استراتيجيًا عليها. لأن المقاومة بمعناها الواسع على المستويين الشعبى و الرسمى، والمقاومة وحدها، هى السبيل.

الانتفاضة و"فضح" مسلكية العدو و"فرض" مراجعة النفس عليه

إن من أهم ما حققته انتفاضة الأقصى بعد لحظة الصمود الفلسطيني التاريخية في كامب دافيد، هو "فضح" المسلكية الإسرائيلية والأمريكية في مسيرة التسوية التي "صممتها" الولايات المتحدة بالتشاور مع قاعدتها الاستعمارية الصهيونية وقامت "برعايتها" الفعلية في قصة فريدة من الخداع السياسي المحكوم بقصر النظر. وحققت الانتفاضة أيضًا "فرض" مراجعة النفس على قطاع واسع من الإسرائيليين والأمريكيين.

كان "إعلام الترويج" الأمريكي الإسرائيلي قد شنَّ حملة إعلامية مكثفة إثر فشل كلينتون وباراك في "تمرير" الحل العنصري واغتصاب المقدسات، قادها الاثنان معًا بعد إن استهلها سيئ الذكر كلينتون. ومفاد هذه الحملة كما أوجزتها مجلة «واشنطن ريبورت» المؤيدة للحق الفلسطيني على لسان أحد قرائها في العدد آيار/ مايو - حزيران/ يونيو ٢٠٠١ متهكمًا: إن "المشكلة" برمتها، وفقًا لمضمون الحملة، سببها "الشرير عرفات" الذي يشن هجمات بالأطفال على الإسرائيليين المسالمين الباحثين عن السلام. والدليل على أنهم باحثون عن السلام تلك التنازلات غير المسبوقة التي قدمها "قليل الحظ" باراك في آخر جولة من

"محادثات السلام" التى رفضت بجفاء من "الطمَّاع عرفات" . وليس أمام شارون إلا أن يقمع بقوة إلى أن يفر الفلسطينيون ويعودوا إلى أقفاصهم. والحق أنه رغم التهكم الذى صاغ به القارئ الأمريكى "ألبرت دويل" رسالته فإن مضمونها أوجز بدقة عناصر الحملة الإعلامية التى استهدفت الأمريكيين والإسرائيليين والعالم، وتبناها أقطاب إدارة بوش الجديدة رئيسًا ووزير خارجية ومستشارةً للأمن القومى ووزير دفاع و.. إلى آخر السلسلة.

قد يكون إعلام الترويج فى هذه الحملة نجح فى سرقة وعى غالبية الأمريكيين، حتى كانت الانتفاضة فإذا بها تفتح عيون كثيرين منهم على حقائق أخفتها عنهم إدارة كلينتون. وبقى غالبية الإسرائيليين ومؤيدوهم من الصهاينة الأمريكيين أسرى الحملة حيث استهواهم ترديد ما جاء فيها أثناء الجدل الذى ثار حول ما جرى فى كامب دافيد، قائلين، كما كتب هنرى سيجمان فى «هيراله تربيون» فى الأسبوع الثالث من شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠١ "أنه أثناء كامب دافيد فى العام الماضى عرض ايهود باراك على عرفات كلى شيء كان الفلسطينيون يطالبون به تقريبًا، إلا أن عرفات خذله. لذلك هم مقتنعون بأنه من غير المجدى أن تتم العودة إلى عملية سياسية فى وقت قريب" . وروَّجَ هؤلاء لمجرم الحرب شارون وحكومته وللموقف الذى أعلنه من استبعاد مفاوضات الوضع الدائم، واستمرار الاحتلال لعقد أو عقدين من السنين فى سياق معاهدة عدم اعتداء. وتبنّت إدارة بوش فى شهورها الأربعة الأولى هذا الموقف، وأعطت الضوء الأخضر "للشارونية" الإجرامية أن تفرض "الأمن" بطريقتها.

ولكن تتالى عـمليات الفداء فى نطاق انتفـاضة الأقصى، وصمـود شعبنا وتطور الأحداث فى آخـر تلك الشهـور فرض على إدارة بوش أن تراجع نفسها، وبخاصة بعد أن "فضح" مختصون أمريكيون المسلكية الإسرائيلية والأمريكية فى كامب دافيد.

من أمثلـة هذا "الفضح" مقـال هنرى سيـجمـان آنف الذكر، وكـاتبه يهودى أمريكى، عضو بمجلس الشئـون الخارجية الأمريكى، الذى يصدر مجلة "فورين أفيرز" الشهيرة. وهو خبـير بالمنطقة وبعملية التسوية. وقد جاء فى المقال بالنص: "إن التصور القائل بأن السـيد عرفات عُرض عليه دولة فلسطينية قابلة للحياة لهو محض اختلاق".

فلا يوجد أى سـبب يمكن أن يجعل توقع قبوله عرضًا إسـرائيليًا كان يؤدى إلى زيادة مساحة إسرائيل، التى تـقدر بـ ٧٨٪ من مساحة فلسطين أثناء الانتداب، من خـلال جزء يستقطـع من الضفة الغربيـة وقطاع غزة، سوى توقع اعتبار إسرائيل العرض الفلسطينى سخيًا لأنه كان سينزع ١٠٪ من أراضيها قبل عام ١٩٦٧. وبتنحية الترتيبات التى أرفقها باراك بعروضه فى كامب دافيد كانت ستوجد دولة فلسطينية بالاسم فقط.

حيث إن السيطرة الاقتصادية والعسكرية الإسرائيلية الراهنة على الضفة الغربية وقطاع غزة كانت ستظل على حـالها بالضرورة، إن التصور القائل بأن أخطاء السيد عـرفات فى كامب دافيد حالت دون العـودة إلى العملية السياسية لهو عبث، فبالنظر إلى مخاطر الشرق الأوسط فإنه من المؤكد أن المجتمع الدولى والولايات المتـحدة بوصفها القوة القـائدة فى العالم اليوم لديهم التزام بمحـاولة التصحـيح لأية أخطاء ارتكبت فى كامب دافـيد".

ويختم سيجمــان تقويمه لما جرى فى كامب دافيد بقوله "بالتـأكيد فإن ما يمكن إدراكه أن فـشل كامب دافيد كـان فى جزء منه نتيـجة لأخطاء فى الصيغة والإجراءات ارتكبتها كل الأطراف بما فيها الولايات المتحدة" .

مع اسـتمرار الانـتفاضــة وصمـود شعـبنا بدأت المقالات والـدراسات والبحـوث تتتـالى إسرائيليًا وأمـريكيًا فى فـضح المسلكية الإسرائـيلية فى كامب دافيد ومسيرة التسوية بعامـة، وفى مراجعة النفس، وقد استوقفتنى دراسة إسرائيلية كتبها جيرشوم باسكين بعنوان "what went wrong?" "مـا الذى كان خطـأ" "أوسلو ــ المنظمـة والسلطة ــ إسـرائيل ــ بعض الحقائق المضــافة"، ونشرها على شبكة المعلومات. وهو يُعـرِّف نفسه بأنه المؤسس والرئيس المشـارك للمركز الإسـرائيلى / الفلسطينى الذى تأسس عام ١٩٨٨ فى القدس المحتلة.

هذه الدراسة حافلة "بفضح" مسيـرة التسوية "وبمراجعة النفس" . وقد ذكرتنى بتلك الدراسة التى كتبها كبير المؤرخين الإسرائيليين يعقوب تالمون فى أعقـاب حرب رمضان عـام ١٩٧٣ بعنوان "مراجعـة النفس"وأشرت إليها مرات فى كـتابى "ماذا بعد حرب رمضان؟" كـما أن عنوانها ذكرنى بالسؤال الذى وجهه شـيمون بيريز فى براغ إثر كامب دافيد لسـمو الأمير حسن بن طلال أثناء ندوة دولية "What Went Wrong With Yas-ser Arafat?" "ما الذى حـدث من خطـأ مع ياسـر عرفات؟"، وإن كان صاحب الدراسـة يقول إنه أخذ عنوان دراسته من البـروفسور «إيدى كوفمان» من معهد ترومان فى الجامعة العبرية.

على صعـيد "فضح عـملية التسـوية" منذ اتفاق أوسلو فى ١٩٩٣/٩

يورد البـاحث ست عشـرة نقطة "تتناول التـحليـلات التى كتـبت والتى ستكتب مستـقبلاً" ، اثنتان منها فقط تتـعلقان بالسلطة الفلسطينية، وباقى النقاط يـتحمل مـسئـوليتهـا التحـالف الإسرائيلى الأمـريكى الصهـيونى الطاغوتى. وفيما يلى هذه النقاط:

(١) الاتفاقات الموقعة لم تنفذ بحسن نية.

(٢) لم تنفذ إسرائيل إنسحابات على الأرض.

(٣) لم تجرد السلطة الفلسطينية بكفاءة الميليشيات من السلاح.

(٤) تدهورت الوضعـية الاقتصاديـة فى "الأراضى الفلسطينية" ، بدلاً من أن يقطف الناس هناك "ثمار السلام" .

(٥) إسرائيل بنت وبنت وبنت أكثر وأكثر مسـتعمرات استيطانية وطرقًا التفافية.

(٦) السلطة الفلسطينية فـاسدة وتنتهك حقوق الإنسـان الفلسطينية (ثم تعترف الدراسـة أن ذلك كان بتخطيط أمريكى إسرائيلى، وبضـغط منهما عليها).

(٧) الفلسطينيون لم يكفـوا عن تحريض العامة على إسـرائيل بالإعلام وأنظمة المدارس.

(٨) الحصار الإسرائيلى للفلسطينيين للرد على العمليات حوَّلهم بانتظام ضد عملية التسوية.

(٩) إزعاج الفلسطينيين على نقاط التفتيش.

(١٠) تأسيس مكتبية (بيروقراطية) معقده لأخذ الأذونات والرخص. .إلخ.

(١١) الإسـرائيليـون فـقـدوا الثـقـة فى السـلام بفـعل "الإرهاب الفلسطينى".

(١٢) اغتيال إسحق رابين.

(١٣) انتخاب بنيامين نيتنياهو.

(١٤) غطرسة باراك.

(١٥) أساليب التفـاوض السيئة وتكتيكاته واسـتراتيجيتـه عند الجانبين كليهما.

(١٦) أخطاء كلينتون الفظيعة فى كامب دافيد. "وأسباب أخرى عديدة سيجرى إعادة النظر فيها والكتابة عنها".

التحليل الذى قـام به هذا الباحث فى شرح بعض هذه النقاط يـتضمن مع فضح مـسيرة التسـوية والمسلكية الإسرائيليـة الأمريكية فـيها مراجـعة للنفس ومحاسبة. ونسوق مثلاً على ذلك ما أورده بشأن نظام السلطة التى أدارتها أمريكا وإسرائيل فى الأراضى الفلسـطينية فى الضفة والقطاع التى حددتها لإقامة "حكم ذاتى محدود فيها" حسب اتفاق أوسلو.

"إسرائيل وأمريكا كـانتا ولا تزالان خائفتين من "ديمقـراطية فلسطينية أكثر "TOO MUCH PALISTINIAN DEMOCRACY" انطلاقًا من خوفـهما أنه من خلال ديمـقراطية حـقة فإن القوى المعـادية للسلام (فى نظرهما) مـثل حمـاس ستزداد قـوة. إنهم كانوا ولا يزالون خـائفين من "الأعراض الجزائرية". إن هذه المخـاوف جعلتهم يغفلون عن حقـيقة أن غياب الديمقراطية هو أحد الأسباب الرئيسة للانتفاضة الفلسطينية. وتجدر

الملاحظة هنا أن مختلف الحكومات الإسرائيلية نظرت إلى عرفات باعتباره قادرًا على اتخاذ إجراءات ضد القوى المعادية للسلام فى فلسطين تمامًا مثل قدرته على إنكار أية حاجة لديمقراطية فلسطينية. وقد لخصت الجملة الشهيرة التى قالها إسحق رابين ذلك "بدون محكمة عليا وببيت زيلم" ومعناها أن عرفات ممكن أن يعتقل ويُوقف وحتى ينفذ إعدام أى واحد، بدون أى عملية قانونية حقيقية".

لا حاجة للتعليق على ضلالة هذه النظرة الإسرائيلية العنصرية للقيادة الفلسطينية؛ لأن الأحداث أثبتت للإسرائيليين أنفسهم ضلالها بعد أن جرعتهم مرارات.

ولافت أن هذا الباحث الذى يحاول تحرى الموضوعية فى بحثه بقى أسير مصطلحات ضالة مثل وصف المقاومين الذين يعملون للتحرير بأنهم "قوى معادية للسلام" فى الوقت الذى يكشف هو فيما يكتبه عن أن ما أسمته واشنطن "سلامًا" كان فى حقيقته أفظع صور الاستسلام.

يتابع هذا الباحث الإسرائيلى "الفضح والمراجعة" فيبين كيف أن "إسرائيل" "كانت ولا تزال خائفة من المجلس التشريعى الفلسطينى أن يكون قادرًا على سن قوانين ضد المصلحة الإسرائيلية. وهذا ما دعاها إلى الاعتراض على سعى عرفات توقيع الدستور الفلسطينى".

ولم يجرؤ قادة إسرائيل أن يتحدوا عرفات حين صرح فى مجالسه الخاصة بهذه الحقيقة. ويقول الباحث "إنه هو نفسه تمنى على رابين فبيريز فنتنياهو أن يصرحوا علنًا بأنهم ينظرون إلى الدستور الفلسطينى مرحبين

ولكن ذلك لم يحدث أبدًا" .

آخر ما نقتطفه من حديث هذا الباحث فى مقالنا هذا هو حديثه عن "النظام الاقتصادى الفاسد" الذى ساد فى الأراضى الفلسطينية منذ تطبيق اتفاقات أوسلو عام ١٩٩٣ . فجير شوم باسكين يقول: "علينا أن نلاحظ أيضًا التورط الإسرائيلى الواسع فى تطوير هذا النظام الاقتصادى المحكوم مركزيًا، الاحتكارى، الفاسد. فعلى الرغم من تحذيرات دائمة من أخطار هذا الانغماس الإسرائيلى فيه، فإن المسئولين الإسرائيليين عملوا على تسهيل وتشجيع ما يمكن أن يسمى تمزيق الشعب الفلسطينى من خلال صفقات تبرم فى العلن من خلال مسئولين إسرائيليين أمنيين سابقين مع عناصر فى السلطة.

ومعظم هذه الصفقات كان يمكن أن تنتهى بهم إلى السجن. ويضرب الباحث مثلاً صارخًا هو أن أول أمر يتعلق بالبيزنس" الفلسطينى ــ الإسرائيلى، أصدره شارون بعد توليه الحكومة هو "فتح كازينو أريحا" . وأجدنى أفضل تعريب كلمة بيزنس بدلاً من ترجمتها للدلالة على هذا النوع من "العمل" .

هكذا نجد "مراجعة النفس" فى هذا الحديث انتهت من خلال التحليل إلى أنه حتى النقطتين اللتين جعلهما الباحث من مسئولية السلطة الفلسطينية، كانتا بفعل "الإملاء" الإسرائيلى على السلطة.

مجموعة أمور نستخلصها مما سبق:

١ ــ أن الانتفاضة والمقاومة بعامة هى التى أوصلت قطاعًا من الإسرائيليين والأمريكيين إلى أن تنفضح المسلكية الإسرائيلية الأمريكية

أمامـهم، ودعتهم إلى مراجـعة النفس. وسوف توصل البـاقين منهم إلى ذلك باستمرار بإذن الله.

٢ ـ أن "إعـلام الترويج" قـد يسرق وعـى "العامـة" لفتـرة، ولكن مفعوله يتناقص مع بروز المقاومة التى سرعان ما تبدد مزاعمه.

٣ ـ أن "مراجعة النفس" التى تتم فى الأوساط الإسرائيلية والأمريكية اليـوم تروى الأحـداث من وجهـة نظر الصـهـاينة العنصـريين والطغـاة الأمريكيـين. وهناك رواية أخرى لهذه الأحـداث من وجهة نظر المقـاومة ترويها الانتفاضة، وهى التى يحفظها التاريخ.

٤ ـ أن جميع ما ظهر بفعل الفـضح والمراجعة لدى العدو كان واضحًا جليًـا عند أهل الرأى العـرب. وقـد دأب الفكر العـربى منذ أوسلو على النظر فيه، وبلورته وتعميمه. وتشهد بذلك الكتابات العربية التى صدرت عن "مسيرة التسوية" سيئة الذكر.

٥ - أن مـا ينشـر اليوم على الصـعـيـد الإسرائيلى الأمـريكى حـافل بتفاصـيل جديدة تغنى ما بلوره فكرنا من آراء. مثـال ذلك رأينا فى سيئ الذكر بيل كلينتون وإدارته.

وهذا الموضوع يستحق حديثًا خاصًا يتناول دوره على الصعيد الشخصى والصعيد العام. ومثال ذلك أيضًا رؤيتنا لخطة الصمود التاريخية الفلسطينية العربية الحضارية الإسلامية فى كامب دافيد، وتحليلها. وهى أيضًا تستحق حديثًا خاصًا.

فى نهاية الشهر العاشر لانتفاضة الأقصى أحداث .. والحاجة إلى قراءة صحيحة

فى ٢٨/ ٧/ ٢٠٠١، بعد عام من انكشاف مخطط كلينتون ـ باراك لاغتصاب الحرم القدسى فى مفاوضات كامب دافيد الثانية وإفشاله، أكملت انتفاضة الأقصى عشرة شهور كاملة، وكان شهرها العاشر حافلاً بالأحداث.

من بين هذه الأحداث وأهمها جميعًا هو حدث استمرار الانتفاضة فى حد ذاته رغم محاولات واشنطن وزمرتها، وإنهائها بأساليب مختلفة، أفظعها إطلاق يد مجرم الحرب إرييل شارون وحكومته الإرهابية لاستخدام أقصى درجات العنف وبمختلف الوسائل حصارًا واغتيالات وقلع أشجار وتهديم منازل لإخضاع شعب فلسطين العربى، والقضاء على انتفاضته.

ومن بين هذه الأساليب تعاملها مع ما عرف باتفاق "جورج تينيت" مدير المخابرات الأمريكية. إذ إن الإدارة الأمريكية التى أرسلت "تينيت" بعد أن اضطرت للتحرك، سرعان ما تعاملت مع الاتفاق الذى توصل إليه فى منتصف شهر حزيران يوليو وفقًا لما يريد شارون، فتضاعف سوءه؛ لأنه اتفاق سيئ فى أصله. وهكذا دأبت إدارة بوش على الضغط على "الفلسطينيين" لوقف العنف أولاً!! وأعطت شارون الحكم على هذا الوقف!، فضلاً على استمرار توظيف آلة الإعلام الأمريكية لتشويه مقاومة

شعب فلسطين، ووصفها بأنها "إرهاب"!! وبرغم كل ذلك استمرت الانتفاضة. فكان هذا الاستمرار حدثًا فى حد ذاته، والأهم.

* حدث آخر شهده الشهر العاشر لانتفاضة الأقصى هو فتح ملف جرائم مجرم الحرب إرييل شارون على صعيد دولى، وارتفاع أصواتٍ فى أوروبا وأنحاء أخرى من العالم لمحاكمته على تلك الجرائم. وقد شهدت بلجيكا استهلال فتح هذا الملف حين قبل القضاء فيها قضية رفعتها إحدى ضحايا مذبحة صبرا وشاتيلا.

* حدث ثالث هو إثارة موضوع "عنصرية الصهيونية" بمناسبة قرب انعقاد المؤتمر الدولى لمكافحة العنصرية فى جنوب أفريقيا. وقد نجحت وفود عربية فى إثارته بهدف وضعه على جدول أعمال المؤتمر، وأيَّدتها وفود كثيرة أخرى. الأمر الذى أفقد الصهاينة والإدارة الأمريكية الصواب والأعصاب، فتتالى تهديدهم بمقاطعة المؤتمر. ولا يزال الموضوع مثارًا.

مجموعة أحداث على الصعيد الرسمى العربى يشار إليها أيضًا، تضمنت تحركًا للجنة المتابعة العربية المكلفة بتنفيذ قرارات القمة، وانعقاد اجتماع لمكتب المقاطعة العربية لإسرائيل لأول مرة منذ سنوات، وتحركًا لدول التعاون الخليجى، ومعها تحركات لدول عربية أخرى ناحية الولايات المتحدة الأمريكية التى تربطها بها علاقات ومصالح قوية، تهيب بواشنطن بتعبيرات متفاوتة، أن تراجع سياستها العدائية للعرب تحسبًا من تفجر الأوضاع.

حدث آخر شهده الشهر العاشر لانتفاضة الأقصى هو صدور أصوات أمريكية لها تأثيرها "تُفنِّد" الرواية الإسرائيلية الأمريكية عما جرى فى "كامب دافيد" وتكشف عن حقائق ما فعله باراك وكليتون بشأن

موضوعات ما سمى باتفاق الوضع النهائى، وتنحى باللائمة عليهما بعد أن دأبت تلك الرواية الإسرائيلية الأمريكيـة على الإنحاء باللائمة على "ياسر عرفـات" سنةً بطولها. وصدور صوت جـيمى كارتر بهـجوم عنيف شنه على الرئيس بوش انتقد فيه كل ما فعله منذ توليه السلطة بدءًا بسياسته تجاه الصراع العـربى الصهيونـى. وتلته أصوات أخرى لأصـحاب رأى. وهذا الحدث وثـيق الصلة بسيـاسة إدارة بوش التى جـهدت منذ توليـها لإنـهاء الانتفاضة.

تفاعلت هذه الأحداث فـأوجدت "مناخًا" يختلط فيه على صـعيد أبناء أمتنا "التشاؤم" و"التفاؤل" و"الإحباط" و"العزم". وتبرز فيه "قراءات" تعبِّر عن ذلك، الأمر الذى يطرح أهمية الوصول إلى "قراءة صحيحة" من خلال الحوار بين أهل الرأى. ويذكر كاتب هذا الحديث ما لمسه من حرص على ذلك فى عـدد من اللقـاءات شارك فـيـهـا خلال الشـهـر العاشـر للانتفـاضة. كان الوصول إلى قـراءة صحيـحة نصب العين فى اجتـماع الأمانة العـامة للمؤتمر القـومى العربى الذى انعقـد فى بيروت أوائل ذلك الشهر، وكذلك فى اجتمـاع لجنة المتابعة للمؤتمر القومى ــ الإسلامى الذى تلاه، ثم فى مؤتمر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الذى انعقد فى الرباط بين ١٠ و١٢/ ٧/ ٢٠٠١، وقبلهـا فى مؤتمر دعم الانتفـاضة فى نقابة المحامين بالقاهرة، ثم فى مـحاضرة بالأسكندرية، وفى لقاءات فكرية بين مـعنيين ناقـشت فيـما ناقـشت بعض ما تنشـره وسائل الإعـلام من "قراءات". كما يذكر كاتب هذا الحـديث أنه أمضى عشرات الساعات فى النظر وإمـعان الفكر أثـناء كتـابته بحث "ظـاهرة الاستـشهـاد فى الواقع الفلسطينى المعاصر" بطلب من مجلة "شئون عربية".

والقصد من ذكـر هذا المثل هو تأكيد على أهميـة الحوار بين أهل الرأى وتوفير المعلومات والتأمل، وتذكّر أن "القـراءة الصحيحة" لا تتأتى إلا من خلال الرؤية الشـاملة والنظرة الكلية للإحاطة بالواقع القـائم ورؤية جوانب الإضاءة وجـوانب الإظلام فيه، ومـا يجرى فى "العَـدْوتين" من أحداث وتفاعلات على جانبى الصراع وبخاصة الجانب الآخر من التل حيث العدو وبالمستويين الرسمى والشـعبى، وبتبادل التأثير بين قاعدة الهـرم ومستوياته وقمتـه. والقراءة الصحيـحة للواقع تُعنى بالأحداث الجـارية وبالمناخ العام المحيط وبالأحوال المادية وبالموضوعات المطروحة وبالأفكار وبالشخوص.

هذا الحديث عـن مواصفـات "القراءة الصـحيحـة" فرض نفـسه عند "تقويم" أحداث الشهر العاشر لانتفاضة الأقصى، وتتبُّع الخط البيانى لها. وذلك لأن بعض القـراءات التى طرحت غلب عليهـا "الانفعـال" بسبب قسوة المعاناة فى أعـقاب جرائم العدو، فاتسمت بتـشاؤم شديد، وحفلت بأحكام عامة تمس الأمـة كلها بمستوييـها الشعبى والرسـمى دون تمييز بين ألوان طيف المستوى الرسمى العـربى بدوله الاثنتين والعشرين دولة، ودون وقوف أمام نبض المسـتوى الشعبى، ودون نظر لفعل الانتفـاضة فى العدو الإسرائيلى، وفى الدعم الأمريكى له.

مثل على ذلك ما تردد فى إحدى القراءات من وصف العالم العربى بأنه "يتبـدد مع بداية قرن جديد رجـل الشرق المريض .. وهو معـرض لحالة اختراق عميق طالت كل ركن فيه" .. وتبرز فى سمائه "ظاهرة تهافت إلى درجة التسـاقط.. وهناك فيروس خطير أصاب الفكر العـربى ومعه الإرادة والضمير، أظهرُ أعراضه أن الوهن يصل بالمصابين إلى حدٍّ الهلوسة".

لقد تفاقم حال "القراءة المتشائمة" إثر أحداث الأسبوع الأول من الشهر

الحادى عشر للانتفاضة التى شملت محاولة وضع حجر أساس للهيكل فى القدس قام بهــا الصهاينة، واغتيال عــدد من الناشطين المجاهدين من فتح وحماس فى غــزة ونابلس بالتتابع وعددًا من الجرائم الإســرائيلية الأخرى، فاشتــد "الإحباط" وزاد "الانفعال" ونعــتت هذه القراءة المتشائمــة جميع العــرب والمسلمين "بالــهوان والشلل والانحطاط" وتــهكمت على النظام العــربى وقيــادات الدول الأعضــاء فيــه، وتوزعت بين طلب عقــد قمــة والتشكيك فى جدواها، أو إنكار الجدوى كلية.

تجدر الإشارة هنا إلى أن غالبــية "القراءة المتشائمة" بدرجــاتها المختلفة، تستــهدف تعبئــة طاقات الأمة، وحــشدها فى مواجــهة العدو الصهــيونى وداعمــه الأمريكى. وقــد انتهت القراءة فى المثل الــذى أوردناه إلى القول "بأن هناك إمكانيــة للأمل أن يغلب اليــأس شــرط إدراك الحقــيقــة، وألا يتصرف العــرب وكأنهم ربحوا رهان المستقــبل لأنهم فى الواقع خسروه"، "وأن الممكن المتاح معــلق بسياسة النفس الطويل". فــالكاتب يقرر وجود إمكانية للأمل ويدعو لسياسة النفس الطويل، وإن كان قد حسم بأن العرب خسروا رهان المستقبل!!

لا ضيــر فى أن تتسم "قراءة صحــيحة علمــية" بمسحة تشــاؤم، لأنها مادامت "صحــيحة علمية" فإن تشــاؤمها يكون فاعلاً دافــعًا إلى العمل. والعيب هو فى التــشاؤم اليائس الذى يقعــد بصاحبه عن الفــعل، ويجعلهُ يائسًا يعانى من القابلية للهزيمــة والاستسلام. ومؤسف أن بعض القراءات المتشائمة التى طرحت مؤخرًا كانت من هذا النوع.

لقد شــهد الشهــر العاشر طرح قــراءات متفــائلة فاعلة استــهدفت هى الأخــرى تعبــئة طاقــات الأمة وحــشــدها. وتفاعلت كل هذه القــراءات

"الفاعلة" ليستمر ارتفاع شعار "استمرار الانتفاضة ودعمها لتصمد وتتصاعد مع توطين النفس على صراع النفس الطويل" .

إن ارتفاع هذا الشعار مع نجاح الانتفاضة فى الاستمرار لم يكن ليحدث بدون فكر اقترن بالفعل. والحق أن هذا الفكر بدأ بالظهور منذ مدريد وأوسلو، ونما تدريجيًا داعيًا إلى رفض الحل العنصرى الذى تحاول "عملية سلام الشرق الأوسط" الوصول إليه، وإلى "الاعتصام بالمقاومة" فى الوقت نفسه.

وقد اكتمل الحمل به فى لحظة الصمود فى كامب دافيد الثانية قبل عام، فأثمر انتفاضة الأقصى التى عبّرت عن فعل المقاومة بكل ما يتطلبه من إرادة قوية وعزيمة ماضية وضمير نقى، تجلى كأروع ما يكون التجلى فى ظاهرة الاستشهاد. ألا يدعو هذا من انساقوا بفعل التشاؤم إلى "حكم عام" على الفكر العربى بأنه مصاب بفيروس خطير ومعه الإرادة والضمير، إلى مراجعة حكمها العام هذا؟ وإذا كانوا يقصدون "بالوهن والهلوسة" بعض العرب المقصرين أو المتخاذلين، فلماذا لا يحددونهم ويرضخون جوانب التقصير والتخاذل؟ والحذر الحذر من إطلاق أحكام عامة تنكر ما حققه الفكر الفاعل، وما أنجزه الشعب المنتفض، وتشيع اليأس فتدعو عن غير قصد إلى القعود.

مجمل القول أن الشهر العاشر لانتفاضة الأقصى كان حافلاً بأحداث يوقف أمامها، وقد طرح موضوعات تستحق العناية بها، وأكد على ضرورة الحرص على القراءة الصحيحة العلمية الموضوعية، لأنها "فاعلة". وهى الكفيلة بتوفير قوة دفع لانتفاضة الأقصى حتى تبلغ هدفها بالتحرير.

نداء مُلِحّ أمام تصاعد العدوان الصهيونى المدعوم أمريكيًا

"الصمود الصمود" ثم "الصبر الصبر"، "الفعل الفعل"، "التحرير نصب العين" هذا هو النداء الذى يلح علينا وانتفاضة الأقصى فى الأسبوع الأول من الشهر الحادى عشر.

فأما "الصمود" فأمام تصعيد عدوان حكومة مجرم الحرب شارون الإسرائيلية الصهيونية العنصرية، المدعوم من إدارة الرئيس بوش الأمريكية، ممثلة لقوى الهيمنة والطغيان الغربية التى أوجدت هذه الصهيونية، ووظفتها، وقد سجل هذا التصعيد فى الخط البيانى للعدوان ذروته..

أما "الصبر فعلى عظم المعاناة التى سببها هذا العدوان المتصاعد، الذى يتضمن الحصار والقصف والاغتيال وهدم المنازل وقلع الأشجار مستهدفًا "الحرث والنسل" ومفسدًا فى الأرض.

أما "الفعل" متابعة لروح الانتفاضة ومنطقها القويم، فى مواجهة طرفى التحالف الصهيونى الاستعمارى داخل الوطن المحتل، وللتأثير على المصالح الأمريكية فى الوطن الكبير حتى تراجع الإدارة الأمريكية استراتيجيتها وسياستها وموقف دعمها للإجرام الصهيونى والإرهاب الإسرائيلى الرسمى.

و"التحرير نصب العين" لأنه هدف الشعب الذى استهدفته الغزوة الصهيونية الاستعمارية مباشرة، وهدف الأمة جمعاء فى دائرتها العربية ودائرتها الإسلامية المستهدفة بالغزوة أصلاً. ولا بديل عن أن نعبِّر عن هذا الهدف بمصطلح "التحرير"، ولنحذر قبول مصطلح "التسوية" المضلل ومصطلح "عملية سلام" كاذب، ولا تمت للسلام بصلة، وإنما تستهدف فرض الأمر الواقع، والقبول به استسلامًا.

أما المقصود بضمير المتكلم الجمعى "نحن" فواضح أنه يشمل الدوائر الثلاث ذات المركز الواحد الذى هو بيت المقدس، فلسطينيًا وعربيًا وإسلاميًا.

لماذا يلح هذا النداء فى هذا الوقت بالذات؟

يمكن لمؤرخ انتفاضة الأقصى أن يجيب "الأمر متصل بأحداث الأسبوع الأول من الشهر الحادى عشر لانتفاضة الأقصى، وبالمناخ الذى أوجدته، وبحصيلة الشهر العاشر والشهور التسعة التى سبقته".

ما هى هذه الأحداث؟

أولها كان يوم الأحد ٢٩/٧/٢٠٠١، ٨/٥/١٤٢٢ حين أقدم نفر من قطعان المستعمرين المستوطنين الصهاينة الإسرائيليين يسمون أنفسهم "أمناء جبل الهيكل" بمحاولة وضع "حجر أساس" لهيكل يعتزمون بناءه محل المسجد الأقصى فى الحرم القدسى، بحماية الحكومة الإسرائيلية، وإيعازها وبصمت الإدارة الأمريكية وقبولها. وذلك بعد أن مهدت "المحكمة العليا" للكيان الصهيونى العنصرى لهم بحكم أصدرته. ويومها قام "أهل بيت المقدس" العزل باسم أبناء الأمة بالتصدى لهم ببسالة. وسيبقى منظر المصلين العرب الفلسطينيين، وهم يقذفون بأحذيتهم الجنود الإسرائيليين المدججين

بالسلاح، الحاملين الدروع فى ذاكرة كل من شاهدوه عبر التلفاز.

تتالت الأحداث بعد ذلك اليوم حاملة معها كل يوم صورة من صور العدوان الإجرامى الصهيونى، ومنها حدث اغتيال سبعة مجاهدين من قيادة تنظيم "فتح" فى غزة، ثم استهدف مكتبًا لتنظيم "حماس" فى عمارة سكنية بقصف، شاركت فيه حوامات "أباتشى الأمريكية" نجم عنه استشهاد ثمانية بينهم قائدان وطفلان، وتجلى الدعم الأمريكى للعدوان عمليًا فى كل مرة باستخدام الإسرائيليين آخر الأسلحة الأمريكية، ومعنويًا باستمرار إعطاء مجرم الحرب شارون الضوء الأخضر لمتابعة إجرامه، وذلك بترديد الطلب من الفلسطينيين "وقف العنف" أولاً، ومنح شارون الحكم على ذلك، وصف مقاومة أبشع احتلال عنصرى فى التاريخ بأنه إرهاب، وأخيرًا تجرؤ "ديك تشينى" نائب الرئيس الأمريكى على إعطاء مبرر الحكومة الإسرائيلية أن تقوم بعمليات اغتيال القادة الفلسطينيين لمجرد تحسبها من استمرارهم فى عمليات مقاومة. ومع أن الإدارة الأمريكية حاولت أمام ردود الفعل العربية والعالمية على هذا التصريح والتخفيف منه إلا أنه عبر عن مدى ضلوع تشينى ورئيسه فى هذا العدوان الإسرائيلى المتصاعد.

يا لمناخ الإحباط الذى شاع فى أوساط الأمة بسبب قصور واضح على الصعد الرسمية العربية القطرية فى ردع هذا العدوان، وفى إشعار أمريكا قولاً وفعلاً بأن مصالحها ستمس، وأن انفجار الغضب الشعبى لا يوقف، وكثيرة هى السبل للقيام بهذا الإشعار، وقصور فى مواجهة هذا العدوان الإسرائيلى بتنفيذ قرارات القمة العربية فيما يخص العلاقات والمقاطعة ودعم الانتفاضة. وقد لاحظ كاتب هذا الحديث هذا الحال فى الأسئلة التى تُوجهها وسائل

الإعلام لأهل الرأى، ومنها ما حـدث معه، فكثير منها معـبر عن الإحباط، وعن الغضب الشديد.

لقد فـرضت أحداث الأسبـوع الأول من الشهر الحادى عـشر لانتفـاضة الأقصى نفسـها، ٧/٢٩ : ٨/٤ اليوم الذى أكتب فيـه هذا الحديث، مبلوراً هذا النداء الملح "الصمـود والصبر والفعل حتى تحـرير فلسطين" . وأذكر وأنا واحد من الحريصين على التأريخ لانتفاضـة الأقصى أننى حين تهيأت للكتابة عن حصاد الشهـر العاشر مساء يوم ٧/٢٨ جاء حـدث الاعتداء على الحرم فجعلت ضمن ما كتبت فى مساء اليوم التالى. ثم جاءت الأحداث التالية قبل أن أستطيع إكمـال الكتابة لتدعونى إلى إعادة مـا كتبته مـرتين. وكانت كلمة "الصمود" لسان حال بعد الحدث الأول، ثم تلتـها كلمة "الصبر" بعد تتابع الأحداث، ورؤية صور جرائم الاغتـيال، ثم جاءت كلمة "الفعل" فى إطار استمرار المقاومة بكل أبعادها، ونصب العين تحرير فلسطين.

تبقى الحاجـة ملحة بعد انطلاق هذا النداء، ومن أجل الإسهـام فى تنفيذ مضمونه، إلى النظر فـى حصاد الشهر العاشر الذى كـان حافلاً بالأحداث، وإلى الموضوعات التى طرحتها هذه الأحداث، ومنها موضوع مجرمى الحرب الصـهاينة، ومـوضوع ظاهرة الاسـتشـهاد فى الواقـع الفلسطينى المعاصـر، وموضوع سبل العـمل الشعبى العربى المساند للانتفـاضة، وموضوع الأوراق العربيـة الرسمية التى ينبـغى توظيفها، ومـوضوع سياسـة الرئيس بوش تجاه الصراع، وموضـوع "قراءة صحيحة" للواقع القـائم بغية تشوف مسـتقبله. وهذه موضوعات تستحق المعالجة فى أحاديث تالية.

بقى فى آخر هذا الحديث أن أشير إلى ما أذاعته وكالات الأنباء عن التحرك

الشعبى العربى الذى حدث يوم الجمعة ٣/٨، اليوم السادس من الأسبوع الأول من الشهر الحادى عشر.

وقد نقلت المحطات الفضائية صوراً منه فى الأزهر الشريف بالقاهرة عاصمة مصر، وفى تجمعات بالأردن، وفى بيروت بلبنان، وفى مخيم اليرموك بدمشق عاصمة سوريا، وفى الدوحة بقطر، وربما فاتتنى صور أخرى. والإشارة هنا تستهدف التأكيد على ضرورة تكثيف التحرك الشعبى فى جميع أقطار الدائرتين العربية والإسلامية؛ لأنه يسهم فى التعبئة والحشد فى مواجهة العدو الإسرائيلى والدعم الأمريكى. كما تستهدف حث الحكومات العربية على إفساح المجال لهذا التحرك الشعبى أن يعبر عن نفسه فى حدود احترام القانون؛ لأنه حق من حقوق الإنسان، ولأنه أيضًا سند لها فى التحرك الرسمى المطلوب منها.

وقد أحسن مدير مركز العودة فى لندن حين أشار إلى هذا الهدف، وهو يتحدث عن المظاهرة التى نظمها المركز أمام السفارة الأمريكية فى العاصمة البريطانية بعد أن حصل على الإذن بها. وكنا رأينا قبل أسبوعين المظاهرة المضادة للعولمة فى جنوا أثناء انعقاد قمة الدول الصناعية. وسمعنا ما واجهته حكومة إيطاليا من نقدٍ شديد لإساءتها التعامل مع هذه المظاهرات، وعدم احترامها لحق التظاهر.

إن نجاح الأمة فى الصمود والصبر والفعل وصولاً لتحرير فلسطين يقتضى أن يدرك أبناؤها مسئولين وشعبيين على الصعيدين أن العدوان الصهيونى يستهدفهم جميعًا، وأنهم فى سفينة واحدة فى مواجهته. وأن عليهم من ثم أن يخضعوا أى تناقضات ثانوية فى صفوفنا لمتطلبات التناقض الرئيس فى هذا الصراع؛ وذلك لمواجهة العدو.

خطوط سياسة الإدارة الأمريكية تجاه الصراع

موضوع سياسة الرئيس جورج دبليو بوش تجاه الصراع العربى الصهيونى هو أحد الموضوعات الملحة التى طرحتها أحداث الصراع المتتابعة فى ظل انتفاضة الأقصى منذ توليه هذه الإدارة يوم ٢٠/ ١/ ٢٠٠١، وكم من مرة برزت الحاجة إلى الوقوف أمام هذا الموضوع وقفة تفكر بغية الوصول إلى قراءة صحيحة لهذه السياسة تمكننا نحن العرب رسميًا وشعبيًا من إحسان التعامل معها، ومواجهة ما اتسمت به من عداء للشعب العربى الفلسطينى وقيادته وللأمة العربية جمعاء.

هذا العداء الشديد أصبح واضحًا للغالبية العظمى من أبناء الأمة، بعد أن تجلى فى تصريحات رسمية أمريكية وتحركات ودعم غير محدود للجرائم الإسرائيلية اليومية التى تقترفها حكومة مجرم الحرب شارون الإسرائيلية. وقد دعا قيادات عربية عدة إلى القيام بتحركات دبلوماسية نحو واشنطن، كان آخرها التحرك الذى قام به الوفد السياسى المصرى برئاسة د. أسامة الباز - المستشار السياسى لرئيس الجمهورية - فى الأسبوع الثالث من شهر ٨/ ٢٠٠١. ويتضح مما نقلته مندوبة الأهرام فى واشنطن هدى توفيق يوم ٨/١٩ عن د. الباز "أنه تم الاتصال بأكثر من عاصمة عربية قبل توجه الوفد المصرى إلى العاصمة الأمريكية، وأنه أكد

إصرار مصر على استخدام كل الفرص المتاحة، واستثمار كل الجهود للتوصل إلى إنهاء التدهور الراهن، ووضع حد للممارسات الإسرائيلية والأوضاع العبثية التى تحاول إسرائيل أن تفرضها، وأن المحادثات تركزت فى ثلاث نقاط: (١) إقناع واشنطن بخطورة الأوضاع، وضرورة التحرك لوقف التردى بأسرع ما يمكن (٢) أن ترك الموقف بمضاعفاته كما هو جار الآن سوف تترتب عليه نتائج سيئة لن يسلم منها أحد (٣) التحذير من العواقب الوخيمة لذلك على المصالح الأمريكية فى المنطقة" .

ليس خافيًا دلالة النقطة الثالثة؛ لأن سياسة إدارة بوش بما حفلت به من عداء شديد للعرب لن تمضى بدون أن تكون لها عواقب وخيمة على المصالح الأمريكية فى الوطن الكبير، عاجلاً أو آجلاً. ولقد مضى على ممارسة هذه السياسة يوم كتابة هذا الحديث سبعة شهور كاملة، ويمكن للناظر بإمعان أن يرى أنها اليوم عند نقطة دقيقة قد تشهد بعدها تطويراً وسبق لها أن مرت يوم ٦/١ بنقطة دقيقة أخرى فرضت عليها شيئًا من التطوير. ولكى يكون التطوير فى مصلحتنا فلا بد لنا من استمرار الاعتصام بالمقاومة بمفهومها الشامل، وهذا بدوره يقتضى قراءة تجيب عن أسئلة برزت وأخرى مطروحة.

"هل جاءت إدارة الرئيس بوش معها بسياسة تجاه الصراع، أم أنها آثرت التريث فترة حتى تبلور سياسة؟" الحق أن سلوك هذه الإدارة تجاه الصراع فيما اتصف به من تظاهر بالانشغال عنه، وما أرفق ذلك من تحليلات إعلامية موجهة، جعلت البعض يطرح السؤال وهو فى حيرة من الأمر، مع أن جوابه واضح عند المختصين.

الجواب هو أن إدارة بوش شأن أى إدارة أمريكية سبقتها جاءت معها بسياسة تجاه الصراع وتجاه القضايا المختلفة التى تهم الولايات المتحدة. وهى سياسة رسمت خطوطها مراكز البحث التابعة للحزب الجمهورى، وبلورها الاستراتيجيون الأمريكيون الذين يقودون هذه المراكز. وما التظاهر بالانشغال عن الصراع العربى الصهيونى إلا خط فى هذه السياسة.

ما هى إذاً بقية الخطوط؟

لقد كان هنرى كسنجر فى مقدمة من اقترح خطوط السياسة التى تتبعها إدارة بوش. ومعلوم من هو المذكور فى التأثير على الحزب الجمهورى وعلى السياسة الأمريكية بعامة، بحكم موقعه العلمى منذ الستينيات، ثم موقعه السياسى وزيراً للخارجية إلى جوار نيكسون، ثم موقعه الاستراتيجى من خلال مؤسسة أقامها. ولافت أن كيسنجر اختار أن يطرح مبكراً هذه الخطوط فى أوائل كانون أول/ ديسمبر ٢٠٠٠. وقد نشرتها جريدة جيروزاليم بوست الإسرائيلية. ونقلتها عنها جريدة العربى يوم ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٠.

عمد كيسنجر إلى التمهيد لطرحه بقراءة للصراع استهدف منها نقد تحركات كلينتون وباراك الذى لم يتفهم "الفجوة العميقة بين التعريف الإسرائيلى للسلام والتعريف الفلسطينى له". واستعرض قبل ذلك العلاقات الأمريكية الإسرائيلية منذ حرب ١٩٦٧ والاحتلال الإسرائيلى للأراضى العربية، ينتهى إلى استخلاص دروس التجربة، وهى:

أولاً - "الأطراف المعنية غير مستعدة للوصول إلى تسوية نهائية على الأقل بشروط يقبلها الطرفان". ولذا فقد حذر كيسنجر من أن الاندفاع نحو الحل النهائى ربما يسفر عن انفجار آخر (غير انفجار انتفاضة الأقصى)

ولذا فإنه يرى "أن صيغة اتفاقية سيناء الثانية التى تم التوصل إليها عام ١٩٧٥ (إثر حرب رمضان) وجوهرها أن الاتفاقية سارية إلى أن تلغيها أخرى، تفى بالغرض بدلاً من إبرام اتفاقية سلام فى هذه المرحلة". وهذا هو اقتراحه بشأن ما سمى باتفاق الوضع النهائى فى عملية التسوية، فهو لا يرى الاستمرار فى محاولة الوصول إليه. وهكذا يكون خط السياسة الذى يقترحه هو "لا اتفاق سلام فى هذه المرحلة. والاكتفاء باتفاقية تهدئ الوضع تبقى سارية إلى أن تلغيها أخرى" يذكرنا هذا الخط بما كان ريتشارد هاس (الذى هو الآن فى إدارة بوش)، اقترحه عام ١٩٩٧ فى مقال بمجلة فورين افيرز بعنوان يوجز الاقتراح "لا اتفاقات أخرى" nomore treaties. وحين نراجع تحركات الرئيس بوش على مدى الشهور السبعة الماضية نجد أنها ملتزمة بهذا الخط السياسى.

وكانت مراكز بحث أخرى أمريكية صهيونية قد أبدت هذا الخط، ومنها معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى الذى تخرج منه سيئ الذكر دينس روس، وعاد إليه حيث أوصى تقرير المعهد "بإعادة تقويم اتفاق أوسلو واستكشاف مسالك بديلة للسلام على أن تحتفظ أمريكا دائمًا بدورها كحليفة لإسرائيل أولاً وأخيراً".

الخط الثانى يمكن استخلاصه مما طرحه كيسنجر فى مقاله حيث قال:

ثانيًا - إن تحديات التعايش (بين الإسرائيليين والفلسطينيين) ستستمر. ويتعين على أى مفاوضات مقبلة أن تسعى للتوصل إلى تعريف للتعايش بين مجتمعين يقطنان منطقة لا يزيد عرضها على خمسين ميلاً (٨٠ كم)، والعمل على الحد من الاحتكاكات بينهما من خلال الفصل بينهما

بأكبر قدر ممكن".

فنحن هنا أمام اقتراح بالعمل على الحد من الاحتكاكات بين المجتمعين - على حد تعبيره - من خلال الفصل بينهما بأكبر قدر ممكن، مع السعى للتوصل إلى التعايش بينهما عبر التفاوض. ونتوقف هنا أمام كلمة "الفصل" التى تبرز بين فترة وأخرى فى أوساط الصهاينة الإسرائيليين والأمريكيين على السواء. وكان باراك قد طرحها. وها نحن نسمع هذه الأيام عن تبنى بضعة أعضاء من الكنيست لمشروع يحقق "الفصل" تستخدم فيه تقنيات وأسلاك مكهربة. وواضح أن ممارسات إدارة بوش منذ توليها عنيت فى المقام الأول بمسألة توفير الأمن للإسرائيليين. ومن المتوقع أن تدعم قرارًا إسرائيليًا بتنفيذ "الفصل".

الخط الثالث نستخلصه من البند الثالث فيما طرحه كيسنجر ونصه:

"ثالثًا - يجب تسوية قضية الأرض بشكل منفصل عن القضايا الأخرى، ولا يجب أن يكون القرار مستندًا إلى حدود ١٩٦٧ التى تربط معها المدن الإسرائيلية الكبرى بممر ضيق يبلغ ٩ أميال فقط (١٥,٥ كم). فهذا لا يوفر منطقة عازلة ملائمة من حرب العصابات التى تميز بها الصراع".

واضح أن ما جاء فى هذا البند فيما يتعلق بألا يكون القرار بشأن قضية الأرض مستندًا إلى حدود ١٩٦٧ هو خط ثابت فى السياسة الأمريكية منذ حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وقد سارت عليه جميع الإدارات الأمريكية المتعاقبة، وانطلاقًا منه دعمت الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى الضفة والقطاع والجولان وموّلته. ولا يخفى طرحُ كيسنجر، التطلع لضم أجزاء من هذه الأراضى بحجة ضيق الممر الواصل بين المدن فى الشريط

الأخضر المحتل. واللافت أن يتوقع استمرار المقاومة الفلسطينية، ولهذا فإنه يعزز فكرة "الفصل" بإيجاد "منطقة عازلة". وتكاد تجمع تقارير مراكز البحث الأمريكية الصهيونية على ضم المستعمرات الكبيرة فى الضفة والقطاع إلى الكيان الإسرائيلى. وقد جاءت ممارسات إدارة بوش منذ توليها منسجمة مع هذا الخط.

الخط الرابع نستخلصه من البند الرابع فى مقال كيسنجر ونصه:

رابعًا - "عندما تتم صياغة حدود التسوية يجب إعطاء اعتبارات أساسية للقلق الفلسطينى المتعلق بقدرتهم على عيش حياة كريمة فى إطار هوية اقتصادية قابلة للحياة. ويجب التقريب بين الأراضى الفلسطينية بصورة أكبر مع خفض نقاط التفتيش الإسرائيلية. كما أن الوقت قد حان بالنسبة للإسرائيليين لمراجعة سياسة الاستيطان خاصة فيما يتعلق بالمستوطنات المكشوفة، والمعرضة بصورة دائمة لاندلاع أعمال العنف فيها. ويجب تعزيزها سواء بإبرام اتفاق أو بدونه".

نحن هنا أمام حديث عن صياغة حدود التسوية. ويشير هذا الحديث إلى أراضٍ فلسطينية يُقرب بينها، وإلى استمرار نقاط تفتيش إسرائيلية فيها مع حفظها. وهذا يعنى تثبيت صيغة المعازل. كما يشير إلى هوية اقتصادية قابلة للحياة فى ظل بقاء الاحتلال الإسرائيلى طبعًا.

ويجاهر بضرورة تعزيز المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية بغض النظر عن التوصل إلى اتفاق بشأنها. وليست هناك أية إشارة لإنهاء الاحتلال الإسرائيلى أو لإقامة دولة فلسطينية. وهكذا يكون هذا الخط راسمًا لما يمكن أن تتوصل إليه التسوية، وهو بكلمات استعمار صهيونى واغتصاب منتظم.. ولافت أن إدارة بوش فى ممارساتها عبر الشهور السبعة الماضية

أنها تحركت فى تصريحاتها وأفعالها ضمن هذه الحدود.

الخطان الخامس والسادس هما: قيام إدارة بوش بإعادة النظر فى عملية التسوية، وعدم إكمال جهود الإدارة السابقة، والسعى لتحديد مفهوم جديد للتعايش قبل إطلاق دبلوماسية جديدة، مع عدم الإذعان للضغوط الدولية الداعية للتدخل الفورى؛ لأنها تدخلت فى التفاصيل على حد قول كيسنجر، وتورطت فى السعى إلى صياغة نتائج عبر التأثير على سياسات إسرائيل الداخلية. وأخيرًا بعد إمعان النظر والتروى أكثر أهمية من الإسراع فى الوصول لنتائج، وهكذا رأينا إدارة بوش تتبع هذين الخطين عند توليها، فكان أن تشاغلت عن أحداث الصراع، وكان أن قاومت الضغوط الدولية، وكان أن تركت الأمور الإسرائيلية الداخلية لشارون وحكومته.

ألا توصلنا هذه القراءة التى تجمع بين النظرات والتطبيق إلى أن إدارة بوش التزمت بسياسة تجاه هذا الصراع العربى الإسرائيلى الصهيونى حاولت تنفيذها طيلة الشهور الأربعة الأولى التى أعطت لشارون فيها ضوءًا أخضر أن ينهى الانتفاضة بالقوة الغاشمة؟

لكن إدارة بوش لم تلبث أن اضطرت فى مطلع شهر ٦/ ٢٠٠١ إلى أن تتحرك بمقدار، ذلك حين تصاعدت الأحداث فى المنطقة.

"ما هو التطوير الذى أحدثته إدارة بوش فى سياستها؟ وأين وصلت هذه السياسة بعد حوالى ثلاثة أشهر؟ وماذا علينا أن نفعل مع هذه الإدارة فى الأيام القادمة كى نصل بها إلى مراجعة جذرية لسياستها التى تجابهنا بالعداء الشديد؟" أسئلة نحاول الإجابة عنها فى حديث تالٍ.

فى مطلع الشهر الثانى عشر للانتفاضة
قطف ثمار روح الانتفاض
الشعار هو إنهاء الاحتلال الإسرائيلى

تأتى هذه الوقفة الشهرية أمام أحداث الصراع العربى الصهيونى أثناء انتفاضة الأقصى، وقد أكملت هذه الانتفاضة شهرها الحادى عشر.

"يا له من شهر حافل بالأحداث، ويا لتنوّع المشاعر التى أحاطت بكل واحد من أبناء الأمة، وهو يتابع تلك الأحداث، والتوزع فيها بين الفرح والإحباط والتشاؤم والتفاؤل. إنه شهر آب/ أغسطس من عام ٢٠٠١، وقد تعوَّد أهلنا فى بلاد الشام أن يصفوا شهر آب بأنه لهّاب.

لقد استمرت الانتفاضة فعالة شهراً آخر، وما أسخى عطاء أبناء شعبنا العربى الفلسطينى، وما أروع صمودهم، وما أروع صبرهم على المعاناة وتحملهم "القرْح".

لقد تابع العدو الإسرائيلى الصهيونى العنصرى اقتراف جرائم يوميًا بتصميم وإصرار وتفنن، مستخدمًا أسلحة أمريكية متطورة. ويا لبشاعة الإجرام الإسرائيلى وفظاعته. ولكن الانتفاض لعنة دومًا، وما أعظم تأثيره، ويا لشدة ما أصاب الإسرائيليين الصهاينة من اهتزاز بفعله من "قروح" ولقد استمرت الولايات المتحدة الأمريكية فى سياستها الداعمة

لهذا الإجرام الإسرائيلى ماديًا ومعنويًا، المعادية لأمتنا العربية جمعاء وللشعب العربى الفلسطينى. ويا لفجور الإدارة الأمريكية فى مواقفها، وفى ضغوطها على الدول الأوروبية، ويا لتخاذل جل حكومات تلك الدول أمامها.

لقد تابعت أمتنا بقلوب أبنائها وبمشاعرهم وبعقول حكمائها هذه الأحداث. ويا لتحرق هؤلاء جميعًا على دعم الانتفاض فى دائرة حضارتنا الإسلامية. .هذا هو حديث النفس الذى عبّر عن لسان الحال بعد استحضار أحداث الشهر الحادى عشر لانتفاضة الأقصى الذى لم يمض يوم دون وقوع عدد منها.

تبرز من بين هذه الأحداث على صعيد الانتفاض قيام شاب فى ٨/٥ بعملية جريئة بطولية أمام مبنى وزارة الحرب الإسرائيلية فى تل أبيب جرح فيها ثمانية جنود إسرائيليين، ومحاولة قيام "رضوى" الفتاة الفلسطينية وعمرها٢٣ عامًا بعملية فدائية فى تل أبيب، وقيام استشهادى فى ٨/٩ بأكبر عملية منذ بدء الانتفاضة بالقدس الغربية ومقتل ثمانية عشر جنديًا وإصابة ثمانين، وقيام استشهادى فى ٨/١٢ بعملية قرب حيفا، وقيام ثلاثة فدائيين باقتحام موقع للجيش الإسرائيلى فى قطاع غزة فى عملية بطولية فى ٨/٢٦. كما تبرز أحداث المقاومة المسلحة للاقتحام الإسرائيلى بالدبابات لمدينة جنين يوم ٨/١٤ التى فرضت على قوات الاحتلال الانسحاب. ومثلها أحداث المقاومة المماثلة فى رفح والخليل وبيت جالا.

وتبرز أحداث التصدى لقطعان المستعمرين المستوطنين الصهاينة فى عدد من المواقع فى غزة والضفة، كما تبرز أحداث التظاهرات الشعبية اليومية أثناء وداع شهداء الانتفاضة وفى يوم الغضب إثر احتلال القوات الإسرائيلية

بيت الشرق يوم ١٠/ ٨.

إن جميع هذه الأحداث عبرت عن تصميم شعبنا على متابعة الانتفاض حتى التحرير. وقد ارتفع شعار التحرير عاليًا على ألسنة المتنفضين ولا فت أن هناك تطورًا فى أساليب الانتفاض وعملياتها، وأن لها آليتها التى تتطور ذاتيًا.

تبرز أيضًا من بين هذه الأحداث على صعيد الجرائم الإسرائيلية الصهيونية حدث اغتيال قوات الاحتلال يوم ٣١/٧ نشطين من قادة حماس بقصف بالصواريخ لمكتب حماس بنابلس أدى إلى استشهاد ستة آخرين من بينهم طفلان شقيقان فى السادسة والثامنة من العمر. وقد تابع العدو تنفيذ اغتيال نشطاء من مختلف الفصائل باستخدام مروحيات عسكرية وطائرات إف ١٦ الأمريكية طيلة أيام الشهر. وكان اغتيال الأخ أبى على مصطفى أمين عام الجبهة الشعبية بقصف مكتبه برام الله يوم ٢٦/٨ إحدى حلقات هذا المخطط الصهيونى. واستمرت قوات الاحتلال فى اقتحام مناطق فى الضفة وغزة وهدم المنازل بالجرافات وقلع الأشجار وفى محاصرة المناطق الفلسطينية.

حين نتأمل فى عمليات العدو العسكرية يتأكد لنا ما تحدث عنه المعلق العسكرى الإسرائيلى المخضرم زئيف شيف فى هآرتس عقب عملية القدس الغربية الاستشهادية، عن "بنك الأهداف" لدى الجيش الإسرائيلى.. فمجرمو الحرب الصهاينة حددوا فى "بنك الأهداف" هذا ما تستهدفه عملياتهم من أهداف فلسطينية. وقد وضح من الجرائم الإسرائيلية أن هذه الأهداف تشمل البنية التحتية الأساسية للسلطة الفلسطينية، وكذلك نشطاء الانتفاضة، والشعب كله حين يقتضى الأمر وحصاره والتضييق عليه.

ويقول زئيف شيف: "إن مسألة اختيار الأهداف جانب سياسى. فهناك أهداف عديدة سيؤدى ضربها إلى رد فعل دولى من شأنه زيادة الضغوط لتدويل النزاع. وهو الأمر المعنى به عرفات جدًا " . وحين نراجع أحداث شهر الانتفاضة الحادى عشر نجد أن العدو الإسرائيلى ركز على نشطاء الانتفاضة فى عملياته الإجرامية، وعلى هدم مقار الأجهزة الفلسطينية، وعلى اقتحام المؤسسات الفلسطينية فى القدس وبيت الشرق وأبو ديس، وعلى قلاع الانتفاضة فى مختلف مدن فلسطين جنين ونابلس ورام الله والخليل وغزة وخان يونس ورفح.

وتبرز من بين الأحداث على صعيد فجور الإدارة الأمريكية فى عدائها للانتفاضة وللأمة جمعاء تصريحات الرئيس الأمريكى بوش التى جاهر فيها بوقوفه مع الجرائم الأمريكية، وبهجومه على المقاومة والقيادة الفلسطينية، ومن قبله تصريحات نائبه تشينى وبقية مسئولى إدارته. كما تجلى هذا الفجور فى موقفها من إدانة الممارسات الإسرائيلية الإجرامية فى مجلس الأمن وتهديدها بممارسة الفيتو ضد أى مشروع قرار. وتجلى قبل ذلك وبعده فى دعم حكومة مجرم الحرب شارون فى محاولتها إنهاء الانتفاضة، وفرض التسليم على الأمة، وتكرار الحديث عن "وقف العنف" الفلسطينى (!!). كما تجلى فى معارضة التحرك العالمى لاعتبار الصهيونية عنصرية فى مؤتمر مناهضة العنصرية بجنوب أفريقيا.

حين نتأمل هذه المواقف والتصرفات الأمريكية يتأكد لنا أنها تصدر تنفيذًا لخطوط السياسة الأمريكية تجاه الصراع فى عهد الرئيس بوش، التى سبق أن عرضناها فى حديث سابق، وتبين منها أن واشنطن مستمرة

فى تأييـد الاحتلال الإسـرائيلى للأراضى العـربية المحتـلة عام ١٩٦٧، وهى تسعى فى سنتها الأولى لإبرام اتفاقات تهدئة تحفظ مصالحها وتمكن الكيان الإسرائيلى من المضى فى تنفيذ المشروع الصهـيونى تهجيرًا لليهود من أوطانهم إلى فلسطين، وإقامة مستـعمرات استيطانية لهم، ولا بأس فى رؤيتهـا للأمور منذ تزايد الجـرائم الصهيـونية ضد شـعب فلسطين، فالمهم عندها هو إخضاع قيادتهم لتفاوض بعد توقفهم عن المقاومة ينتهى باستسلامهم، ولا بأس فى رؤيتها من أن يعـانى الإسرائيليون شيئًا قليلاً من المعاناة بما يخدم الأهداف الاستراتيجـية الأمريكية التى توظفهم، وبما ينفس من مشـاعر الرئيس بوش وحزبـه إزاء ما فعله يهـود أمريكان بهم أثناء الانتخابات الأخيرة.

ما دمنا حريـصين فى هذه الوقفة أمام أبرز الأحـداث التى جرت فى الشهر الحـادى عشر للانتفـاض بغية الإحاطة بالواقع الـيوم، فلا بد أن نشير إلى استـمرار التحرك الشعبى العربى والإسلامى للتـعبير عن دعم الانتفاضـة ماديًا ومعنويًا، وإن لم يبلغ بعد بما يشـفى تحرك أبناء الأمة. وقد رسـخت فى الذاكرة صـورة المظاهرة الحاشـدة فى أندونسيـا المؤيدة لفلسطين، المنددة بأمريكا وبالصـهيونية العنصرية. كمـا حفظت الذاكرة تحركات لجان الانتفاضة فى مختلف أقطارنا.

لا بد أن نشير أيضًا إلى تحركات رسمـية حدثت، منها اجتماع وزراء الإعلام العـرب الاستثـنائى بالقاهرة فى ٨/١٥ ووضعـه خطة إعلامـية للتحـرك عالميًا بميزانيـة ٢ مليون دولار. ومنها اجـتماع وزراء الخارجـية العرب بالقاهرة يوم ٨/٢٢ وإقرارهم خطة تحرك دبلوماسى لدعم الموقف

الفلسطينى فى المحافل الدولية. وسابق لأوانه تقويم ثمارها على صعيد الفعل. ومن هذه التحركات أيضًا قيام وفد مصرى عالى المستوى برئاسة د. أسامة الباز - مستشار الرئيس - بالتوجه إلى واشنطن فى الأسبوع الثالث من شهر آب ـ أغسطس. وقد ذكرنا فى حديث سابق النقاط التى ركز الوفد عليها، وثالثتها تحذير من العواقب الوخيمة للأوضاع الراهنة على المصالح الأمريكية فى المنطقة. ولا تزال تفاعلات هذه الزيارة مستمرة فى "دبلوماسية هادئة" . وقد حفل الشهر بتحركات على مستوى القيادات الأولى فى عدد من الاتجاهات. كما شهد الشهر حدثًا له ما بعده، هو ارتفاع صوت فى أوساط إخوتنا الدروز لرفض أداء الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى التى جرتهم إليها السياسات الإسرائيلية العنصرية تجاه أهلنا عرب فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ . وهذا موضوع يستحق حديثًا خاصًا. وواضح أن جميع هذه التحركات جاءت بفعل روح الانتفاض.

ما أعظم أثر هذه الروح فى إصابة العدو الإسرائيلى بقروح واهتزاز نفسى وتشوش عقلى. والشواهد كثيرة، ومنها ما أصاب الكيان الإسرائيلى من خسائر اقتصادية، وبروز هواجس المستقبل فى نفسية الإسرائيلى التى عبّر عنها الانشغال بالمسألة الديموغرافية السكانية، وتسلط مطلب الأمن، وطرح إقامة جدار فاصل بين المستعمرين المستوطنين الصهاينة والفلسطينيين. وكل من هذه الأبعاد له حديثه المفصل.

أثر روح الانتفاض فى فرض تحرك على الإدارة الأمريكية خلال الشهر

الحادى عشر كان ملموسًا. ومنها تحركها المعادى فى مجلس الأمن الذى هو إحدى ثمـرتين للطلب الفلسطينى الإسلامـى لعقد المجلس والثـمرة الأخرى هى تعبئة إعلامية. وحسنًا فعل المندوب الفلسطينى حين سحب مشروع القـرار، وأوقف التحرك؛ لأن مجلـس الأمن اليوم أسير الفـيتو الأمـريكى. ومن أثر روح الانتـفاض عـلى واشنطن تصـاعد أصـوات أمريكية تنتـقد إدارة بوش وسياستها تجـاه الصراع. ولابد أن يظهر الأثر فى مراجعة واشنطن سياستها.

مجمل القول: إن انتفاضة الأقصى تشق طريقها نحو التحرير. والمهم اليوم هو إحسـان إدارة الصراع فلسطينيًا وعربيًا لأن الانتـفاضة أوصلت إلى فـتح ملف التسـوية من جديد. والحـذر الحذر من أن يكون نفـسنا قـصيـراً فى إدارة الصـراع، ولنتـمسـك بشعـار المقـاومة حـتى إنهـاء الاحتـلال" . فالمطلوب بإلحاح هو إنـهاء الاحتـلال الإسرائيلى، وليس إيقـاف العنف الفلسطينى كـما يردد الرئيس الأمـريكى بوش رمز قـوى الهيمنة الطاغوتية.

وبعـــــد..

فها هى إحدى ثمار روح الانتفـاض تتناقل خبرها وكالات الأنباء عند الوصول إلى نهاية حـديث هذه الوقفة. "صدور قـرار المنظمات الأهلية المجتـمعـة فى ديربن بجنوب أفريـقيا على هـامش مؤتمر الأمم المتـحدة الخـاص بمقاومـة العنصـرية يوم ٩/٢ بأن الصهـيونـية عنصـرية وبإدانة الممارسات الإسرائيلية العنصرية، وقد اتخذته أكثر من ثلاثة آلاف منظمة أهلية من مخـتلف أنحاء العالم" . وها هى الولايات المتحـدة الأمريكية وتابعتها إسرائيل تنسحـبان من المؤتمرين الاثنين ٩/٣ معزولتين. وإن لنا أن نعمل لقـطف ثمار روح الانتفـاض الأخرى فى الشهـر الثانى عـشر



الفصل الثانى

قدس..
واستشهاد..ونهوض

ظاهرة الاستشهاد فى الواقع الفلسطينى المعاصر

تبرز ظاهرة الاستشهاد فى الواقع الفلسطينى المعاصر واضحة جلية، من بين ظواهر أخرى فى انتفاضة الأقصى التى هى عند الشروع فى كتابة هذا الحديث فى منتصف شهرها العاشر. وتحظى هذه الظاهرة بعناية خاصة على مختلف صعد الصراع العربى الصهيونى الممتد، الذى دخل بانتصار المقاومة فى لبنان وبانتفاضة الأقصى مرحلة جديدة عام ٢٠٠٠م، وذلك بما لها من تأثير قوى فعال على مسار الصراع، وبما تثيره من مشاعر، وتطرحه من أفكار.

فى تناولى هذا الموضوع سوف أقوم أولاً بالتعرف على الظاهرة، ثم أبحث عن عواملها فى الواقع الفلسطينى المعاصر، ثم أتبين تأثير فعلها المتعاظم، وأختم بالنظر فى مستقبلها. وأمهد لذلك كله بوقفة أمام عنوان الحديث لتحديد المصطلحين الواردين فيه.

الواقع الفلسطينى المعاصر

حين ننظر فى "الواقع الفلسطينى المعاصر" نرى قطراً عربيًا رازحًا تحت نير استعمار استيطانى صهيونى عنصرى، فيه فلسطينيون تسلّط عليهم الكيان الإسرائيلى منذ عام ١٩٤٨ حين أقامته قوى الاستعمار الغربى، يمارس عُنصريته ويجبرهم على حمل جنسية

إسـرائيليـة. وفيـه فلسطينيـون تسلط عليـهم الاحـتلال منذ حـرب حزيران/ يونيو عـام ١٩٦٧، حين احتل الضفة الغـربية وقطاع غزة. ونرى أيضًا فلسطينيين خارج وطنهم لاجـئين يحول العدو الإسرائيلى بينهم وبين العـودة إلى الوطن، ونصب أعـينهم التـحرير والعـودة. ويحيـط بهذا "الواقع الفلسطينى المعـاصر" "واقع عـربى معـاصر" يتربص به الكيـان الإسرائيلى، ويعمل، بدعـم من قوى الاستعـمار الغربى الذى أوجـدته، على التحكم فى مـقدراته، والاستـمرار فى احتـلال هضبـة الجولان السـورية العربيـة التى احتلهـا عام ١٩٦٧، وفرض نظام الشرق الأوسط عليه نظامًا إقليمـيًا تكون له القيادة فيه. وقد شهد هذا "الواقع العربى المعاصـر" انتصار المقاومة اللبنانية على العـدو الإسرائيلـى ونجاحـهـا فى تحرير جنوب لبـنان من الاحتـلال الإسرائيلى الذى اسـتمر منذ عام ١٩٧٨، فكان تتويـج هذا الانتصار "بيوم المقاومة والتحرير" فى ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٠م.

إن أبرز مـا فى هذا الواقع الفلسطينى المـعاصـر هو انتـفاضـة الأقـصى التى بدأت يوم ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠م، لـتكون حلقـة أخـرى مضيئة فى سلسلة حلقات جهاد الشعب العربى الفلسطينى ضد الغزوة الاستـعمارية الصـهيونـية لوطنه فلسطين. وفى هذا الواقع أيضًـا ما يمارسه الصهاينة حكـومة "إسرائيلية" وجيشًا واحتلالاً ومـستعمرين مستوطنين - من جرائم يومـية على أصحاب الوطن المحتل. وإن لنا أن نستـحضر الصور الـتى نقلتها وسائـل الإعلام وما اقتـرن بها من أخبار وصور حية.

جـذور هذا الواقع ممتـدة فى أعـماق أرض فـلسطين، وتاريخ الصراع العربى الصهيونى. وضرورى من أجل فهم ظاهرة الاستشهاد فى الواقع الفلسطينى تتبـع هذه الجذور، واستحضـار تاريخ الصراع، ونكتفى بإشارات. فقـد بدأ الصراع حين باشرت الحركة الصـهيونية، بدعم من قـوى الاستـعمـار الغـربى، تهجـيـر اليهـود من أوطانهم وتوظيفهم فى استعمار استيطانى صهيونى لفلسطين، وتصدّى الشعب العربى الفلسطينى ليقاوم هذا التحالف الصهيونى الاستعمارى، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى. واستمر هذا الصراع على مدى القرن العشرين الميـلادى، ومرّ بمراحل انتقلت الغزوة الصهيونيـة فيها من التسلل، إبان الحكم العثمانى، إلى التغلـغل بعد فرض الاستعمار البـريطانى على فلسطين منذ آخـر عـام ١٩١٧، إلى الغزو بعـد أن فرضت قوى الهـيمنة الغربية بـعامة، وعلى رأسها الولايـات المتحدة الأمريكيـة - إقامة "إسـرائيل" عام ١٩٤٨، ودعـتها لتكون قـاعدة استـعمـارية استيـطانية لها فى قـلب الوطن العربى ودائرة الحـضارة الإسلامية. ودخلت الغزوة الصهيونية مرحلة التوسع بحرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وعلى مدى قرن بطوله استمرت مقاومة الشعب العربى الفلسطينى لهذا التحالف الاستعمارى الصهيونى.

كـان "الجامع المشـترك" فى سلـوك التحـالف الاستـعمـارى الصهيونى طوال غزوته العنصـرية هو "العدوانية" والظلم والعسف. وقد قامت بريطانيـا بدور كبير فـيه بين عامى ١٩١٧ و ١٩٤٨ وإلى

جانبها كانت عصابات الإرهاب الصهيونية "الهاجاناه وأرغون وشتيرن" . وتولت هذه العصابات الإرهابية التى كونت حكومة الكيان الإسرائيلى بعد إقامته هذا الدور وإلى جانبها كانت الولايات المتحدة توفر الحماية الدولية للإرهاب الصهيونى، وتدعمه فى عدوانيته وظلمه وعسفه. واستقرت فى ذاكرة شعب فلسطين العربى جرائم الاستعمار البريطانى، والإرهاب الصهيونى، والإرهاب الرسمى للحكومات المتعاقبة، التى بلغت فى فظاعتها وبشاعتها وقسوتها حدًا غير مسبوق.

بالمقابل كان "المحرك الرئيسى" لمقاومة الشعب العربى الفلسطينى ولأبناء الأمة العربية المقاومين معه فى مواجهة العدو الاستعمارى الصهيونى هو "الجهاد فى سبيل الله" ذودًا عن الوطن والأرض والعرض، ودفعًا للظلم، وردًا على العدوان. وقد برز فيه أبطال استشهد منهم كثيرون. وتطورت أساليب المقاومة فى هذا الجهاد المتصل تبعًا للظروف المحيطة بالصراع. ولافت أن الاسم الذى كان يطلق على المقاومين عبَّر عن هذا التطور. فهم قبل ١٩٤٨ "المجاهدون" وفيهم "الفدائى" الذى وصفه الشاعر إبراهيم طوقان فى قصيدته "عبس الخطب فابتسم/ وطغى الهول فاقتحم......". وهم بين ١٩٤٨ و ١٩٨٧ "الفدائيون. وقد برز من بينهم منذ الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ "الاستشهاديون"، الذين أسهموا فى صنع ظاهرة الاستشهاد فى انتفاضة الأقصى الراهنة.

ظاهرة الاستشهاد

"ظاهرة "الاستشهاد" تعنى أن "الاستشهاد" تكرر حتى أصبح "ظاهرة". و"الاستشهاد" هو "فعل" يقع فى دائرة "الجهاد فى سبيل غاية". والجهاد عند "المؤمن بالله" يكون "فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا". وتعبير "فى سبيل الله" يتضمن الذود عن الوطن والعرض والمال، والعمل لانتصار القيم العلا، التى نزل بها الوحى الإلهى. ويتميز "الاستشهاد" عن أفعال أخرى تقع فى دائرة "الجهاد"، بأن "الاستشهادى" القائم به يكون قد وضع نصب عينيه "الشهادة فى سبيل الله"، فهو "طالب الشهادة"، وقد عزم على أن يقاتل العدو إلى أن يُقتل هو ويقضى نحبه فيكون "شهيداً". ووارد، من ثم، أن يلتحم هو نفسه بسلاحه وأدواته التى يستخدمها لضرب العدو، فيغدو جزءاً منها. وهذا هو حال الاستشهادى الذى يفجر سيارة مفخخة. فالسيارة من أدواته والمتفجرات من سلاحه. وهو أيضًا حال الاستشهادى الذى يجعل الحزام الناسف نطاقًا له وسلاحًا، ويفجره بنفسه. وهو سليل ذلك المجاهد الاستشهادى الذى كان ينزل بسلاحه إلى الوغى فيقاتل بلا هوادة إلى أن يُقتل ويقضى نحبه شهيداً.

حين نتأمل فى العناصر المكونة للاستشهاد، نجد "إنسانًا" هو الاستشهادى، يؤمن بعقيدة تُعلى من شأن "الشهادة"، يعيش فى وسط اجتماعى يُكرِّم الشهداء وذويهم.

أذكر أننى وقفت أمام العنصرين الأولين حين وقعت عملية

"شــهداء قــبيــة" يوم ٢٥/ ١١/ ١٩٨٧ الموافق ٣/ ٤/ ١٤٠٨، التى فتحت الطريق أمام انتفاضة عــام ١٩٨٧ مع عمليتين أخريين. فرأيت بطلها الشاب "أبا رامى" عمره اثنان وعــشرون عامًا، وهو واحد من أربعة فــدائيين اقتحــموا "قاعدة جــيبور العسكرية" قــرب مستعــمرة كريات شمونة شمال فلسطين بطائرة شراعية ذات محرك، وقد اقتحم هذا الفدائى "الطيار" قاعدة مكتظة بالجنود، ورمى بذخيرته أولاً، ثم بنفــسه، فقــتل وجرح عــشرات من جنود العــدو قبل أن يســتشــهد "ويشهــد الجنة وتشهد له روحه عنــد خالقه". وتأملت فى العقــيدة التى آمن بهــا هذا البطل، فــوجــدت أن "الشهــيــد" عند المؤمنين، مسلمين ومسيحين، هو الذى يشهد عند انتقاله إلى ربه ما أعدّ له من نعيم، وتشهد روحه عند ربه بما قدمه فى سبيل الله، وهو "حى عند ربه مــرزوق". وتداعت إلى خاطرى وأنا أنــظر فى "استــشهــاد أبى رامى" الطيار الشاب قصة الشهيد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه الذى لقب بعد استشهاده فى "غزوة مــؤتة" "بالطيار" وأوجزتُها كما روتها كتب السيرة النبوية. "فقد تولى جعفر القيادة بعد استشهاد زيد ابن حارثة، وكان يحــمل اللواء بيمينه، فحين قُطعت حــمله بشماله فقُطعت فــاحتضن اللواء بعضــديه، فتكاثروا عليه، وضربه بعــضهم حتى انشطر جسمه نصفين".

وقال عبد الله بن عمر: "التــمسنا جعفر بن أبى طالب فى القتلى فوجدناه، ووجدنا فى جــسده بضعًا وتسعين ضــربة ورمية ليس منها شىء فى ظهره". وكان جعفر يومئــذ فى الثالثة والثلاثين من عمره. وقد أخــبر رســول الله (صلى الله عليــه وسلم) قومــه بأن الله أبدل

جعفـراً من يديه اللتين قطعتا جناحـين يطير بهما فى الجنة، فاشـتهر باسمْ جعفر الطيار. وكان جعفر حين اقتحم الوغى حاملاً اللواء يردد "يا حبـذا الجنة واقترابهـا/ طيبة وبارداً شـرابها". وتفصـيل حديث وقفتى تلك فى كتابى "الانتفاضة والصحوة العربية" (صفحة ٤٣).

العنصـر الثالث الذى هو الوسط الاجـتمـاعى المكرِّم للشـهداء وذويهم، تتحـدث عنه وكالات الأنباء عند كل عـملية استشـهادية. ونسوق هنا مثلين صادفانى وأنا أكتب هذا الحديث.

المثل الأول جـاء بمناسـبة اسـتـشـهاد نافـذ النذر فى عـمليـة استشهادية فى الأسبوع الثانى من شهر تموز/ يوليو ٢٠٠١ قرب نقطة تفتـيش تابعة للجيـش الإسرائيلى. فقـد نقل محرر جـريدة القدس العربى يوم ٧/١٠ من مخيم جباليا للاجئين، أن عشرات من جيرانه الذين تجمعـوا خارج منزله إثر استشهاده قـالوا "إنه بطل" وقال أحد أقاربه "كل من ينتـقم لأبناء شعبه بطل جليل". كـما أوضح أقارب النذر وأصدقاؤه أنه كان يحلم منذ زمن بالاستـشهاد من أجل القضية الفلسطينية. أما هو - رحمه الله - فقد قال فى شريط مصور مسجل قبل العمـلية "إنه يهدى العمليـة لأسر الشهداء ولأسر المعـتقلين فى سجـون الصهاينة، وأنه يريد الثأر لاسـتشهاد فـلسطينيين على أيدى الإسرائيليـين، ومن بينهم شقـيقـه الذى قتله جنود إسرائـيليون إبان الانتفاضة الأولى. وكـان نافذ النذر قد فقد إحدى عـينيه خلال تلك الاشتـباكات. وقد شـاهد المحرر "نضال المغربى" على جـدار قرب منزل نزار جملة مكتوبـة تقول : "إن شهيداً آخر صـعدت روحه إلى

بارئها وهناك المزيد منهم" كما نقلت رويتر.

المثل الثانى نقـلته رويتر من غـزة، ونشرته الأهرام يوم ٧/١٥ يتحـدث عن عروسين فى مـخيم رفح تم تدمـير منزل الزوجيـة قبل زفافهـما بيومين ضـمن ستة وعشـرين منزلاً سوّتها قـوات الاحتلال الإسرائيلى بالأرض يوم ٧/١٠. ومع ذلك مضيا قـدمًا مع أسرتيهما والأهل، فأقاما حفل زفافهما داخل خيمة كبيرة. وقال العريس سامى اليازورى "لن تمنع قـوات الاحتلال الإسرائيـلية ودباباتها وجرافـاتها احتفـالاتنا أبدًا، ولن نتخلى أبدًا عن حقنا فى الحـياة" . وأضاف أن تدمير منزله "ليس الهـدية الوحيـدة السيـئة التى تقـدمها إسـرائيل لعائلته، فـقد قتلت القوات الإسرائيلية شـقيقه باسل وشقيـقه أحمد أثناء الانتفاضة الأولى" .

هذان مثلان من بين آلاف الأمثلة المشابهة التى تعطى فكرة عن الوسط الاجـتمـاعى المحيط بظاهرة الاسـتشـهاد. فـفى المثل الأول نلاحظ إعلاء الناس شأن الاستـشهاد، واعتبارهم الاسـتشهادى بطلاً صعدت روحه بعد استشهاده إلى بارئها.

وقد تكررت أمثلة أخرى زغـردت فيها الأم إثر علمها باسـتشهاد ولدها إيمانًا بالله، واحـتسابًا وعزمًـا على متابعة الجـهاد. وفى المثل الثانى نجد الإصرار على ممارسة حق الحـياة، والاحتفال بالزواج الذى يثمر ذرية تنشـأ فى مناخ الاستشهـاد، تعبيراً عن العزم على مـتابعة التصدى للعدو المحتل فى صراع النفس الطويل.

يحــرص إعلام العــدو الصهـيونى ومـعه إعــلام دول الهيــمنة الطاغوتية على أن يُسمى الاستشــهادى باسم "الانتحارى" ، والعملية الاستشهادية "عملية انتحارية" .

وقد كــان هذا دأبه فى الانتفاضة الأولى . ويومـــها كتبت "أشــعر بالأسف حين تردد بعض وســائلنا الإعلامية هذا الاسم الغــربى لهذه العمليــات منساقة وراء الإعــلام الغربى المســيطر عليها . فــحاشى أن يكون ما قدم عليــه أبطالنا انتحاراً؛ لأنه "إحيــاء" . وما أعظم الفرق بين الانتحار والاستشهاد . فالأول تعبير عن اليأس، والآخر تعبير عن الإيمان، وما يقــترن بالإيمان من أمل واطمئنان وثقة، ومــا يعبر عنه الإيمان من تعلق بالحق والعدل والسلام" .

ولافت أن أحدًا من المجتــمع المحيط بالاستشــهادى لا تخطر على باله شبهة وجود قصد الانتحار عند البطل الاستشهادى . ولافت أيضًا أن هناك مــا يشبــه الإجمــاع بين علمــاء الأمة على رفض مــصطلح الانتحــار، وتأكيد مصطلح الاســتشهاد مع التــدليل على ذلك . وقد رأينا مؤخراً مــا حدث حين لم يأخذ الشيخ عبــد العزيز آل الشيخ - مفتى الســعودية - فى الاعتبار ذلك الإجــماع الذى كان متحــققًا من قبل فى تاريخنا بعــامة، وأثناء الانتفــاضة الأولى بخاصــة، وقال فى حوار له مع صحــيفة الشرق الأوسط : "لا أعلم لهذه الطريقــة وجهًا شرعيًا، ولا أنها من الجهاد فى سبيل الله، وأخشى أن تكون من قتل النفس" ، فإذا بكثير من علماء الأمة يردون من مختلف أنحاء الوطن الكبير . "فــهذه العمليات من أعظم الجهاد فى ســبيل الله عز وجل،

وهى عمل مشروع بل واجب إسلامى" . وتفصيل هذه الرذود نشرتها مجلة فلسطين المسلمة (٥/١ ٢٠٠) وقالت فى ختام تحقيقها "فى ضوء ذلك كله يمكن القول إن اللغط حول مشروعية هذه العمليات البطولية الاستشهادية لا يملك أدنى قدر من الوجاهة، بيد أن منزلة الشيخ الجليل عبد العزيز آل الشيخ تستدعى أن يزوره نفر من أهل العلم ليناقشوه فى المسألة ونحن على ثقة بأنه سيغير رأيه عندما يتبين له الحق" .

فى التعرف على الظاهرة

فى تعرفنا على ظاهر الاستشهاد فى الواقع الفلسطينى المعاصر، نستذكر أن الاجتماع الإنسانى عرف هذه الظاهرة منذ فجر التاريخ، كلما اشتدت صولة الباطل، وساد الظلم وطغى الحاكم. كما نستذكر استشهاديى المسيحية فى عهد الرومان، والاستشهاديين المسلمين. وقد أعلى المسلمون من شأن استشهادييهم من أصحاب رسول الله (ﷺ)، وبقى حديث النبى (ﷺ) عن ذلك الغلام المؤمن الاستشهادى موحيًا. فالغلام أوضح للملك أن السهم الذى أراد قتله به لن يصيبه إلا إذا قال "باسم الله رب الغلام" ففعل الملك وآمن الناس برب الغلام، الذى كان استشهاديًا، وقضى نحبه فى سبيل نشر دعوة الحق، والحديث بنصه فى رياض الصالحين للنووى.

لا تزال العمليات الاستشهادية تتوالى منذ حدوث انتفاضة الأقصى يوم ٢٨/٩/ ٢٠٠٠، ونذكر منها تلك التى وقعت يوم

٢٦/ ١٠ وكان الاستشهادى من حركة الجهاد الإسلامى اقترب بدراجته من موقع عسكرى يهودى فى قطاع غزة فأصاب جنديًا إسرائيليًا بجروح. وتلك العملية التى وقعت يوم ٢٢/ ١١ فى محطة الخُضيرة التى تقع على بعد ٤٥ كم شمال تل أبيب قرب حافلة إسرائيلية فقتلت إسرائيلية، وجرحت خمسة وأربعين آخرين، وأعلنت كتائب القسام مسئوليتها عنها.

وتلك التى وقعت يوم ٣/ ٣/ ٢٠٠١ حين فجّر استشهادى نفسه قرب السوق فى "نتانيا" فقتل ثلاثة إسرائيليين، وجرح أربعة وستين آخرين. وتلك العملية التى وقعت يوم ٢٧/ ٣/ ٢٠٠١ حين فجر استشهادى نفسه قرب حافلة فى التلة الفرنسية فقتل وأصاب واحدًا وثلاثين إسرائيليًا. وتلك التى وقعت يوم ٢٨/ ٣/ ٢٠٠١ حين فجر استشهادى نفسه قرب محطة وقود وموقف قريبًا من قلقيلية فقتل وأصاب تسعة إسرائيليين. وتلك التى فجر فيها استشهادى نفسه يوم ٢٢/ ٤/ ٢٠٠١ فى موقف للباصات أثناء توقف إحدى الحافلات فى منطقة كفر سابا إلى الشرق من تل أبيب فقتل وأصاب ما يزيد على ثلاثين إسرائيليًا، (فلسطين المسلمة ٥/ ٢٠٠١). وعمليات أخرى تلت آخرها عند كتابة هذه السطور يوم ١٦/ ٧/ ٢٠٠١ حين فجّر استشهادى نفسه قرب محطة للقطارات شمال تل أبيب فقتل وأصاب ستة إسرائيليين. وهذه المعلومات هى التى أذاعها العدو.

لقد وفرت تقارير المسؤولين عن هذه العمليات الاستشهادية من المعلومات ما يمكننا من استكمال تعرفنا على ظاهرة الاستشهاد. ففى

عملية كفر سابا آنفة الذكر استهدف الاستشهادى عماد كامل الزبيدى الشرطة الإسرائيلية الصهيونية، وقتل سبعة وعشرين إسرائيليًا، وجرح عشرات. وحين خرج الاستشهادى جمال عبد الغنى ناصر (أبو خالد) ليقود السيارة المفخخة التى أعدها تلاميذ "المهندس" نحو مستعمرة "شافى شمرون" الاستيطانية المقامة على الأرض المغتصبة من إحدى قرى نابلس، "كان متوضئًا، مغتسلاً، متعطرًا.

وقد كتب قائمة مرتبة بمن يشفع لهم إن شاء الله يوم القيامة واستهدف حافلة عسكرية تقل جنودًا ففجرها بسيارته، وقتل وجرح نحو خمسين. وجاء فى وصيته دعوة لإخوانه طلاب جامعة النجاح "التفوا حول خيار المقاومة، ولتعلُ راية الجهاد" ووصف نفسه "بالشهيد الحى". أما الاستشهادى محمود أحمد مرمش (أبو القاسم) من طولكرم فقد أدى صلاة الفجر فى المسجد، ثم اشترى كيسًا من الحلوى لأمه، ثم انطلق إلى "أم خالد" التى اغتصبها الصهاينة عام ١٩٤٨ وشردوا أهلها وأطلقوا عليها اسم "ناتانيا"، فقام بعمليته الاستشهادية صباح يوم الجمعة ١٨/٥/٢٠٠٢، وذلك بعد أن سجّل على شريط فيديو حديثه الأخير "سأجعل من جسدى قنبلة أفجر بها أجساد الصهاينة... انتقامًا لكل قطرة دم سالت على تراب بيت المقدس مسرى نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وانتقامًا لأبناء فلسطين ونسائها وشيوخها وأطفالها... انتقامًا لإيمان حجو التى هزت قلبى وكيانى ووجدانى، (وهى ابنة الشهور الأربعة التى قتلها فى مهدها قصف صهيونى لخان يونس فى قطاع غزة)،

وبعـد أن تلا آيات من القـرآن الكريم قال "إن الجـهـاد هو السبـيل الوحيد لإنهـاء الاضطهاد الذى يمارسه الصهاينة ضـد أبناء شعبنا". قصدنا أن نعرض هذه التفاصيل عن "تهيـؤ" الاستشهادى قبل القيام بعمليـته وعن "وصيـته" بخاصـة لنتعمق فـهم ظاهرة الاستشـهاد. وواضح ما يـكشف عنه "التهـيؤ" من إيمان بـالله سبحـانه وبالدار الآخرة، وما تعبر عنه "الوصية" من إدراك لطبيعة الصراع ضد العدو الصهيونى، وعـزم على معاقبته على جرائمـه بحق جميع أبناء شعب فلسطين.

وقد خـرج الاستشهـادى عرفات طلال أبو كريك فى ذكـرى نكبة فلسطين يوم ١٥/ ٥/ ٢٠٠١ بعد أن كـتب وصيته التى قال فـيها "إن الحياة بجوار رب العزة لهى أفضل حياة وخير من أى حياة. والله إنها لبئس حـياة يتحكم بهـا الطغاة والمسـتكبرون. والله إنها لشـهادة لا تنتهى فى سـاعة ولا تنتهى فى ليلة......." وخـاض البطل بمفرده معـركة مـع موقع عـسكرى إسرائيلى قـريب من خان يونس حـيث المستـعمرة الاستيـطانية كفار داروم، فـرمى ثلاث قنابل يدوية وقاتل حتى قتل. وكان يوم استشهاده فى الحادية والعشرين من عمره.

نختم هذا الجزء من حديثنا الذى نتعرف من خلاله على ظاهرة الاستـشهاد بتقـديم صورة من قريب لاسـتشهادى بطل، اخـتار يوم الجمعة الأخيـرة من رمضان لينفذ عمليته الاستشـهادية فى "ميمون" القريبة من بيسان. وكان العدو قد اغتال القائد القسّامى إبراهيم عودة فقرر هاشم النجار أن يرد. وقد ردّ وأوجع العدو قبل أن يقضى نحبه

شـهيـداً وهو فى الثالثـة والعـشرين. وذلك بعـد أن قدم امـتحـانه للحـصول على الإجـازة من الجامعـة. كانت أمـه بانتظار تخـرجه، ويقول أحد مـدرسيه إنه راجع ورقة امـتحانه فوجـد أنه حصل على درجة شرف بامـتياز قبل يومـين من استشهاده. وكـان هاشم قد ولد عام ١٩٧٨ لعائلـة مهاجرة من بلدة الفالوجـة عام ١٩٤٨، فى بيت متدين متـواضع فى منطقة الهرية بالخليل. وصبيًا تـفتح على المقاومة فى الانتفاضة الأولى.

وفى عام ١٩٩٦ اعـتقله العدو لمدة عـام كامل فتنقل بين سـجون شطة والجلمـة وبتاح تكفا ومـجدو. درس الصحـافة، ويقـول أحد مدرسيه إنه وجـد بين أوراقه تصميمًا لصفـحة أولى لجريدة للتدريب على فن الإخراج الصـحفى كان العنوان الرئيـسى فيها يتـحدث عن عمـلية اسـتشـهادية ضـد القوات الإسـرائيلية قـام بها طالب بقـسم الصحافة بجامعة النجاح إسهامًا فى انتفاضة الأقصى.

تُبين لنا هذه الصورة من قريب التى قدمتها "فلسطين المسلمة" (٦/ ٢٠٠١) جذور المقاومة عـند الاستشهادى، فأسرته خـبرت نكبة ١٩٤٨ . وتكشف عن مـعـاناته وشـعبـه وجـيله الفـتى من فظاعـة الاحتلال الصـهيونى، وعن عزمهم على مقـاومة العدو، التى تجلت فى الانتفـاضة الأولى. وتشيـر إلى العنت الذى أصابه بعد اتفـاقات أوسلو منذ عـام ١٩٩٣، وإلى سعـيه للـتحـصيل العلمى والارتقـاء بذاته، وأخيراً إلى عزمه على الاستشهاد؛ لأن الاستشهاد سبيل تحرير الوطن على الأرض فـى هذه الحـيـاة الدنيـا، ولأنه طـريق الجنة فى الآخرة واختياره ليلة القدر.

متوقع ومـفهوم أن تشغل ظاهرة الاسـتشهاد أوسـاط التحالف الاستعـمارى الصهيونى، فتـعكف على دراستها بغية التـصدى لها. وقد نشرت صحيفة يديعوت فى ٢٠/٥/٢٠٠١ عصارة أحد التقارير الذى عنى بتصنيف الاسـتشهاديين وكـما يقول التقـرير إن المنظمات الفلسطينية أرسلت منذ توقيع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ اثنين وسبعين استشهاديًا ضد أهداف إسرائيل منهم اثنا عشر منذ انتفاضة الأقصى. ويبين التـقرير بمعرفة مـواطنهم والحالة الاجتـماعية لكل منهم وفـئة العمر، وما حصَّلوه من تعليم.

وقد تبين أنه بالنسبة للموطن فإن ٦٨٪ من قطاع غزة و ٣١ ٪ من الضفة الغربية و١٪ من القدس الشرقية. وبـالنسبة للحالة الاجتماعية فإن ١٧٪ متزوجون و٨٣٪ غـير متزوجين. وبالنسبة لفـئة العمر فإن ٦٤٪ بين ١٨ و ٢٣ سنة و٣٦٪ بين ٢٤و ٣٠ سنة. وأخـيرًا بالنسـبة للتعليم فـإن ٤٧٪ منهم ذوى التعليم الجامـعى الأكاديمى و٢٩٪ من ذوى التعليم الثانوى و٢٤٪ أنهوا التعليم الابتدائى. وذكرت الصحيفة أن هناك استشهاديين آخرين ينتظرون.

النتيجة التى نتوصل إليها مـن خلال تعرفنا على ظاهرة الاستشهاد فى الواقع الفلسطينى المعاصر هى أن عقيدة الاسـتشهاد فى سبيل الله لتحرير الوطن والدفاع عن النفس والأرض والعرض والمقدسات قوية راسخة فى أوساط شعب فلسطين العربى، وأن سلاح الاستشهاد هو من أمضى أسلحة المقـاومة، التى هى سبيل التحـرير والانتصار على التحالف الاستعمارى الصهيونى فى الصراع العربى الصهيونى الممتد.

عوامل تكون ظاهرة الاستشهاد

ماذا عن العوامل التى تفاعلت فى الواقع الفلسطينى المعاصر لتكوين الظاهرة؟

العامل الأول هو عقيدة الاستعمار الاستيطانى التى يتبناها التحالف الاستعمارى الصهيونى الذى استهدف فلسطين والوطن العربى بالغزوة الصهيونية، وممارسات طرفيه: قوى الهيمنة الاستعمارية والصهاينة العنصريين.

العقيدة الصهيونية هى اليوم فى واجهة هذا الواقع. وهى أساس التربية والتعليم فى الكيان الإسرائيلى، تتجلى فى المناهج التعليمية وفى الأساليب التربوية. ويكشف تقرير إخبارى نشرته الأهرام فى ٨/ ٧/ ٢٠٠١ أعده طارق الشيخ بعنوان "التعليم فى مدارس إسرائيل: عسكرية وشوفينية" عن أن هذا التعليم يزرع "قيمًا" تشجع العدوان، وتعتبر المدرسة فيه الوسيلة للسيطرة على عقول الأطفال بالعقيدة الصهيونية العنصرية. وهذا التعليم هو الذى يلعب دوراً رئيسيًا فى ديمومة السيطرة العسكرية على المجتمع المدنى كما تقول الباحثة الإسرائيلية ريلا مازالى. وهو يتضمن عرض لوحات للملصقات العسكرية الجذابة وتنظيم رحلات لمواقع المعارك العسكرية، واللقاء بالعسكريين الإسرائيليين، ومناهج لكل المواد تشجع على العسكرية الصهيونية، وتحفل بتحريضات تلمودية على قتل "الأغيار" وبإباحة "ذبحهم"، واحتفالات "بانتصارات" اليهود

على أمم أخرى. ونتوقع من ثم أن يفوز فى الانتخابات الإسرائيلية دومًا دعاة الحرب والإرهاب، ويحكموا الكيان منذ بن جوريون إلى شارون. ويختم التقرير بأنه ما لم يتغير نظام التعليم الصهيونى هذا "لن يتوافر عدد كاف من الإسرائيليين يكون قادراً على قبول أغصان الزيتون".

عقيدة قوى الهيمنة الغربية التى أوجدت ظاهرة "الاستعمار الغربى" فى العالم لا تزال هى الأخرى فى واجهة هذا الواقع. وتتبناها اليوم قيادة الولايات المتحدة الأمريكية استمراراً لتبنى بريطانيا لها من قبل.

وهى عقيدة تنضح بالعنصرية هى الأخرى، وتحث على توظيف العقيدة الصهيونية والصهاينة للإبقاء على الكيان الإسرائيلى الذى أوجدته بريطانيا وتدعمه كى يقوم بدوره فى تنفيذ استراتيجيتها الاستعمارية فى وطننا العربى ودائرتنا الحضارية الإسلامية.

يواجه الشعب العربى الفلسطينى والأمة جمعاء الممارسات الصهيونية الاستعمارية التى تحركها هاتان العقيدتان. ويكفى فى هذا المجال استذكارها على مدى قرن بطوله فى فلسطين والأقطار العربية، واستحضار ما نعيشه يوميًا فى نطاق الصراع العربى الصهيونى.

وقد أوصلت هذه الممارسات الشعب العربى الفلسطينى والأمة العربية إلى اقتناع راسخ بأنهم يواجهون فى هذا الصراع العربى

الصهيونى الممتد الصهيونية العنصرية ممثلة فى الكيان الإسرائيلى والاستعمار الغربى ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية. ويسود هذا الاقتناع الراسخ فى أوساط الاستشهاديين عربًا وفلسطينيين. ويتعزز ويترسخ بفعل ما ينشر من وثائق وحقائق عن هذه الممارسات من أمثلة الأخيرة ما تضمنه كتاب المؤرخ الإسرائيلى "بنى موريس" "تصحيح خطأ" الذى ترجمه هارون محاميد وفواز جرار وعرضته جريدة الأهرام فى حلقات منذ ١٦/٧/٢٠٠١. وهو يثمر اعتماد سلاح الاستشهاد فى المقاومة وتطويره.

العامل الثانى هو ما يفعله الشعب العربى الفلسطينى بفعل هذه الممارسات فى ظل الاغتصاب والاحتلال الإسرائيلى المدعوم أمريكيًا، على مختلف الصعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية. وقد بلغت هذه المعاناة حدًا غير مسبق فى تاريخ الاستعمار الاستيطانى الغربى على بشاعة جرائمه. وتكشف الإحصاءات التى نشرها الجهاز المركزى للإحصاء الفلسطينى عن أكثر من مليونى فلسطينى فى الضفة والقطاع يعيشون تحت خط الفقر، وأن ١٤,١٪ من الأسر ليس لها مصدر دخل.

وأن ٥٧,٩٪ من الأسر الفلسطينية تواجه صعوبة فى الحصول على الخدمات الصحية. وقد تضمنت دراسة لجيورشوم باسكين نشرها على شبكة المعلومات، وعرضناها فى مقال بعنوان "الانتفاضة وفضح مسلكية العدو" نشر بالأهرام يوم ١٣/٧، تفاصيل عن "تدهور الوضعية الاقتصادية فى الأراضى الفلسطينية"، وعن "إزعاج

الفلسطينيين على نقاط التفتيش" ، وهو تعبير مخفف عن صور بشعة للتعذيب النفسى، وعن "الحصار الإسرائيلى للفلسطينيين" ، وعن "إجراءات معقدة لأخذ الأوذونات والرخص" وهو تعبير مخفف عن بشاعة الإجراءات الإسرائيلية التى تستهدف ابتزاز أموال الناس وإزعاجهم. ولافت أن الإرهاب الإسرائيلى الرسمى الذى مارسته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ إقامة الكيان الإسرائيلى عام ١٩٤٨ اعتمد من وسائله القيام بمذابح للفلسطينيين بلغت عشرات، ورسخت فى ذاكرة الشعب. ولافت أيضًا أن هذا الإرهاب الرسمى اقترن فى الواقع الإسرائيلى القائم بإرهاب قطعان المستعمرين المستوطنين الإسرائيليين الذين يقتلون ويحرقون الزرع ويعتدون بحماية جيش الاحتلال.

وهاهى وكالات الأنباء تنقل عند كتابة هذه السطور خبر قيام نفر منهم بقتل أفراد أسرة فلسطينية كانت تستقل سيارة عائدة من حفل عرس يوم ١٩/ ٧.

يتعمق فهمنا فى ضوء هذه المعاناة لما كتبه الاستشهادى عرفات طلال أبو كريك فى وصيته التى أوردناها، وفيها "لبئس حياة يتحكم فيها الطغاة والمتكبرون" وما سجله الاستشهادى محمود مرمش فى وصيته التى أوردناها، وتحدث فيها عن تفجير أجساد الصهاينة انتقامًا لأبناء فلسطين ونسائها وشيوخها وأطفالها وللطفلة إيمان ابنة الشهور الأربعة.

العامل الثالث هو ترسخ الاقتناع فى أوساط غالبية شعب فلسطين العربى بأن المقاومة بمعناها الواسع وبكل أبعادها هى السبيل الوحيد لإنهاء الاحتلال الإسرائيلى، وتحرير الأراضى المحتلة العربية، واستعادة القدس.

كان هذا الاقتناع موجوداً لدى قطاع واسع من الشعب، عبر مراحل النضال الفلسطينى المتتالية. وعبّر عن نفسه بقوة فى مرات كثيرة كان أبرزها الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧. ثم جاء زلزال الخليج، وأعقبه مؤتمر مدريد فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩١ الذى فتح الباب أمام محاولات تسوية صممتها الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعرض الشعب والأمة لحملة إعلام ترويج قوية جذبت البعض إليها، فمال إلى تصديق وعودها.

وجاءت أوسلو فى ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ مقترنة بتكثيف حملة إعلام الترويج، وترديد وعود الرخاء و"المثلث الذهبى" و"سنغافورة الأخرى" و"عوائد السلام من خلال نظام الشرق الأوسط". وانساق البعض إلى الانخراط فى التسوية مصدقًا هذه الوعود، وكان هناك بعض آخر لم يصدقها، ولكنه مال إلى إتاحة فرصة أمام أولئك الذين صدقوها.

وبقى فى الشعب قطاع مقتنع بأن المقاومة هى الطريق الوحيد، وما عداها "سراب بقيعة يحسب الظمآن ماءً". ومارس هذا القطاع المقاومة تعبيراً عن اقتناعه، وكانت منها عمليات استشهادية بلغت

حتى ٢٠/٥ حسب ما نشرته "يديعوت أحرونوت" اثنين وسبعين عملية.

مع مباشرة عملية التسوية وانكشاف السلوك الإسرائيلى فيها، "فلا مواعيد مقدسة لتطبيق الاتفاقات" كما أعلن إسحق رابين بداية، و"لا تنفيذ لجل اتفاقات إعادة الانتشار"، واستمرار فى اعتقال المناضلين الأبطال الأسرى الفلسطينيين، وأقصى درجات الاستغلال الاقتصادى، حدث تحول غالبية الشعب إلى الاقتناع من جديد بأن المقاومة هى السبيل الوحيد.

وجرى التعبير عن هذا التحول على صعيد السلطة نفسها فى وقفتها مع الشعب يوم هبة الأقصى فى ١٩٩٦/٩/٢٦ فى مواجهة جنود الاحتلال. وبلغ التحول مداه فى ربيع عام ٢٠٠٠ حين أثمرت المقاومة اللبنانية، وحقق حزب الله الانتصار، وفرض لبنان على جيش الاحتلال الإسرائيلى الانسحاب من جنوبه يوم ٢٠٠٠/٥/٢٣ بلا قيد ولا شرط.

كانت المقاومة اللبنانية على مدى العقد الأخير من السنين بخاصة قد أثبتت عمليًا أن الكفاح المسلح هو سبيل التحرير. وبرز فيها بقوة الاستشهادى البطل. وهكذا تعزز أنموذجه فى أوساط الشعب العربى الفلسطينى الذى ما فتئ أبناؤه يرددون قول شاعرهم الشهيد عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحى على راحتى   وألقى بها فى مهاوى الردى

فإما حياة تسر الصديق   وإما ممات يغيظ العدا

وغدت غالبيته تؤيد مقولة الفصائل التى رفعت شعار المقاومة والاستشهاد.

العامل الرابع هو بمثابة "القشة التى قسمت ظهر البعير" و"حبة الرمانة التى فجرت غضب قلوب ملآنة" والقول الأول مثل عربى قديم مشهور، والمثل الثانى شعبى منتشر. وهذا العامل الرابع هو "جماع" ما حصل إبان مفاوضات كامب دافيد الثانية، وفى أعقابها، وتداعياته، وتفاعلات الانتفاضة بعد حدوثها.

فقد علم الشعب العربى الفلسطينى، إثر فشل تلك المفاوضات، بما كان من سلوك مجرم الحرب يهودا باراك أثناءها فيما يتصل برفضه تنفيذ اتفاقات إعادة انتشار جيش الاحتلال فى منطقتى "ب و ج"، وإطلاق سراح الأسرى الأبطال، وسعيه لفرض السيادة الإسرائيلية على القدس داخل السور بخاصة بهدف اغتصاب الحرم القدسى.

كما علم الشعب العربى الفلسطينى بما كان عليه موقف الإدارة الأمريكية ورئيسها بيل كلينتون الذى جاهر بدعم الإسرائيليين، ومارس أشد الضغوطات على رئيس السلطة ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ليقبل "اتفاقًا مملى" بشأن القدس وقضايا الوضع النهائى بعامة. وبلغ غضب أبناء الشعب مداه حين عرفوا تفاصيل ما جرى، وحين أقدم "بيل كلينتون" على تحميل "ياسر عرفات" مسؤولية فشل المفاوضات.

كما أجمعوا على "تأييد" موقف "الصمود الفلسطينى" الذى تعزز بدعم عربى وإسلامى رسمى، واعتزوا بهذا الموقف. وهكذا عمَّ

الاقتناع بأن الكلمة الآن هى "للمقاومة" والتقت جميع الفصائل دون استثناء على ممارساتها، فكان أن تهيأ "المناخ" لمباشرة "انتفاضة الأقصى" ولتعزيز منطق "الاستشهاد" فى نطاقها.

لقد أحدثت الانتفاضة "تفاعلات" قوّت "ظاهرة الاستشهاد". فالعدو الإسرائيلى كثَّف ممارساته الإجرامية فى محاولة إنهائها. وكانت كل جريمة يقترفها تزيد من عزم المقاومة، وتدفع بمزيد من المجاهدين لاختيار سبيل الاستشهاد.

ولافت أن دائرة هؤلاء اتسعت لتشمل أفرادًا لم يسبق لهم أن انخرطوا فى تنظيمات. كما أن "جرائم العدو" المتتالية "حثت" على النهوض بما أسميناه "المسؤولية الفردية فى المقاومة"، وعنينا به أن يختار الفرد المقاوم، بعد النظر فيما يستطيعه، "العمل المقاوم" الذى يقوم به. ومثل على ذلك هو البطل الأسير "علاء خليل أبو علبة". وهو مثل يستحق وقفة أمامه قمنا بها فى كتابنا "انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصرى" ونوجز هنا عصارتها.

البطل هنا رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره من حى الشيخ رضوان بغزة، ليس منتميًا لأى فصيل سياسى، رب أسرة، يعمل منذ خمس سنوات سائقًا لحافلة تابعة لشركة "ايجد" الإسرائيلية، يعيش قريبًا من أسرته المتمدة مع زوجه وأطفاله. وفى صباح الأربعاء ١٤/ ٢/ ٢٠٠١ وضع الاستشهادى نصب عينيه بعد أن أوصلته جرائم العدو إلى هذا القرار. واختار العمل الذى يسهم به فى مقاومة الصهاينة والاحتلال الإسرائيلى العسكرى. فاتجه بالحافلة التى يقودها

نحو تجمع لجنود الاحتلال فدهمهم وقضى على ثلاثين جنديًا. وحين حاول مغادرة مكان العملية اصطدم بشاحنة إسرائيلية اعترضت طريقه فأصيب بجروح وتم أسره. وحين سئل أخوه عما دعا "علاء" للقيام بعمليته وهو لم يسبق أن تعرض للاعتقال، أجاب الأخ "رد فعل على كل ما يراه يوميًا من قتل لأطفال وشبان وتدمير وحرق للمنازل. . . رد فعل كأى فلسطينى يتألم لما يتعرض له شعبه يوميًا، إلا أن علاء توافرت له الفرصة كى يعبِّر عن غضبه". وقد عبَّرت زوجته عن فخرها بزوجها رغم حزنها وقالت وهى تنظر لأبنائها "كان علاء كثير التحدث خلال الأيام السابقة عن العمليات الاستشهادية وقتل اليهود الصهاينة. وقد صلى ركعتين قيام ليل قبل مغادرته".

وأكملت أمه وهى تمسح دموعها "علاء رفع رأسى شامخًا وسط نساء فلسطين ورفع هامة شعبه. وأنا أتألم لأنه فى قبضة الصهاينة أسيرًا". ولقد شاء الله لهذا الاستشهادى أن يبقى حيًا فى الأسر إلى أن تنجح المقاومة فى تحريره وجميع الأسرى بإذن الله.

هذه هى العوامل التى تفاعلت فى الواقع الفلسطينى المعاصر لتكوين ظاهرة الاستشهاد، ولا تزال تتفاعل. ولافت أن كلمة "الشهيد" هى اليوم فى جهاد شعب فلسطين على كل لسان. والناس يطلقونها على "الشهيد" "ضحية" الاحتلال وعسفه، وعلى الشهيد "المقاتل" الذى يخرج لقتال العدو ويستشهد، وعلى "الاستشهادى" الذى اختار الالتحام بسلاحه انطلاقًا من إيمانه بالله وتطلعه إلى أن

يكون حيًا عند ربه. وهذه المرتبة هى الأعلى فى نظر الناس.

وقد أوضح إبراهيم أبو الهيجا فى فلسطين المسلمة (٦/ ٢٠٠١) بعد أن أورد هذا التصنيف للشهيد أن السلاح الأمضى فى أيدى الشعب هو "الروحية الاستشهادية".

تأثير فعل الظاهرة المتعاظم

نصل فى حديثنا عن ظاهرة الاستشهاد إلى تبيُّن تأثير فعلها المتعاظم على مختلف الصعد.. كان للاستشهاد عبر مراحل التاريخ المختلفة تأثيره الفعَّال، وهذا شأنه اليوم فى نطاق انتفاضة الأقصى التى يتعاظم تأثير فعلها يومًا بعد يوم على صعد عدة.

فعلى صعيد العدو الصهيونى تكشف التقارير الصادرة عنه عن مدى معاناته من الانتفاضة، وهذا ما دعاه إلى تكثيف جرائمه لإنهائها، ولكن لسان حال المنتفضين هو "إذا كنا نألم من هذه الجرائم فإننا نؤلم العدو". "وإن يمسسنا قرح فقد مسّهم قرح أشد". "ولا رجوع لما كان عليه الحال قبل بدء الانتفاضة يوم ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠". والحق أن خسائر العدو الاقتصادية تتضمن اليوم انخفاضًا حادًا فى صناعة السياحة يصل إلى ٤٠٪ من الولايات المتحدة و٦٥٪ من دول العالم الأخرى، الأمر الذى مثّل كارثة للمنشآت الفندقية واستثماراتها، وأدى بالتالى إلى زيادة كبيرة فى نسبة البطالة وصلت إلى ٩٪. كما تتضمن ارتفاع تكاليف استنفار الجيش، واستمرار حالة الطوارئ، ولجوء العديد من شركات إعداد برامج الحاسبات إلى تصفية أعمالهم داخل الكيان الإسرائيلى، ونقلها

إلى الولايات المتحدة. أما خسائر العدو السياسية فتتجلى فى ازدياد الرفض العالمى للعدوانية الإسرائيلية وبخاصة بعد انكشاف بشاعة ما تقوم به من احتلال.

ولعل أهم خسائره كان انتشار الإحساس بعدم الأمان والاستقرار فى أوساط الإسرائيليين الصهاينة بعامة. (جلال دويدار، الأخبار ٧/١٩) وقد كان لظاهرة الاستشهاد تأثير خاص على هذا الصعيد بما حققته العمليات الاستشهادية من إصابات موجعة فى قلب الكيان، الأمر الذى يدعو كثيراً من اليهود الذين هجّرتهم الحركة الصهيونية من أوطانهم إلى فلسطين إلى مغادرة الكيان الإسرائيلى، والعودة إلى أوطانهم الأصلية، ويدعو فى الوقت نفسه كثيراً من اليهود التى تحاول الصهيونية تهجيرهم من أوطانهم إلى أن يبقوا حيث هم.

وقد ذكرت معاريف فى ٧/ ٥/ ٢٠٠١ أن أعداد المهجرين من دول الاتحاد الروسى انخفضت بحوالى ٦٠٪ ونقلت عن سالى مريدو رئيس إدارة الوكالة اليهودية أن عدد المهجرين من روسيا ودول الرابطة سوف يتقلص تدريجيًا لأسباب منها تدهور الوضع الأمنى فى الكيان الإسرائيلى، وأن كثيرين من يهود روسيا يفضلون الهجرة إلى الغرب.

لقد اعترف شاؤول موفاز - رئيس أركان الجيش الإسرائيلى - أن أجهزة الأمن الإسرائيلية فقدت القدرة على إحباط عمليات التفجير داخل إسرائيل بسبب انعدام التنسيق مع الجانب الفلسطينى، وأن فرض الحصار على الأراضى الفلسطينية لم يعد يجدى نفعًا. ويقرر بعض الإستراتيجيين أن العمليات الاستشهادية حققت نوعًا من توازن

الردع في غياب توازن القوة بين جيش الاحتلال والشعب العربي الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني.

ولافت أن العدو يتخبط في حيرة بين تنفيذ استعماره الاقتصادي للفلسطينيين المتمثل بتوظيفهم، وتسخيرهم "عمالاً" في كيانه، مما يتطلب دخولهم المناطق التي اغتصبها داخل ما يسميه "الخط الأخضر"، وفرض الحصار عليهم، ومنعهم من الدخول إلى تلك المناطق خوفًا من العمليات الاستشهادية، الأمر الذي يمس اقتصاده في الصميم. وقد أوصى "الشاباك" "حكومة شارون" التريث في السماح للفلسطينيين بالعودة للعمل داخل "الخط الأخضر" حين أعلنت المقاومة في أعقاب إحدى العمليات أنها عازمة على تنفيذ عمليات أخرى. ولافت تعليق الجنرال "شلومو أهارونشكي" مفتش الشرطة الإسرائيلية الذي قال فيه إنه بعد التحقيق في تلك العمليات تبين أن عناصر المقاومة يستغلون ما أسماه "مواطن الضعف في إسرائيل إلى جانب خبرتهم في الثغرات الموجودة في الاحتياطات الأمنية".

وهو يدل على شعور بتعذر التغلب على هذا النوع من المقاومة. والحق هو أن المقاومة الفلسطينية أدركت أن هذا الكيان الصهيوني المدجج بكل أنواع السلاح الأمريكي من البندقية إلى السلاح الكيماوي إلى السلاح النووي فيه مواطن ضعف هي "كعب أخيل" في ملحمة الإلياذة الشهيرة، وأنها قادرة من ثم على إصابته فيها، فكان أن اعتمدت عمليات الاستشهاد واحدة من وسائلها.

التأثير المتعاظم لفعل هذه العمليات يتجلى فيما نقله التلفزيون الإسرائيلى عن مصادر أمنية إسرائيلية من أن المجاهد الاستشهادى يعد إعداداً دقيقًا قبل قيامه بعمله، فيتلقى محاضرات حول كيفية التعامل مع الإسرائيليين قبل تنفيذ العملية، ويجرى إطلاعه على مجمل الاحتياطات الأمنية الإسرائيلية، وتدريبه كيف يلتف عليها إلى جانب إتقانه للغة العبرية بلكنة تبدو أصيلة.

كما تجرى له عملية "مكياج" دقيقة تناسب عملية التنفيذ. وبغض النظر عما إذا كان هذا الحديث الأمنى الإسرائيلى المعمم تلفزيونيًا يستهدف "تبرير العجز" أو "تنبيه الإسرائيليين" أو الاثنين معًا، فإنه يكشف عن التأثير القوى الفعال للعمليات.

بقى أن نذكر أن هذا التأثير دعا الرئيس الإسرائيلى وشيمون بيريز وآخرين من قادة العدو إلى اعتبار هذه الفترة من انتفاضة الأقصى أخطر فترة مرّ بها الكيان الإسرائيلى منذ إقامته. كما أن هذا التأثير بدأ يشجع بعض الإسرائيليين على المجاهرة بضرورة الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وبضرورة تصفية المستعمرات الاستيطانية الصهيونية، وينحى باللائمة على من أقاموها. وقد أوردت "معاريف" ما قاله شلومو بن عامى وزير خارجية إسرائيل الأسبق فى محاضرة أمام مؤتمر المركز اليهودى العلمانى فى بروكسل مؤخراً "إن المشكلة الأساسية تكمن فى وجود المستوطنات اليهودية فى الضفة والقطاع. فلا يمكن التوصل لسلام إذا ظلت، وعلينا أن نخلى الأرض الفلسطينية التى احتلت عام ١٩٦٧،

والسلام لا يتحقق إلا إذا وافقنا على اقتسام القدس، ولا يمكننا المقارنة بين اليهود الذين تركوا الدول الغربية بمحض إرادتهم لينضموا إلى المشروع الصهيونى مع الفلسطينيين الذين أجبروا على ترك بيوتهم بالقوة عام ١٩٤٨".

تأثير فعل انتفاضة الأقصى كان عظيمًا على صعيد قوى الهيمنة الأمريكية الداعمة للكيان الصهيونى، وقد رأينا كيف اهتز الرئيس كلينتون وإدارته "الديموقراطية" إثر حدوثها بعد شهر من فشل مباحثات كامب دافيد الثانية، فحاول باراك تهدئتها بمباحثات طابا. ثم رأينا كيف اضطر الرئيس جورج دبليو بوش وإدارته "الجمهورية" إلى الخروج عن الخطة التى تبنوها للقضاء على الانتفاضة، وإجراء تعديل عليها بعد أن فعلت العمليات الاستشهادية فعلها، وبخاصة عملية الملهى الليلى فى تل أبيب مساء يوم ١/٦/٢٠٠١م.

وما كان أفظع تلك الخطة التى أسهم فى اقتراح بنودها غلاة الأمريكيين الصهاينة فى مراكز البحث التابعة للحزب الجمهورى، وعلى رأسهم هنرى كيسنجر وريتشارد هاس، وتبنتها الإدارة على غير ما كانت تعلنه من أنها لا تزال تبلور أفكارها. والحديث التفصيلى عن تلك الخطة له مجال آخر، ولذا نكتفى بالإشارة إلى أنها تبنَّت قدوم مجرم الحرب شارون رئيسًا لحكومة الكيان الإسرائيلى، ثم أعطته الضوء الأخضر ليضرب بعنف وقسوة لمدة مائة يوم زاعمًا أنه قادر على إنهاء الانتفاضة خلالها، ثم تبنّت موقفه بأنه لا تفاوض إلا بعد وقف "العنف الفلسطينى" على حد تعبير قوى

الهيمنة الطاغوتيين والصهاينة العنصريين، وأعطته هو أن يحكم على هذا الوقف، بينما يتابع هو جرائمه اليومية قصفًا وخطفًا واعتقالاً واغتيالاً. وقصد الرئيس الأمريكى ألا يقابل الرئيس الفلسطينى مع أنه قابل رئيس الحكومة الإسرائيلية مرتين فى واشنطن، ولكن استمرار الانتفاضة فرض على بوش أن يتصل هاتفيًا بالأخ ياسر عرفات، ثم أن يبعث برئيس المخابرات المركزية للنظر فى الأوضاع وتهدئتها. وهاهو فى قمة الدول الثمانية فى جنوا لا يعترض على قرار إرسال مراقبين دوليين للأراضى الفلسطينية المحتلة الذى طالب به الرئيس الفلسطينى، وقاومته دومًا "إسرائيل"، فتأتى الأخبار يوم كتابة هذا الجزء من الحديث فى ٢٢/ ٧ بصدور هذا القرار.

وكانت الإدارتان الديموقراطية السابقة والجمهورية الحالية قد شعرتا بتزايد الاستياء العربى الرسمى والغضب العربى الشعبى بسبب الانحياز الأمريكى الصارخ للعدو الصهيونى. واهتزت واشنطن لحادث المدمرة كول فى خليج عدن باليمن، وللتهديدات التى وصلت لقواتها المرابطة فى المنطقة، فكان أن كررت مرارًا تحذيرها لرعاياها الأمريكيين الموجودين فى المنطقة، وكانت القمة العربية فى عمان (٣/ ٢٠٠١) قد فتحت بعدد من قراراتها ملف العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

لقد فعلت انتفاضة الأقصى فعلاً مؤثرًا فى أوساط الرأى العام العالمى فى مختلف الدوائر الحضارية، وفضحت بجلاء عنصرية العدو الصهيونى وعدوانية الولايات المتحدة الأمريكية. وذلك بعد أن قام

الإعلام التلفزيونى بنقل صورها. ولا تزال صورة محمد جمال الدرة وهو يلوذ بأبيه فيقتله الصهاينة "صبرًا" بالدم البارد، مع صور كثيرة أخرى فى ذاكرة الكثيرين.

كما لا تزال العمليات الاستشهادية ببطولات القائمين بها تهز مشاعرهم هزاً. وهكذا تنامى التأييد للنضال الفلسطينى فى أوساط غالبية شعوب العالم. وعلى الرغم مما للإعلام الصهيونى من سيطرة على الإعلام فى دول أوروبا وفى الولايات المتحدة فإن تحولاً ملموسًا حدث فى الرأى العام الأوروبى، وكذلك فى الرأى الأمريكى. والمجال لا يتسع هنا لتفصيل الحديث عن هذا التحول. ولكنه تحول له ما بعده على صعيد مواجهة الصهيونية العنصرية.

بقى أن نشير بإيجاز شديد إلى تأثير فعل الانتفاضة المتعاظم والعلميات الاستشهادية فيها بخاصة على أبناء الأمة. ويا له من تأثير فيه "إحياء"، انطلاقًا من حقيقة أن الشهيد الذى هو حى عند ربه مرزوق فإنه باستشهاده يبعث الحياة فى مجتمعه. وكثيرة صور "الإحياء" هذه والتى رأيناها فى تعبيرات وتجليات تؤيد انتفاضة الأقصى.

وبعد.. ماذا عن مستقبل هذه الظاهرة؟

وضح لنا مما سبق أنها نشأت فى نطاق مقاومة العدو لدفع عدوانه ولتحرير الوطن. وهذا يعنى أنها مستمرة حتى يبلغ الشعب العربى الفلسطينى هدفه. ولقد بلورت انتفاضة الأقصى هدفًا مرحليًا هو

تحرير الأراضى الفلسطينية المحتلة ١٩٦٧ وإقامة دولة فلسطينية فيها عاصمتها القدس الشرقية، وعودة اللاجئين، وإن لنا أن نتوقع استمرار ظاهرة الاستشهاد على المدى القريب إلى أن يتحقق هذا الهدف المرحلى.

ولما كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الداعمة للكيان الإسرائيلى لا تزال تعرقل بلوغه، وتنتهك القانون الدولى فيما يخصه، فإن من المتوقع أن يترسخ فى الوطن العربى الاقتناع بضرورة أن تتجه المقاومة أيضًا إلى أمريكا بغية الوصول بها إلى مراجعة سياستها. وهذا يعنى توقع توجه بعض العمليات الاستشهادية نحو الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة، ونحو المصالح الأمريكية، بغية أن تتخلى الاستراتيجية الأمريكية عن اعتماد الكيان الإسرائيلى ركيزة استراتيجية لها وقاعدة استعمارية استيطانية تعتمد عليها. وذلك بعد أن تقتنع من خلال المساس بمصالحها أن هذه القاعدة باتت تمثل عبئًا استراتيجيًا عليها.

لنا أن نتوقع أيضًا إنْ تم التوصل إلى اتفاق لا يحقق كل الهدف المرحلى أن يهدأ الصراع فترة بفعل كثافة إعلام الترويج الذى يصاحب ذلك. ولكن لن تلبث القضايا الباقية فيما سمى بالحل النهائى فى عملية التسوية أو بخاصة قضية عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أوطانهم أن تفرض عودة المقاومة من جديد، ودخول الممارسات القمعية الإجرامية الإسرائيلية طورًا جديدًا، الأمر الذى

يعنى حتمية بروز ظاهرة الاستشهاد مـرة أخرى يحركها ما استقر من صورها وقصصها وبطولاتها فى ذاكرة الأمة.

وهذا يصدق على مراحل الـصراع العربى الصهيـونى الممتد الذى لن ينتـهى إلا إذا نبذ اليـهود الصهـيونيـة العنصرية، وتخـلت قوى الهيمنة الغربية عن فـكرة القاعدة الاستعمارية الاستيطانيـة الصهيونية ركـيزة لهـا فى الدائرتين العـربيـة والإسلامـية؛ لأنهـا باتت عـبئًـا إستراتيـجيا عليها لا قـبل لها بتحمله، ويوم ذاك تسـقط آخر القلاع الاستعـمارية الاستيطانيـة العنصرية فى آسيـا وأفريقيا، كمـا سقطت سابقـاتها بفضل اتصـال المقاومة واسـتمرارها، وبفـعل الدور الخاص الذى قـام به الاستـشهـاديون فـيهـا. وعندها تطوى صـفحـة الحل العنصرى لقضـية فلسطين، ويتحقق الحل الإنسانى للمسـألة اليهودية التى ولدت فى ظل الحضارة الغربية.

وهو الحل الذى طرحـته الحضـارة العربيـة الإسلاميـة، ومارسـته عمليًا، وشـعاره فى كل قطر "لهم ما لنا وعليهم مـا علينا" ماداموا مواطـنين فى أوطانهم نابذين للصـهيـونية العنصـرية التى اصطنعت قـوميـة لهم، ووظفتـهم فى مـخططات قوى الهـيـمنة الطاغوتيـة. فاليهودى الأمريكى فى وطنه، شأن الفلاشا الأثيوبى، شأن الروسى، واليهودى المنتمى للحضارة الإسلامية فى وطنه شأن اليهودى الإيرانى وهكذا. ورحم الله استـشهاديينا الذين قضوا فى سـبيل الله ونصب العين تحرير فلسطين والقدس والجولان ومزارع شبعا.

مكانة الصراع العربى - الصهيونى فى بنية مشروع الإنهاض العربى

كيفية معالجة شؤون هذا الصراع فى أصله وفروعه ضمن إطار مشروع الإنهاض

هذا العنوان يبين المطلوب من هذه الورقة وفق ما حدده مخطط مؤتمر "العرب والقرن الجديد" الذى ينعقد يومى ٦و٧ / ١١/ ٢٠٠١ بعمّان الأردن، بدعوة من جامعة الدول العربية والمعهد الدبلوماسى الأردنى والمركز العربى للدراسات الاستراتيجية وجامعة فيلادلفيا.

لقد أوضح المخطط "أن التحديات التى تواجه الأمة العربية وهى تدخل فى العالم دائرة القرن الحادى والعشرين، هى تحديات متنوعة فى مختلف مجالات الحياة.. ". وسجل "أن المتغيرات التى ختم القرن العشرون عقده الأخير بها كانت فى بعضها ناجمة عن الصراعات فى المنطقة العربية، وهى صراعات تمثلت فى المشروع الصهيونى الاحتلالى الاستعمارى، وفى حرب الخليج الثانية، والوجود العسكرى الأجنبى، وأزمة النظام العربى الإقليمى، وتعطل مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. ويبين أن القصد من عنوان المؤتمر "أن يكون البحث شاملاً الأمة العربية بدولها وتنظيماتها ومجتمعاتها ومؤسساتها القومية.. وأن المؤتمر هدف إلى التركيز على

الموضوعـات التى يراها تشكل محـاور للجهـد العربى المشـترك دولاً وتنظيمـات سياسية وثـقافية ومؤسـسات قوميـة، والتى تشكل نقاط احـتكاك أو اتصال مـع القوى العـالميـة ومع التحـديات التى تواجـه الأمـة" . "ولهذا كـان لابد من الانطلاق من واقـعين همـا : الواقع العربى المعـاصر، وواقع البيـئة العالميـة والإقليميـة الراهنة" . وحدد المطلوب من تسع أوراق تطرح فى المـؤتمر ومن المائدة المستـديرة التى يختتم بها حول "المعرفة كضرورة أولى لمشروع الإنهاض العربى" .

فى معالجة موضوعنا نأخذ فى الاعتبار ما جاء فى المخطط مؤكدين أن لفظة العرب فى عنوان المؤتمر تنصرف إلى الأمة جـمعاء فى وطنها العربى الكبـير بمستوييـها الشعبـى والرسمى، وبدولها وتنظيمـاتها. ومنطلقين من:

* حقـيقـة أن الغزوة الاستـعمـارية الصهـيونية اسـتهـدفت الأمة والوطن.

* وحقيقة أنه على الرغم من تجزئة وطنها وتعدد دولها فإن هناك جهداً عربيًا مـشتركًا نابعًا من إرادة هذه الدول فى العـمل ضمن "نظام عربى" تجسده جامعة الدول العربية ومنظماتها تواجه به الأمة هذه الغزوة.

* وحقيقة أن شعوب الأمة عازمة على النهوض من خلال مشروع نضالها.

سوف نقـوم فى هذه الورقة بغيـة معالجـة الموضوع بالنظر أولاً فى "مشـروع الإنهاض العربى ومكانة الصـراع فى بنيته التـحتيـة وتبادل التأثـير بينهـما" ، ثم نتعـرف ثانيًا على "واقـع الصراع فى مرحـلته

الراهنة فى ضوء الواقع العربى المعاصر وواقع البنيتين الإقليمية والعالمية، من منظور مشروع الإنهاض العربى"، لنصل إلى النظر فى "كيفية معالجة شؤون الصراع ضمن إطار مشروع الإنهاض".

أولاً: مشروع الإنهاض العربى ومكانة الصراع فى بنيته وتبادل التأثير بينهما

"يتردد الحديث فى محافلنا الفكرية عن المشروع الحضارى النهضوى العربى، سواء على صعيد تحقيق أحلام الأمة العربية وآمالها التى صاغتها فى أهداف التحرير والتوحيد والديموقراطية الشورية والعدل الاجتماعى والتنمية والتجدد الحضارى، أو على صعيد مواجهة المشروع الصهيونى الاستعمارى الاستيطانى العنصرى الذى استهدفنا به قوى الهيمنة الطاغوتية الغربية ودخل قرنه الثانى".

ما هذا المشروع؟

لقد قام كاتب هذه الورقة، شأن عدد من المفكرين العرب، بالتعريف بالمشروع. وعُنى فى آخر بحوثه عن المشروع فى ندوة مركز دراسات الوحدة العربية "نحو مشروع حضارى نهضوى عربى" بتعريفه وعرض تجاربه وتطوره، وذلك فى فاس بالمغرب بين يومى ٢٤ و٢٧/ ٤/ ٢٠٠١. وبعد أن استهل بحثه بالفقرة السابقة أورد أربع أفكار تتعلق بالمشروع، أستخلصها مما جاء فى مخطط الندوة.

فكرة أولى هى إجماع المثقفين والباحثين العرب على أن وطنهم بحاجة إلى صياغة هذا المشروع. وهذه الفكرة تشير إلى سمة رئيسة من سماته هى أنه ثمرة توافق أبناء الأمة الذى يستلهم فكرها إرادتهم

وأحلامهم فى صياغته بحيث تكون حصيلة ممثلة للتيارات الرئيسة السياسية والاجتماعية فيها.

فكرة ثانية تقترح تعريفًا للمشروع "فهو ليس محض إسقاط ذهنى على الواقع يقوم به مثقف فرد أو مجموعة مثقفين أفراد من المعنيين بشأن الأمة، بقدر ما هو مشروع يتخلق على أرض الواقع كنتاج لتفاعلات مركبة سياسية واقتصادية وثقافية" . وهذه الفكرة تشير إلى سمة أخرى من سماته هى أنه نتاج التفاعل مع الواقع على صعيد المجموع.

فكرة ثالثة هى أن المشروع عمل طويل المدى، يمر بمراحل ويشهد فى كل منها نهوضًا. وقد عرف "نهضة أولى ونهضة ثانية" . وهو اليوم فى ثوبه الجديد يفتح أبواب نهضة عربية ثالثة مسلحًا بدروس الأولى التى كان شعارها التحرر من الاستعمار، والنهضة الثانية التى كان شعارها تدعيم الاستقلال الوطنى، وتأسيس التنمية المستقلة. وهذه الفكرة تشير إلى سمة الاستمرار والتطوير.

فكرة رابعة هى أن إنجاح المشروع يتصل بقدرته فى تثبيت وترسيخ القيم التى تتمثل فيه من خلال ممارسات سياسية واجتماعية وثقافية تقوم أساسًا على المشاركة الشعبية. وهذه الفكرة تشير إلى سمة رابعة هى شعبيته التى تكفل له النجاح، وتتحقق من خلاله المشاركة الواسعة.

فيما يتعلق باسم المشروع ومفهومه يلفتنا فى هذه الرؤية له أنها أطلقت عليه اسم "المشروع الحضارى النهضوى العربى" ، فجمعت

بين الحضارة والنهضة. وقد وصفته أيضًا بالجديد. ومدلول الحضارى يتضمن تراكم الجهود السابقة. كما أن مدلول النهضوى يشير إلى بداية جديدة. والمشروع لغة هو "ما بدأت بعمله"، وهو عربى لأنه ينتمى للأمة العربية، فهى التى بلورته، وهى التى تتبنى السعى لتحقيقه. ونتوقف أمام كلمة "الإنهاض" الواردة فى عنوان الورقة وفى مخطط هذا المؤتمر، فنجد أنها من صيغة "إفعال" التى تدل على جهد يبذل لتحقيق النهوض. ولا بأس من ثم فى استخدامها للتأكيد على "الفعل".

حين نتأمل فى دلالة مصطلح مشروع الإنهاض العربى نستذكر ما أوردناه فى بحوث سابقة من أنه "ثمرة تفاعل أبناء الأمة مع واقعهم لتطوير هذا الواقع، بلوغًا لأهداف قاموا ببلورتها، ووضعوا تحقيقها نصب أعينهم. وهذه البلورة تتم من خلال مسيرة جهاد ونضال وكفاح، وتشهد حوارًا متصلاً فى المجتمع بين مختلف تياراته الفكرية وشرائحه الاجتماعية. وتتعلق هذه الأهداف بحياة الناس وأحلامهم فى ضوء ما يعيشونه ويعانونه ويتأملونه. وبلورة هذه الأهداف تتم من خلال عملية يسهم فيها قياديون ومفكرون وتنظيمات وفعاليات يتمثلون أحلام أمتهم وأمانيها، وترتفع بشأن تحقيق الأهداف شعارات تتعلق بقضايا مطروحة".

لقد بلورت أمتنا منذ القرن التاسع عشر الميلادى الثالث عشر الهجرى هدف مقاومة الاستبداد على صعيد الحكم بعد أن عانت من ويلاته الكثير، وتطلعت إلى تحقيق الشورى، وتعرفت خاصتها على

الديموقراطية فى الغرب، فدعت إلى تحقيقها واحترام كرامة الإنسان. وبلورت مقاومة الظلم الاجتماعى، وتطلعت إلى تحقيق العدل الاجتماعى مع العدل السياسى، وإلى النماء، وإلى تحقيق التجدد الحضارى والتقدم والارتقاء لتلحق بركب من سبقوها فى مضمار العلم التقنى. ورفع زعماء الإصلاح لواء "الاجتهاد" عاليًا. ومع تتالى الموجات الاستعمارية للوطن العربى، وقيام دول الهيمنة الاستعمارية بتجزئته بعد انهيار الدولة العثمانية فى مطلع القرن العشرين بلورت الأمة هدف تحرر الأقطار العربية وهدف توحيدها. وهكذا تحددت أهداف المشروع تحريرًا وتوحيدًا وديموقراطية وعدلاً وكفاية وتجددًا حضاريًا.

كان على الأمة العربية - وهى تعمل لتحقيق أهداف مشروع إنهاضها - أن تخوض غمار صراع عنيف ضد الحركة الصهيونية العنصرية التى وظفتها بريطانيا وقوى الهيمنة الغربية فى مشروع استعمار استيطانى عنصرى لفلسطين بغية التحكم فى المنطقة، وفصل جناح الوطن العربى الشرقى عن جناحه الغربى. وهكذا أخذ الصراع العربى الصهيونى مكانته فى مشروع الإنهاض العربى ، وباشر المشروع الصهيونى تأثيره على أهدافه وبخاصة بعد أن أقامت قوى الهيمنة الغربية "دولة إسرائيل" عام ١٩٤٨.

أمثلة كثيرة تبرز أمامنا على هذا التأثير حين نستحضر أحداث نصف القرن الماضى. ويتضح منها أنه كان تأثيرًا مباشرًا أحيانًا وغير مباشر أحيانًا أخرى على جميع أهداف مشروع الإنهاض.

فالمشروع الصهيونى وجه ضربة قاسية لهدف التحرير، حيث حال دون تحرير فلسطين واستقلالها، وباشر اغتصابها باستعمار استيطانى إحلالى، وأقام على الجزء الأكبر منها "دولة إسرائيل". وحيث قام هذا الكيان بدوره الوظيفى فى حرب السويس مع بريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٦ فى محاولة لقهر مصر. وحيث احتل مباشرة فى حرب عام ١٩٦٧ سيناء المصرية والجولان السورية والضفة الغربية وقطاع غزة. وحيث احتل مباشرة فى اجتياح عام ١٩٧٨ جنوب لبنان ووصل إلى احتلال بيروت عام ١٩٨٢. ولا يزال يجاهر بعزمه على التوسع فى الأراضى العربية. وحيث قام بضرب المفاعل العراقى، وقام بإغارة على الوجود الفلسطينى بتونس.

والمشروع الصهيونى بما فعله على صعيد عرقلة هدف التحرير والاستقلال، مثّل عقبة كأداء أمام تحقيق هدف التوحيد بدرجاته المختلفة. وتكشف كتابات القيادات الصهيونية عن تحركاتها لإفساد أى تحركات وحدوية عربية. وقد بلغ هذا الأمر حدً محاولة تجميد النظام العربى، واستبداله بالنظام شرق الأوسطى.

والمشروع الصهيونى ودعم قوى الهيمنة الدولية له كان عاملاً فى سياسات الدول الكبرى تجاه أنظمة الحكم العربية، وهى سياسات آثرت التعامل مع أنظمة غير ديموقراطية.

والمشروع الصهيونى كان عاملاً فى عرقلة محاولات التنمية العربية. وقد بلغ حداً فى ذلك غير مسبوق فى التسعينيات. وتجلت العرقلة بما ينفق على السلاح، ثم بمحاولة التحكم بتقنيات الزراعة

وبالاقتصاد، بل حتى مناهج التعليم فى نظام الشرق الأوسط.

بالمقابل كان الصراع العربى الصهيـ ـ بما يمثله المشروع الصهيونى من تحد للأمة حافزًا قويًا لأبنائها كى يضاعفوا جهودهم لإقامة مشروع الإنهاض العربى. وبقيت قضية فلسطين وتحريرها فى بؤرة اهتمام الإنسان العربى.

مجمل القول إن للصراع العربى الصهيونى مكانة متميزة فى بنية مشروع الإنهاض العربى. وقد تجلت آثاره فى مسار المشروع طيلة القرن العشرين. والنتيجة التى نتوصل إليها هى ضرورة أن يولى العرب وهم يعملون لمشروع إنهاضهم فى القرن الجديد، أمر هذا الصراع عناية خاصة، وأن يحشدوا طاقاتهم، ويوظفونها للانتصار فيه ولإنهاء الاستعمار الاستيطانى الصهيونى لفلسطين، لأن هذا الانتصار شرط ضرورى لاستكمال تحقيق مشروع الإنهاض العربى.

ثانيًا: واقع الصراع فى مرحلته الراهنة فى ضوء الواقع العربى المعاصر وواقع البيئتين العالمية والإقليمية من منظور مشروع الإنهاض العربى.

حين ننظر فى واقع الصراع العربى الصهيونى فى أواخر صيف عام ٢٠٠١ وقت كتابة هذه السطور، ونتأمل فى مرحلته الراهنة، نجد أنه يمر بفترة دقيقة، ويشهد تطورات سيكون لها أثرها القوى على مجراه لسنوات قادمة. ويمكننا أن نشير إلى مجموعة أحداث وقعت منذ ربيع عام ٢٠٠٠ انتقلت بالصراع إلى مرحلته الراهنة التى هى حلقة أخرى فى سلسلة مراحله المتتابعة منذ بدأ قبل أكثر من قرن.

فعلى صعيد الطرف العربى فيه كان يوم انتصار المقاومة فى لبنان،

وانسحاب الجيش الإسرائيلى من جنوبه فى ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٠، وكانت لحظة الصمود التاريخية فى كامب دافيد يوم ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٠، ثم كان بدء انتفاضة الأقصى، والحفاظ على المقدسات يوم ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠، وكان انعقاد قمة عربية بكامل الأعضاء يومى ٢١ و ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠ بالقاهرة إشارة إلى اكتمال استعادة النظام العربى وجوده.

وعلى صعيد الطرف الصهيونى الذى يضم تحالف قوى الهيمنة الدولية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ومعها بريطانيا والحركة الصهيونية وكيانها الإسرائيلى، كان هناك التحرك المكثف لاغتصاب القدس ومحالة الاستيلاء على الحرم القدسى بخاصة لإقامة هيكل فيه، وتصفية قضية فلسطين من خلال إملاء اتفاق بشأن القضايا الأربع فيما سمى بمفاوضات الوضع النهائى فى عملية تسوية مدريد وأسلو، بين يومى ١١ و ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٠، ثم كانت هناك محاولات كلينتون الأخيرة قبل انتهاء عهده للتوصل إلى ذلك الاتفاق، وكان نجاح جورج دبليو بوش الجمهورى رئيسًا للولايات المتحدة فى مواجهة آل غور الديموقراطى بعد أزمة قضائية، وتوليه الرئاسة فى ٢٠/ ١/ ٢٠٠١، ثم كان نجاح مجرم الحرب إرييل شارون رئيسًا لحكومة الكيان الإسرائيلى فى ٢/١/ ٢٠٠١ وتشكيل حكومة ائتلاف تضم الليكود والعمل وأحزابًا دينية ممثلين بعدد من مجرمى الحرب الإسرائيلية الصهاينة. وقد فصلنا الحديث عن جل هذه الأحداث فى كتابنا "انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصرى فى

فلسطين".

يمكن لمتابع مسار الصراع العربى الصهيونى أن يلاحظ أن هذه الأحداث وأحداثًا أخرى تتصل بها سجلت فى الخط البيانى للصراع نقطة تحول أخرى تدعو إلى الخاطر سابقاتها فى أعقاب حرب ٦/ ١٩٦٧ أوائل السبعينيات وأوائل الثمانينيات مع الاجتياح الإسرائيلى لجنوب لبنان ٦/ ١٩٨٢ وأوائل التسعينيات بعد زلزال الخليج ١/ ١٩٩١. وهذا يشير إلى دورية حدوث نقاط تحول فى الصراع كل عقد من السنين. وهو رأى يحسن أخذه فى الاعتبار فى الدراسة المستقبلية ونحن فى مطلع عقد أول من قرن جديد.

ما هى حقائق الواقع القائم فى الصراع من منظور مشروع الإنهاض العربى من خلال قراءتنا للمرحلة الراهنة فيه؟ وما هو الترتيب الذى نرجحه فى طرحها؟

فأما ترتيب طرح هذه الحقائق، فما نرجحه، بعد تفكر ونظر، هو أن نبدأ بما يخص طرفه الاستعمارى الصهيونى منها، ثم نأتى إلى تلك المتصلة بالبيئة العالمية والمحيط الدولى، ثم ننتقل إلى الحقائق الخاصة بطرفنا العربى وبدائرتنا الحضارية الإسلامية. وإعطاء الأولوية لطرف العدو متصل بكونه سادراً فى عدوانه، متمسكًا بمخططاته الاستعمارية العنصرية، مطوراً لأساليبه فى محاولات تنفيذها. وهو ما يمثل بمجموعه تحديًا قويًا لمشروع الإنهاض. تمامًا كما تُمثِّل الحقائق الخاصة بطرفنا استجابتنا لهذا التحدى.

إن حقائق الواقع القائم هذه متصلة عند طرفى الصراع والعالم

المحيط بالمستويين الرسمى والشعبى، فى عصر ثورة الاتصال والعولمة. الأمر الذى يدعونا أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار فى عرضنا لها بغية رصد التفاعل بين المستويين.

نودّ أن نشير بشأن ترتيب الحديث عن طرف العدو، أننا رجحنا، بعد تفكر ونظر، البدء بقوى الهيمنة الاستعمارية التى تقودها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية ومعها بريطانيا، ثم نأتى إلى الصهيونية والكيان الإسرائيلى، لأننا مع إدراكنا لترابط الحليفين بل تداخلهما، فإن قراءتنا للصراع تعطى أولوية لمخططات قوى الهيمنة تجاه منطقتنا. وهى مخططات شاركت الصهيونية فى وضعها. كما أن هذه القراءة تكشف الدور الوظيفى الذى تسنده قوى الهيمنة للكيان الإسرائيلى فى تنفيذ هذه المخططات.

أشير أخيراً إلى أن النظر فى الصراع على مدى قرن جديد بطوله يقتضى أن يجمع تشوفنا المستقبلى بين مدى قصير وآخر متوسط.

أبرز حقائق الواقع القائم فى الصراع الخاصة بأمريكا وحليفتها بريطانيا:

١ - استمرار أمريكا فى اعتماد استراتيجية عدائية تجاه الأمة العربية ومشروع إنهاضها تقوم على عرقلة هذا المشروع، والعمل على إفشاله. وذلك كى تتمكن من متابعة السيطرة على ثروات المنطقة والنفطية منها بخاصة، والتحكم فى موقعها الاستراتيجى وتوظيفه لصالحها. وقد اعتمدت الكيان الإسرائيلى ركيزة أساسية فى هذه الاستراتيجية التى ورثتها عن بريطانيا، وطورتها.

٢ - ركزت هذه الاستراتيجية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وانتهاء الحرب الباردة على دائرة الحضارة الإسلامية باعتبارها العدو بعد زوال خطر الشيوعية، وطرحت فكرة صدام الحضارات، وباشرت بمعونة الصهيونية شن حملة على "الإسلام" تقوم على دمغه بالإرهاب، واستهدفت تشويه الحضارة الإسلامية.

٣ - تبنت أمريكا فى إداراتها المتعاقبة، ولا تزال تتبنى، انطلاقًا من هذه الاستراتيجية سياسة دعم الكيان الإسرائيلى ماديًا ومعنويًا. وذلك من خلال تعهدها بتحقيق تفوق "إسرائيل" العسكرى على الدول العربية مجتمعة، وتمكينها من الاستمرار فى الانفراد بامتلاك السلاح النووى فى المنطقة، وتأييدها "التهجير" الصهيونى لليهود من أوطانهم إلى فلسطين، ومساعدتها فى "استيعابهم" هناك، وتزويد الكيان الإسرائيلى بالتقنية المتقدمة، والتزامها بدعم "إسرائيل" فى المحافل الدولية والحيلولة دون إنزال عقابات دولية بها فى مجلس الأمن لانتهاكها المستمر للقانون الدولى. وقد رأينا كيف استخدمت الفيتو مرات بغية ذلك، وكيف عملت على إلغاء الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها الخاص بعنصرية الصهيونية الذى اتخذته عام ١٩٧٥، وموقفها المعارض للحديث عن عنصرية الصهيونية، وإدانة الممارسات الإسرائيلية العنصرية الحالية فى مؤتمر مكافحة العنصرية فى جنوب أفريقيا، وانسحابها من المؤتمر فى مطلع شهر ٩/ ٢٠٠١.

٤ - انساقت المؤسسة العسكرية فى نطاق هذه الاستراتيجية وهذه السياسة إلى تحويل الكيان الإسرائيلى لأكبر قاعدة عسكرية وحاملة

طيران لها خارج أمريكا، تخزن فيها السلاح، وتجد فيها الميناء الذى يقدم الخدمات للأسطول السادس الأمريكى الرابض فى مياه البحر الأبيض المتوسط، وتنصب فيها محطات الإنذار المبكر، وتوظف الجيش الإسرائيلى فى عمليات تجاه بعض دول المنطقة. وقد وافقت الحكومة الأمريكية - كما نقلت الأنباء عند كتابة هذه السطور - على صفقة السلاح لإسرائيل قيمتها مليار دولار تتضمن حصول حكومة شارون على ٥٢ طائرة إف ١٦.

كما نالت موافقة الكونغرس على بيع ١١٠ طائرات من الطراز نفسه إلى إسرائيل. وأبلغ الرئيس بوش الكونغرس أن استخدام إسرائيل السلاح الأمريكى ضد الفلسطينيين لا يمثل خرقًا لقانون تصدير السلاح إلى الدول الأجنبية.

٥ - تمشيًا مع ما سبق دعمت أمريكا الساسة الإسرائيليين تجاه الأراضى العربية المحتلة فى حرب عام ١٩٦٧، والتى خطها الرئيس الاستمرار فى احتلال الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة فى فلسطين، وفرض معاهدات مع الدول العربية المجاورة تكفل الأمن الإسرائيلى مقابل إعادة أراضيها المحتلة.

وهكذا تبنت أمريكا فكرة الصلح بين إسرائيل ومصر، وأشرفت على إبرام اتفاق كامب دافيد عام ١٩٧٨ ثم على معاهدة السلام الإسرائيلية المصرية عام ١٩٧٩. وأعطت أمريكا الضوء الأخضر للاجتياح الإسرائيلى لجنوب لبنان عام ١٩٧٨ ثم عام ١٩٨٢، وأيدت إبرام اتفاق إسرائيلى لبنانى عام ١٩٨٣ لم تلبث أن أسقطته المقاومة

اللبنانية بدعم من سوريا. وعملت على إبرام معاهدة السلام الإسرائيلية الأردنية عام ١٩٩٤. واستضافت المباحثات الإسرائيلية السورية المتعثرة لإبرام اتفاق بشأن الجولان فى التسعينيات، وقد عرقلت واشنطن، كما أوضح نعوم تشومسكى، كل محاولات التسوية الخاصة بقضية فلسطين منذ عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٩٣، تمكينًا "لإسرائيل" من اغتصاب الأراضى الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، وشجعت إقامة المستعمرات الصهيونية فيها وموّلتها.

٦ - عملت أمريكا تنفيذًا لمتطلبات استراتيجيتها فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة على إقامة "نطاق الشرق الأوسط" الإقليمى فى دائرة الحضارة الإسلامية ضمن إقامة "النظام العالمى الجديد" الذى رفع شعاره جورج بوش عام ١٩٩٠ إبان زلزال الخليج. واستهدفت من نظام الشرق الأوسط هذا إحكام السيطرة على الدائرتين العربية والإسلامية، وقطع الطريق على مشروع الإنهاض العربى، وذلك بجعله بديلاً عن النظام العربى الذى عملت على تجميده وتوطئه لإنهائه، وبإعطاء القيادة فى هذا النظام شرق الأوسطى الكيان الإسرائيلى ليتم التحكم بالمياه والسلاح والاقتصاد وأنظمة الحكم والتمويل. وشجعت واشنطن بغية إقامته إجراء مفاوضات ثنائية وأخرى متعددة الأطراف، وعقدت مؤتمر مدريد فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩١ الذى طرح ما أسمته "عملية سلام الشرق الأوسط"، وتبنت فى إطارها عقد مؤتمر اقتصادى. وعلى الرغم من تعثر هذا المشروع الأوسطى بفضل المقاومة العربية التى استهدفته، فإن الولايات المتحدة

لا تزال طامحة فى إقامته من خلال الاستمرار فى تلك العملية التى صممتها، وكانت لها "راعيًا أولاً".

٧ - اتجهت الولايات المتحدة فى أعقاب زلزال الخليج فى نطاق سعيها لإقامة نظام الشرق الأوسط، وتنفيذه تجاه فلسطين إلى محاولة فرض حل عنصرى لقضية فلسطين ينهى الصراع العربى الصهيونى. وهكذا عملت على إبرام اتفاق أوسلو بين "إسرائيل" وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الخاص بإقامة حكم ذاتى مؤقت فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى ١٩٩٣/٩. واستهدف هذا الحل العنصرى حصر الفلسطينيين الموجودين فى وطنهم فى معازل تتحكم فيها مستعمرات استيطانية صهيونية تربط بينها طرق التفافية، ويفرض عليها تبعية اقتصادية للكيان الإسرائيلى، ويوظف سكانها عمال سخرة فيه.

٨ - عملت الولايات المتحدة فى عهد الرئيس بيل كلينتون طوال فترتى ولايته بين ١٩٩٢و٢٠٠٠ على مدى ثمانى سنوات لاستكمال خطوط هذا الحل العنصرى. وركزت فى عامها الأخير على الوصول لاتفاق بشأن الموضوعات الأربعة الخاصة بما سمى بالوضع النهائى، وهى الأرض بمياهها والمستعمرات الاستيطانية، وعودة اللاجئين الفلسطينيين والقدس.

وكانت قد حاولت فى عام ١٩٩٦ بغية شل المقاومة العربية للاحتلال فيض "مكارثية عالمية" تلاحقها بزعم أنها إرهاب، وسعت لعقد مؤتمر شرم الشيخ لهذه الغاية، ولكنها فشلت فى محاولتها، وعمد كلينتون فى مفاوضات كامب دافيد الثانية فى ٧/ ٢٠٠٠ إلى

محاولة فرض اتفاق يكرس الحل العنصرى بشأن الموضوعات الأربعة، وسعى بشكل خاص إلى اغتصاب الحرم القدسى لأسباب عدة من بينها المعنى الرمزى لهذا الاغتصاب على صعيد قهر دائرة الحضارة الإسلامية. وقد أفشلت سعيه وقفة الصمود الفلسطينى فى لحظة تاريخية. فكان أن أنحى باللائحة على القيادة الفلسطينية.

٩ - تبنت إدارة جورج دبليو بوش الجمهورية إثر نجاحها خطوط سياسة تنطلق من الاستراتيجية الأمريكية، وتتفق مع سياسات الإدارة السابقة فى الأمور الأساسية. وشرعت منذ توليها فى ٢٠/ ١/ ٢٠٠١ فى تطبيق هذه الخطوط التى أطلقت يد حكومة مجرم الحرب إرييل شارون لإنهاء الانتفاضة بالقوة، وسوّفت فى أمر التوصل إلى اتفاق، وشجعت الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، وقالت بتوفير اقتصاد للفلسطينيين قابل للحياة، منكرة حقوقهم الأساسية فى تقرير المصير والاستقلال وإقامة دولة، واستهدفت بالعداء القيادة الفلسطينية. وأيدت استخدام شارون الطائرات الأمريكية إف ١٦ والأباتشى فى قصف الفلسطينيين، واغتيال قيادات فلسطينية. وحاولت بقوة إشغال العالم عن الانتفاضة بتحويل الأنظار إلى العراق، وتغيير نظام الحكم فيه. وجاهرت بتأييد سياسة تضييق الخناق على الشعب الفلسطينى وقيادته حتى يرضخ وينهى المقاومة ويوقف انتفاضته. ولكنها اضطرت حفاظًا على مصالحها إلى القيام بتحرك محدود حين استمرت الانتفاضة.

١٠ - تابعت بريطانيا القيام بدورها المساند للسياسة الأمريكية

المتكامل مع الدور الأمريكى الـذى حدده تفاهم الحليفـين، سواء فى مـجلس الأمن، أو فى الاتحـاد الأوروبى بما يناسب أمـريكا، أو فى الميدان فى مـواجهـة العراق. وهو الدور الذى قـبلت به منذ سلمت بقيادة أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت قبل ذلك قد تزعمت أمر إقـامة الكيان الصهـيونى الاستعـمارى الاستـيطانى العنصرى فى فلسطين منذ المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧ مروراً بتصريح بلفور عام ١٩١٧ وطيلة استعمـارها لفلسطين تحت اسم الانتداب حتى عام ١٩٤٨.

١١ - تشـهد أمـريكا فى الوقت نفسـه تحركًـا مكثـفًا لما يعـرف بالصهيونية المسيحية التى تؤمن بشريط مشاهد يتضمن "إقامة إسرائيل دعوة اليهود إلى أرض الميعـاد وإعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ووقوع معركـة "هرمجدون" فى سهل مجد وصولاً إلى عـودة المسـيح، ونزوله إلى الأرض وحكمـه العالم حـتى تقـوم الساعة الألفية". وقد فصل أ. محمد السماك حديث هذه الحركة فى بحثه "نظرات فى مسـار الحركة الصهيونية" لندوة الحركـة الصهيونية والصراع العربى الإسرائـيلى فى مائة عام التى نظمها معـهد البحوث والدراسات العربية فى ٥/ ٢٠٠٠.

١٢ - وتشهـد الولايات المتحـدة وبريطانيا على المسـتوى الشـعبى فيهـما بروز قوى تعارض اسـتراتيجيـتهما الخـاصة باعتمـاد القاعدة الاستـعمارية الصهـيونية ركيـزة لهما، والسـياسات المنبثـقة عن هذه الاسـتـراتيـجيـة. ومن هذه القـوى الأمـريكيـون من أصل عـربى

والأمريكيون المسلمون من أصول أقوام مسلمة آسيوية وأفريقية. وقد بدأ هؤلاء تنظيم أنفسهم، واكتسبوا خبرات التعامل مع النظام السياسى الأمريكى فيما يخص مراكز القوى والانتخابات، الأمر الذى يزيد فى تأثير تنظيماتهم داخليًا.

ومن هذه القوى الخبراء الأمريكيون "المستعربون" الذين تعرفوا على الوطن العربى والحضارة الإسلامية، فخرجوا من سيطرة الدعاية المعادية للعرب والمسلمين، وتطلعوا إلى علاقات أمريكية عربية سليمة. ومن هذه القوى يهود أمريكيون استشعروا خطورة الممارسات الصهيونية العنصرية على اليهود فى أوطانهم، وبخاصة فى مسألة الولاء المزدوج، وأنهم لا يزالون قلة، وتستهدفهم الصهيونية بعدائها إلا أن أثرهم فى تزايد. والأمر نفسه يصدق على بريطانيا.

نتائج وتساؤلات

نستنتج مما سبق أن الولايات المتحدة وبريطانيا تستهدفان بالعداء الأمة العربية، وتعملان على مواجهة مشروع إنهاضها. وهما فى هذه المرحلة من الصراع العربى الصهيونى تحاربان بقوة سعيها لتحقيق هدف التحرير والاستقلال، وتتبنيان سياسة دعم الكيان الإسرائيلى قاعدة استعمار استيطانى عنصرى لهما فى المنطقة. وهما تحاربان بقوة نضالها لتحقيق هدف التوحيد فى مستوياته المختلفة بين الدول العربية. كما أنهما تعملان على عرقلة النمو فى هذه الدول، وفرض التبعية الاقتصادية عليها بأساليب مختلفة منها إغراقها فى الديون ولا زالتا تتمسكان بمحاولة فرض نظام الشرق الأوسط على هذه الدول.

تساؤلات تبرز فى ضوء هذه النتائج

ما هو السبيل الذى على العرب أن يسلكوه ليصلوا بالولايات المتحدة وبريطانيا إلى الاقتناع بمراجعة استراتيجيتها تجاه الوطن العربى والتخلى عن اعتماد الكيان الإسرائيلى ركيزة لهما فى المنطقة، والوصول بهما إلى الشعور بأنه عبء إستراتيجى عليهما؟

كيف يعمل العرب لإقامة علاقاتهم بالدولتين على أساس من الندية والمصالح المتبادلة؟

ما هو السبيل للوصول بالقيادات الفكرية فى الدولتين إلى التخلى عن فكرة صدام الحضارات والعداء للإسلام، والقبول بفكرة تعاون الحضارات بعد تعارفها من خلال الحوار؟

أبرز حقائق الواقع القائم فى الصراع الخاصة بالكيان الإسرائيلى والصهيونية بعامة:

١ - الاستمرار فى تبنى الفكرة الصهيونية العنصرية القائمة على اغتصاب فلسطين، وتهجير اليهود من أوطانهم إليها واستيعابهم فيها وإحلالهم محل شعب فلسطين العربى. وقد جاهرت الحكومات الإسرائيلية المتتالية بسعيها لتحقيق الأهداف الصهيونية. واستهلت حكومة مجرم الحرب إرييل شارون عهدها بالإعلان عن عزمها على تهجير مليون يهودى، وطرح رئيسها فى زيارته لروسيا فى مطلع ٩/ ٢٠٠١ الموضوع صراحة هناك، ونقلت الأنباء خبراً عن وصول مائتى شاب روسى للانخراط فى الجيش الإسرائيلى كمرتزقة.

٢ - تحكم فكرة التسلط الصهيونى على العرب فى فلسطين

والدول العربية بالقوة الغاشمة، فى غالبية الأوساط القيادية الإسرائيلية والصهيونية بعامة. وهى الفكرة التى طرحها المنظّرون الصهاينة، وشرحها مؤخرًا بنيامين نتنياهو فى كتابه "مكان تحت الشمس أو بين الأمم" فى طبعتيه الإنكليزية والعربية. وجوهرها أن العرب يخضعون لمنظمة القوة، وأن السبيل إلى بلوغ سلام مع دولهم هو إرهابهم بالقوة الإسرائيلية. وجاء إرييل شارون ليطبقها عمليًا على الفلسطينيين فى خطة أعلنها، وأخذ ضوءًا أخضر عليها من واشنطن.

٣ - انتشار الصهيونية الدينية فى أوساط أفراد التجمع الإسرائيلى منذ حرب عام ١٩٦٧، وبروز دور حاخامييها فى تعبئة الإسرائيليين لإقامة المستعمرات الاستيطانية فى الضفة والقطاع، وتحول الصراع ضد العرب فى أوساطهم إلى صراع دينى تغذيه التعاليم التلمودية. وقد عبّر الحاخام عبوديا يوسف مؤخرًا فى تصريحاته العنصرية تجاه الفلسطينيين والعرب عن ذلك، وصعود التيارات الدينية اليهودية الصهيونية فى الحياة السياسية الإسرائيلية، ونجاحها فى الانتخابات بنسبة عالية، تجلت بشكل أوضح فى وزارة شارون الأخيرة التى ضمت عددًا من قيادات تلك التيارات.

٤ - التركيز فى ضوء ذلك على اغتصاب القدس كلها، واستكمال تهويدها، والسيطرة على الحرم القدسى فيها، وإعلان المخططات الصهيونية الدينية لإقامة هيكل فيه، ومباشرة إجراءات إنهاء الوجود المؤسسى الفلسطينى العربى في المدينة مثل احتلال بيت الشرق،

وهدم مبانى أبو ديس.

٥ - الاستمرار فى النظر إلى الأردن على أنه الوطن البديل للفلسطينيين، والزعم بأن أرض الميعاد التوراتية تشمله، والاحتفاظ بمخططات تهجير الفلسطينيين إليه بالقوة تنفيذًا لسياسة الإبعاد "الترانسفير" التى يجاهرون بها.

٦ - المضى فى "عسكرة" التجمع الإسرائيلى عن طريق مناهج صهيونية عنصرية لمراحل التعليم كلها من الروضة إلى الجامعة. وقد بيَّنت دراسات تناولت هذه المناهج أنها تؤدى إلى إحكام قبضة المؤسسة العسكرية على التجمع الإسرائيلى، وإلى أن تكون "الحكومة" فى أيدى "الجنرالات" وإلى أن تعم عقيدة العداء للعرب، وشن الحرب عليهم. وقد حققت هذه العسكرة "توافقًا" بين غالبية الإسرائيليين على حق إسرائيل فى الوجود، وحقها فى الأرض، وضمان هذا الأمن إسرائيليًا من خلال ترتيبات أمنية تفرض على العرب.

٧ - معاناة التجمع الإسرائيلى من وجود "اهتزاز" شديد بين أفراده، بعدما حققته المقاومة العربية المتصلة على صعيد تصديها للمشروع الصهيونى، وقد أسهم فى إحداث هذا الاهتزاز استمرار الثورة الفلسطينية واتصالها فى حلقات رغم كل محاولات الإجهاز عليها، وانتظار المقاومة البطولية اللبنانية، ونجاحها فى فرض الانسحاب على جيش الاحتلال الإسرائيلى فى جنوب لبنان، وحدوث انتفاضة الأقصى، واستمرارها عامًا بطوله حتى كتابة هذه

السطور، وإصرارها على بلوغ هدفها بالتحرير. وكان لبروز نموذج "الاستشهادى" فى هذه المقاومة العربية المتصلة أثره الكبير فى إحداث هذا "الاهتزاز"، الذى تحاول المؤسسة العسكرية الإسرائيلية - من خلال ما طرحناه فى النقاط السابقة - معالجته عبثًا.

٨ - وضوح التناقضات القائمة فى أوساط التجمع الإسرائيلى، بين يهود غربيين "اشكناز" ويهود شرقيين (سفارديم)، وبين يهود علمانيين ويهود متدينين، وبين يهود متخمين بالغنى الفاحش ويهود فقراء. وقد فصلت شرح هذه التناقضات د. إيمان حمدى فى بحثها ضمن أعمال "ندوة الحكومة الصهيونية والصراع العربى الصهيونى فى مائة عام" التى قام كاتب هذه السطور بتنسيقها فى نطاق معهد البحوث والدراسات العربية. وهى تناقضات تفعل فعلها فى إضعاف الكيان الإسرائيلى، وتنذر بحدوث تفجرات فيه إذا ما تراخت قبضة المؤسسة العسكرية التى تحكمه.

٩ - وجود فلسطينيين عام ١٩٤٨ من عرب فلسطين فى الكيان الإسرائيلى على أرضهم وفى وطنهم، وحملهم الجنسية الإسرائيلية المفروضة عليهم. وهؤلاء متمسكون فى غالبيتهم بهويتهم العربية، يستشعرون انتماءهم لشعبهم الفلسطينى، يعانون من التفرقة العنصرية التى تمارسها الصهيونية عليهم، ويقاومونها فى حدود استطاعتهم. وقد عبروا عن ذلك فى يوم الأرض ٣٠/ ٣/ ١٩٧٦، وكانت لهم وقفة فى تأييد انتفاضة الأقصى. ونسبة تزايدهم السكانى عالية. وهم فى مجمل القول يمثلون تناقضًا حادًا مع الإسرائيليين اليهود. ولأن

العدو الصهيونى يستشـعر خطرهم، فإن لديه دومًا مخطط إبعادهم. وقد رأينا مؤخراً ارتفاع صوت الدروز منهم لرفض الخدمة فى الجيش الإسرائيلى. وكـان هؤلاء قد استهـدفوا بسياسة إسـرائيلية صهـيونية عملت على فصلهم عن شعبهم وأمتهم، شأن إخوانهم الذين عملت على تجزئتهم، واصطناع التناقض بينهم مللاً وأنماط حياة. وقد انتهى د. أحمد برقـادى فى بحثه "العلاقات العربيـة الإسرائيلية" إلى ندوة الحركة الصهيونية التى سـبقت الإشارة إليها إلى "أن المشكلة الكبرى التى تواجه إسرائيل، وسـتواجهها فى المستـقبل هى وجود فلسطينيى الداخل الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية".

١٠ - استمرار المنظمـة الصهيونية فى محاولة الـتسلط على اليهود فى أوطانهم خـارج الكيان الإسرائيلـى، عن طريق الوكالة اليـهودية ذراعها الفـعال. وذلك بالاهتمام بشؤون اليهـود أينما وجدوا، الذين يبلغ عـددهم اليوم حـوالى ثلاثة عشـر مليونًا منهم حـوالى خمـسة ملاييـن فى "إسرائيل" وحـوالى ستة مـلايين فى أمريـكا الشمـالية وحوالى مليون فـى أوروبا ونصف مليون فى روسيا والبـاقى فى آسيا وأفريقيـا وافيانوسيا. وتنطلق هذه المنـظمة الصهيونيـة فى عملها فى أوساط اليهود من السعى لتهجير أعداد منهم إلى الكيان الإسرائيلى، وتمتين الصلات بمن يبقى فى وطنه، وتوظيفهم فى دعم "إسرائيل فى تنفيذ المخططات الصهيونية".

وقد انتـهى أ. إبراهيم عبد الكريم فى بحثـه "المنظمة الصهيـونية وإسـرائيل ويهـود العـالم" فى الندوة سـالفة الذكـر إلى أن دراسـة

التفاعلات الراهنة فى عملهـا" ستلاحظ أهمية تقاسم الأدوار فى هذا العمل، والتـتبع الصهـيونى فى التدقيـق لجزئيات أوضاع اليـهود فى العالم وظروفهم وعـلاقتهم بإسرائيل، والحرص عـلى تعزيز هويتهم اليهودية، وتغليب عنصر الولاء لإسرائيل على أى ولاء آخر. يجرى كل هذا وفق برمجة محكمة إلى حد كبير لمعادلة القدرة والأهداف". وتستعين المنظمـة الصهيونية فى تنفيذ مخططاتهـا هذه بعصابات المافيا الدولية التى ترتبط قيادات إسرائيلية كثيرة بها، وتتورط فى جرائمها.

١١ - ظهور حالة مـن عدم اليقين فى أوساط اليـهود فى أوطانهم بشأن الموقف من الصهـيونية ودولة إسرائيل والهجرة إليـها، وانتشار هذه الحالة تدريجيًـا. فكثير من أولئك اليهـود لا يريدون الهجرة من أوطانهم، وبعـضـهم يسـتـشـعـر خطر الولاء المزدوج الذى تحـاول الصهيونـية فيضه عليهم. ولاء لإسـرائيل يتقدم على الولاء لوطنهم. وتشهد العلاقة بين يهود العالم وإسرائيل درجة من التغير فى مجالين هما "مجـال المساعدة السياسـية والاقتصادية لدولة إسـرائيل ومجال الاتصالات الاجـتماعـية ليهـود إسرائيل مع يهود الشـتات. ومن ثم غدت الهجرة هامـشية فى تجسيد العلاقـة بين يهود العالم وإسرائيل" كما نقل إبراهيم عبد الكريم عن شموئيل أيزنشتاءت.

وقد لاحظ عـبد الوهاب المسـيرى أن أولئك اليـهود لا يضـحون باليـهـودية المحليـة. ويزداد شك قطاعـات واسعـة من اليـهـود فى الصهيونية بفعل ما يشهدونه من الجـرائم التى تقترفها وما يتابعونه من تصميم الانتفـاضة على التحرير، وما بدأ يرسخ فى ضمـير الشعوب

فى عالمنا حول عنصرية الصهيونية، وهو الأمر الذى تجلى فى مؤتمر مكافحة العنصرية الأخير فى جنوب أفريقيا الذى نظمته الأمم المتحدة فى مطلع ٩/ ٢٠٠١ على صعيد منظمات المجتمع المدنى.

١٢ - بروز ظاهرة انشقاق فى الأوساط اليهودية على الصهيونية، وارتفاع أصوات يهودية تجاهر بنقد الممارسات الإسرائيلية الصهيونية وتدينها. ومن أمثلة ذلك ما نقلته وكالات الأنباء وقت كتابة هذه السطور عن قيام واحد من زعماء اليهود الفرنسيين فى مقال نشره فى "لوموند" بنقد سياسة شارون الذى نسى تعاليم اليهودية التى تدعو إلى نبذ العنف، وأن ما يقترفه من عنف يولد الكراهية. وقد تابع هنرى سيجمان الأمريكى اليهودى البارز كتابة مقالات تنتقد هذه السياسة. وجرى تداول دراسة إسرائيلية لجروشم باسكين بعنوان "ما الذى كان خطأ؟" فضح فيه مسيرة التسوية مردداً ست عشرة نقطة عرضناها فى كتابنا عن الانتفاضة فى عام. وأمثلة أخرى كثيرة.

نتائج وتساؤلات

نستنتج مما سبق أن الحركة الصهيونية العنصرية مستمرة فى عدائها الحاقد لمشروع الإنهاض العربى الذى يواجه مشروعها الصهيونى. وهى فى هذه المرحلة من الصراع العربى الصهيونى لا تزال مصممة على المضى فى مشروعها، وتهجير اليهود من أوطانهم، وإحلالهم محل شعب فلسطين، على الرغم مما أصاب المشروع من ضعف بفعل اتصال مقاومة الأمة له، فى محاولة منها للهرب إلى الأمام. وهى من أجل ذلك ضاعفت من اعتمادها على قوى الهيمنة الغربية، ووظفت نفسها

والكيان الإسرائيلى فى مخططات الولايات المتحدة وبريطانيا التى جعلت من "إسرائيل" القاعدة الاستعمارية الاستيطانية أكبر قاعدة عسكرية لها فى العالم. كما نستنتج أن هذا الكيان الإسرائيلى فى هذه المرحلة من شعور قوى بافتقاده الأمن بفعل الانتفاضة، وقد أصابه اهتزاز، كشف بشكل أوضح عما يعانيه فى داخله من تناقضات.

تساؤلات تبرز فى ضوء هذه النتائج

ماذا علينا أن نعمل نحن العرب فى نطاق سعينا لاستكمال مشروع الإنهاض العربى كى نتابع إضعافنا للمشروع الصهيونى على طريق إنهائه؟

ما الذى ينبغى عمله لتغيير علاقته بموجده؟

ما هو السبيل لتوسيع الفجوة وتعميق الصراع بين المنظمة الصهيونية واليهود فى أوطانهم بغية رفع هيمنتها عنهم؟

أبرز حقائق واقع الصراع فى بيئته العالمية:

١ - وجود إدراك متزايد على مستوى شعوب كوكبنا الأرضى بخطورة العنصرية والاستعمار الاستيطانى العنصرى فى مختلف الدوائر الحضارية فى عالمنا. وقد كشفت انتفاضة الأقصى ثورة الاتصال جقيقة عنصرية الصهيونية، وسلطت أضواء على الاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى، وفضحت الممارسات الإسرائيلية الإجرامية. وأمكن لفعل الانتفاضة أن يخترق إلى حد ما احتكار الإعلام الصهيونى فى دائرة الحضارة الغربية لوسائل الاتصال. وتجلى هذا الإدراك المتزايد فى اجتماع مكافحة العنصرية الأخير الذى سبقت

الإشارة إليه.

٢ - استمرار تحكم الولايات المتحدة وبريطانيا على المستوى الرسمي الدولي في مجلس الأمن، وتوظيفه لصالحها سلبًا وإيجابًا، وتسخيره لخدمة الكيان الإسرائيلي، ولضرب مشروع الإنهاض العربي، وفرض الحصار والعقوبات على دول عربية.

٣ - تبعية السياسة الخارجية لدول الاتحاد الأوروبي للسياسة الأمريكية، واتفاقها معها في منطلقاتها تجاه الصراع العربي الصهيوني "إلا في بعض التفاصيل" كما أوضح د.عبد الرحمن صبري في بحثه "علاقات إسرائيل مع الاتحاد الأوروبي" المقدم لندوة الصهيونية آنفة الذكر. وكثيراً ما تدعو الولايات المتحدة الأمريكية دول الاتحاد الأوروبي خاصة ألمانيا وبريطانيا إلى اتخاذ إجراءات وسياسات نيابة عنها في الشرق الأوسط، ولكن في نهاية الأمر فإن استراتيجيات الولايات المتحدة هي التي تطبق.. وفي حالة قيام منطقة تجارة حرة بين دول الاتحاد الأوروبي والدول الإحدى عشرة المطلة على جنوب المتوسط وشرقه، وتطبيق مفاهيم الأمن الجماعي ينتظر أن تلعب إسرائيل دوراً متميزاً في هذه المنظومة.." هذا في الوقت الذي يتزايد فيه على مستوى الشعوب الأوروبية الوعي بحقائق الصراع.

٤ - متابعة الصهيونية تحركاتها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية المعادية للعرب والمسلمين، ونجاح الكيان الصهيوني الإسرائيلي بعد أوسلو في تطوير علاقاته مع العديد من الدول الآسيوية والأفريقية، ومنها الهند والصين. ومع أن تحولاً حدث بفضل الانتفاضة لصالح

لجم هذه التحركات، إلا أن إكماله يقتضى جهدًا كبيرًا.

٥ - استمرار الصهيونية فى تكثيف نشاطها فى روسيا الاتحادية، خدمة لأهدافها من جهة ولأهداف واشنطن من جهة أخرى. وتنامى قوى روسية تعاديها وتتصدى لأخطارها. ومحاولة توظيف الكيان الإسرائيلى وجود مليون مهجر روسى فيه لتحقيق مجمل الأهداف.

فى ضوء هذه الحقائق تبرز تساؤلات حول ما ينبغى عمله عربيًا بشأن كل منها. وعلى مراكز البحث العربية والمختصين تقديم إجابات عليها.

أبرز حقائق الواقع القائم فى الصراع الخاصة بالعرب وبدائرة الحضارة الإسلامية

الحقيقة الأبرز هى انتفاضة الأقصى والمقدسات التى توشك عند كتابة هذه السطور أن تكمل عامها الأول. وقد انطلقت والعرب على مشارف قرن جديد معبرة عن عزم الأمة على متابعة مشروع إنهاضها، وموظفة خبرة قرن بطوله من مواجهة مشروعها المشروع الصهيونى الاستعمارى. وتتضمن هذه الخبرة مجموعة نتائج استخلصها الفكر العربى من خلال وقفة بمناسبة مضى قرن على انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول عام ١٨٩٧.

لقد قام كاتب هذه الورقة فى بحثه "المشروع الحضارى العربى فى مواجهة المشروع الصهيونى فى القرن العشرين" من منظور تاريخ الأفكار بعرض هذه النتائج بعد أن تتبع مسار الصراع، ومهد لها بقوله:

* اقتناع راسخ لدى قوى النهوض فى أمتنا العربية بأن السبيل لانتصارنا على المشروع الصهيونى يكمن فى تحقيق المشروع الحضارى العربى بأهدافه كلها. فمواجهتها لقوى الهيمنة الدولية وللصهيونية طرفى التحالف الاستعمارى الصهيونى ذات طابع حضارى، وتتطلب رؤية حضارية. ومن هنا تأتى أهمية تتبع ما بلغ إليه العمل لتحقيق كل من هذه الأهداف فى المرحلة الراهنة من الصراع العربى الصهيونى.

لقد أكدت أحداث الصراع على أهمية تكثيف الجهود لتحقيق هدف الديموقراطية والشورى وكرامة الإنسان. فغيابها أورث الدول العربية ضعفًا وسبب كوارث. ومع أن عقد التسعينيات شهد جهودًا مخلصة لتحقيق هذا الهدف، فإن ما تحقق هو دون المطلوب بكثير. ومن هنا تأتى ضرورة إيلاء عناية خاصة على صعيدى الفكر والفعل لتحقيقه، ومن ثم لصياغة المشروع الوطنى الذى يلتقى عليه أبناء الشعب، ويعملون لإنجازه.

والأمر نفسه يصدق على هدف العدل الاجتماعى وهدف التنمية. ولقد كان هدف التوحيد أكثر ما استهدفه التحالف الاستعمارى الصهيونى بالتخريب فى هذه المرحلة بغية القضاء على النظام العربى واستبداله بالنظام شرق الأوسطى. واستطاعت قوى النهوض أن تحقق صمود النظام العربى ولو بحدود دنيا. وهى تحاول جاهدة إعادة الفعالية إليه، وتسعى لانتظام عقد مؤتمر القمة العربى الذى يقوده، والتغلب على قرار قوى الهيمنة الدولية بمنع انعقاده. ولا شك فى أن

التحول المهم الذى حدث لصالح قوى الصمود والمقاومة فى الأمة على صعيد مواجهتها لطرفى التحالف الاستعمارى الصهيونى فى الصراع، بما صنعه من مناخ مفعم بالثقة سوف يمكِّن قوى النهوض من مضاعفة جهودها لتحقيق مشروع الأمن الحضارى".

كان هذا القول فى مطلع عام ٢٠٠٠. وقد تحقق انعقاد قمة عربية استثنائية بكامل الأعضاء فى ١٠/ ٢٠٠٠ إثر حدوث الانتفاضة، ثم انعقاد قمة عربية عادية فى ٣/ ٢٠٠١ تنفيذًا لتوصية الانتظام فى عقد القمة دوريًا.

النتائج التى تم استخلاصها من مسار الصراع ومن استقراء الواقع القائم

- ازدياد الاقتناع لدى الغالبية فى أوساط طرفى الصراع بحتمية استمراره، وقد كان لمسار عملية التسوية الراهنة الأثر القوى فى الوصول إلى ذلك. وعلى الرغم من أن طرف التحالف الاستعمارى الصهيونى دائب على تسويق ما يسميه "ثقافة السلام"، وعلى الرغم من أن قلة من الطرف العربى تستجيب له لعدة أسباب، فإن ما حفلت به المرحلة الراهنة من تصعيد للعدوان الإسرائيلى وللممارسات الإسرائيلية العنصرية ومن كشف لسكوت الإدارة الأمريكية عن هذا العدوان وهذه الممارسات فى أحسن الأحوال ودعمها فى أغلب الأحوال، جعلت من الحديث عن "ثقافة السلام"، مجرد الحديث، مدعاة للسخرية المرة لا يجوز على صاحب بصيرة لأنها فى حقيقة الأمر "ثقافة استسلام" والشعوب

بفطرتها لا تقبل إلا استتاب العدل طريقًا للسلام.

- إدراك واسع فى أوساط الطرف العربى بأن نشوب هذا الصراع واستمراره أكثر من قرن وحتمية استمراره وثيقة الصلة باعتماد قوى الهيمنة الدولية استراتيجية عدوانية تجاه الأمة العربية لتأمين مصالحها، واعتمادها الحركة الصهيونية لتنفيذ هذه الاستراتيجية. وهكذا فإن الوصول بهذه القوى إلى الاقتناع عمليًا بأن هذه الاستراتيجية وهذه الوسيلة تضر بمصالحها وتهددها، وذلك من خلال المواجهة العربية الفعالة، هو السبيل لإنهاء الصراع.

- إدراك واسع مماثل فى أوساط الطرف العربى بأن حتمية استمرار الصراع وثيق الصلة بتسلط الحركة الصهيونية على تجمعات اليهود فى أوطانهم، وتسخيرهم لخدمة قوى الهيمنة الدولية وخدماتها، بغض النظر عما ينجم عنه من تهديد لكل يهودى بالولاء المزدوج وبتنامى حركات "المعاداة للسامية" فى الغرب. وهكذا فإن السبيل إلى إنهاء الصراع هو الوصول باليهود إلى نبذ الصهيونية.

- وضوح حقيقة أن التحالف الاستعمارى الصهيونى لم يستهدف فلسطين بغزوته لذاتها فحسب بل لمكانتها فى الدائرتين العربية والحضارية الإسلامية. وهكذا فإن الصراع ليس إسرائيليًا فلسطينيًا فحسب بل صهيونى - عربى إسلامى تستهدف به قوى الهيمنة الأمة العربية والعالم الإسلامى والحضارة الإسلامية، ومواجهته تتطلب استنفار طاقات الدائرتين العربية والإسلامية.

- اقتناع راسخ بأن المقاومة كانت ولا تزال هى السبيل لمواجهة هذه

الغـزوة، وأنه لابد من اعتـمادها بمعنـاها الواسع الشامل وبأبعـادها جمـيعـها؛ الروحـية والفكرية والسـياسـية والثقـافيـة والاقتـصادية والمسلحة، وأنها تتطور بأساليبها.

- إدراك بأن لعصر العـولمة حقائق، وأن أساليب قوى الهيـمنة فيه والصهيونية تتطور؛ وهو الأمر الذى يتطلب تطوير أساليب المقاومة.

- إدراك بأنه على الرغم من قوة التحالف بين قوى الهيمنة والحركة الصهـيونية؛ فإن هناك تنـاقضات قائمـة بينهما يسـتطيع منطق الفعل العـربى أن يغذيهـا. وهكذا فـإن سبـيل السلام هـو العمل لتـعظيم التناقض بين القـاعدة الصـهيـونية فى فلسطين المحـتلة وموجـدها، وصولاً إلى اللحظة التاريخية التى تخلى فيها الموجد عن القاعدة التى أوجدها.

- اقـتناع راسخ فى أوساط الأمـة أن هذا الصراع صـراع ممتد مـرَّ بمراحل، وأنه يتطلب النفس الطويل، وأن أمـتنا قادرة على استـمرار خوضه لأنهـا خبرت المواجهة، وأنهـا باتت أكثر خبـرة به وبالتعامل معـه، وأنها خبرت أيضًـا العالم المحيط بهـا الذى يجيش بتفـاعلات سوف ترهق قوى الهيمنة الدولية.

ما يمكن أن نضيفه فى ضـوء أحداث العامين الأخيرين هو أن النظام العربى بدأ يتـعافى، ولكن تعافيه لم يـكتمل. ذلك أن الصدع الذى أصـابه بفـعل زلزال الخليج إثر اجـتـيـاح العـراق للكويت فى ٨/ ١٩٩٠ لم يستكمل رأبه بعد. وقد تجلى أثر ذلك فى قمة عمان. ومطلوب تكثيف الجهد لتصفيـة الخلاف القائم بين الشقيقات الجارات

العراق من جهة والسعودية والكـويت من جهة أخرى. كما أن هناك اختراقات إسرائيلية حدثت فيه بعد مدريد وأوسلو تهز صورته، ومنها تلك التي استهدفت التحالف الاستعـماري الصهيوني بها دولاً عربية صـغيـرة ليخـرج بهـا عن الركب. ومطلوب العـمل لإعادتهـا إلى الركب. وهناك قيود فرضتها الاتفاقات الإسرائيلية العربية على بعض الدول العربية مطلوب التخلص منها.

ثالثاً: كيفية معالجة شؤون الصراع ضمن إطار مشروع الإنهاض

أول ما يلح علينا ونحن نتناول بالنظر هذا الجـزء الأخير من الورقة هو المناخ الذي تعـيشه الأمـة هذه الأيام في خضم الأحـداث الجارية إلى صعـيد الانتفـاضة، وتصاعـد العدوان الإسرائيـلي على الشعب العـربي الفلسطيني، وهو مناخ يحث على الفـعل، وتكثيف العـمل لإنجاز مشروع الإنهـاض، وقد ارتفع فيه شعار "صـمود وصبر على المعاناة وفـعل بلوغًا للتـحرير" في أوسـاط المنتفضـين داخل الوطن المحتـل. وتتجـاوب جماهـير الأمة فـيه مـع الانتفـاضة، ويتـحرق الكثـيرون من أبنائهـا على الفعل. الأمـر الذي يجعلهم مـسـتـعدين للمشاركة في العمل بفاعلية.

ويجري التعبير عن ذلك في الاجتـماعات التي تعقد على المستوى الشعـبي لدعم الانتفاضـة في مختلـف أنحاء الدائرة العربيـة. ومثل عليها مـا جاء في مقدمة البيـان الختامي الصادر عن اجتـماع بيروت التحـضيري لإحيـاء الذكرى الأولى لانتفـاضة الأقصى يوم الخـميس

٢٠٠١/٩/٦، "شعوراً منا بضرورة تحويل الذكرى السنوية الأولى لانتفاضة الأقصى إلى مناسبة لإعادة إطلاق التحرك الداعم للانتفاضة على مختلف المستويات وفى كل المجالات، وتأكيداً على القناعة الشاملة بأن المعركة البطولية التى يخوضها شعب فلسطين هى معركة الأمة بأسرها، بل هى معركة الإنسانية جمعاء فى وجه العنصرية الصهيونية، وحرصاً على أن يكون تلاقى مختلف البيئات العاملة على مستوى الأمة حول الانتفاضة مدخلاً لتعزيز وحدة النضال العربى والإسلامى، وتصليب المواقف الرسمية، كانت المبادرة فى الدعوة للاجتماع . . . " ثم تضمن البيان مجموعة توصيات وأفكار للعمل على المستوى الرسمى، وعلى المستوى الشعبى، وعلى الصعيد المهنى، وفى آليات العمل.

إن العمل لتحقيق أهداف مشروع الإنهاض العربى وأولها هدف التحرير، يتبلور من خلال رؤية قومية شاملة للأمة بمستوياتها الشعبى والرسمى يتبناها النظام العربى، وتلتزم بها الدول العربية، وتنطلق منها فى وضع مخطط للعمل العربى المشترك يكون لكل دولة فيه دور بحسب طاقاتها، ويكون للنظام العربى بمجموعه مجسداً فى جامعة الدول العربية ومنظماتها دور تشارك فى القيام به الدول مجتمعة، ويكون للعمل الشعبى ومنظمات المجتمع المدنى دور.

فى ضوء ذلك تتحدد أدوات هذا العمل فى جامعة عربية قومية لها أمانتها القادرة، وفى مراكز بحث متخصصة توفر المعرفة الدقيقة بكل ما يتصل بالصراع، وفى مجتمع مدنى منظم تربط مؤسساته شبكة،

وفى آلية توظيف الأوراق العربية لخدمة المشروع تتضمن الإجابة عن التساؤلات المطروحة.

يتطلب هذا العمل أيضًا، فضلاً عن استخلاص تجربة الصراع بعد استحضارها، وقراءة الواقع القائم فى مرحلته الراهنة، استشراف مستقبله. ونستذكر هنا أن استشراق المستقبل وتشوفه ورؤيته توطئة لصنعه يقع فى نطاق علم دراسة المستقبل وفقًا لمنهج البحث العلمى، وليس مجرد تنبؤ، وأنه يأخذ فى الحسبان حقائق الواقع القائم ومجرى الحركة التاريخية، وأنه من ثم يضع فى حسابه مشروع الأمة الحضارى الذى تطمح فى تحقيقه، وعزمها على العمل الدائب لتحقيقه، "وإن لله عبادًا إذا أرادوا أراد"، وأن هناك فى المستقبل مدى قصيرًا وآخر متوسطًا وثالث طويلاً. وهذا الاستذكار يدعونا إلى تكثيف الجهود فى إقامة مراكز علمية متخصصة تتناول مختلف أطراف الصراع وجوانبه وجزئياته، وكيفية توظيف العالم لكسب المعركة، والانتصار فى الصراع.

واضح أن الدول العربية لا تزال متوافقة على تبنى ما أسمته "استراتيجية السلام" لأسباب تتعلق بظروفها. وهى لذلك تتحرك فى إطار عملية سلام الشرق الأوسط التى "ضمتها" الولايات المتحدة "ورعتها" ووفرت قوة دفع لإتمامها.

وهناك احتمال فى المستقبل القريب أن تتكثف الجهود الدولية لفرض تسوية تنهى الانتفاضة بعد تلبية بعض مطالبها بشأن موضوعات الوضع النهائى الأربعة. وواضح مما حدث فى المفاوضات

السابقة أن الحل الذى تثمره هذه التسوية هو "حل عنصرى" لا يلبى الحد الأدنى من الحقوق الوطنية للشعب العربى الفلسطينى وللأمة العربية، وأنه من ثم "هش" لأن الحلول المملاة العنصرية لا تأتى بسلام. ولكن هذا الحل سوف يسفر عن إقامة دولة فلسطينية على جزء ضئيل من مساحة فلسطين لا تتجاوز ١٣٪، يجرى الاعتراف بها دوليًا وبالهوية الفلسطينية، وإن كانت مجردة من كثير من خصائص "سيادة الدول"، وهكذا تبرز حقيقة جديدة يجب إحسان التعامل معها فى متابعة خوضنا الصراع.

من المتوقع فى ظل هذا الحل العنصرى لقضية فلسطين أن تستمر قضية القدس حية بين العرب مسلمين ومسيحيين، والمسلمين بعامة، فى ضوء تشبث "إسرائيل" بجعلها عاصمة أبدية "كذا !".

والأمر نفسه بشأن قضية اللاجئين الفلسطينيين فى ضوء "إسرائيل" رفض عودتهم وتعويضهم، وبشأن قضية المستوطنين الصهاينة فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى ضوء تشبث "إسرائيل" ببقائهم فى الأراضى التى اغتصبوها، وتشجيعهم على العدوان. وهكذا فإن هدف استعادة القدس، وهدف عودة اللاجئين، وهدف إزالة المستعمرات الاستيطانية من الضفة والقطاع، سوف تبقى نصب العين تنفخ فى روح المقاومة الفلسطينية وفى أوساط الأمة العربية والشعوب الإسلامية. ومن المتوقع أن تشهد هذه المقاومة إبداعًا فى وسائلها مستندًا على قاعدة من البحث العلمى توفرها مراكز بحث متخصصة تبحث فى كل بُعد من أبعاد المقاومة؛ بهدف إحسان توجيهها

وتصعيدها، والإعلان عنها.

واضح فى ضوء ما سبق أن التسوية التى يمكن التوصل إليها فى المدى القصير لن تأتى بحالة "السلام" المنشود. وإنما تأتى بحالة ما اصطلح على تسميته "بالسلام البارد" فى أحسن الأحوال، وحالة "عدم الحرب" غالبًا. ولذا فإن الحاجة إلى إيجاد حل صحيح للصراع، ودواء ناجح للتعامل مع التحالف الاستعمارى الصهيونى يبقى أمرًا ملحًا، ويحث على بلورة "رؤية" تتبناها الأمة، وتصوغ بموجبها مشروعها للحل المنطلق من مشروعها الحضارى.

ماذا عن المستقبل فى المدى المتوسط؟

لا يزال كاتب هذه الورقة عنه ما كان طرحه فى بحثه آنف الذكر، وقد قال فيه "إن مستقبل المواجهة بين المشروع الحضارى العربى والمشروع الصهيونى يتحدد تبعًا لمدى تأثيرنا نحن العرب على العوامل التى يقوم عليها الاستعمار الاستيطانى الصهيونى، وهى تجمع المستعمرين المستوطنين الصهاينة فى فلسطين المحتلة من اليهود الإسرائيليين، والصلة بين الكيان الإسرائيلى بوصفه قاعدة استعمارية استيطانية وقوى الهيمنة الغربية التى أوجدته ودعمته فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والمحيط الدولى.

بالنسبة لليهود الإسرائيليين فى الكيان الإسرائيلى استطاعت المؤسسة العسكرية الصهيونية التى تحكمت فى أوضاعهم أن توجد توافقًا بين غالبيتهم على "حق إسرائيل فى الوجود وحقها فى الأمن وضمان هذا الأمن عن طريق إسرائيل ذاتها، وليس عن طريق الدول

الكبرى من خلال تـرتيبات أمنية" تفرض علـى العرب. وخارج عن هذا التوافق حـركات كـاهانا وكاخ ومولـيـدت التى تتبنى صـهيـونية عنصرية سافرة وحركات يهودية تناهـص الصهيونية مثل ناطورا كارتا (حراس المدينة). ولكن التجمع اليـهودى الإسرائيلى يشهد رغم ذلك التوافق، تناقضات بين الإشكناز الغربيين والسفارديم الشرقيين، وبين علمانيين ومتدينين، وبين أغنياء وفقراء. كما يشهد خصوصية لوضع يهود الوطن العربى الذين هـجّرتهم الصهيونيـة من أقطارهم العربية، وكذلك يشـهد الكيـان الإسرائيلى خصـوصية لوضع عـرب فلسطين المحـتلة عـام ١٩٤٨ الذين فـرضت عليـهم الجنسـية الإسـرائيليـة، ومارست الصهيونية عليهم عنصريتها. وهذه التناقضات قابلة للتفاقم إذا أحسنت الرؤية العـربية التعامل معـها. وقد أولتهـا دراسات جادة عنايتهـا. وهى تفسـر تخوف بعض الصـهاينة من "التـسوية"؛ لأن المطالب الاجتماعية ستلح، وقد يشكل اليهود الشرقيون وهم خمسون بالمائة مع العرب وهم عـشرون بالمائة جبهة واحـدة تهدد "الإشكناز" على حـد قول لطيف درى يـوم ١٦/ ٤/ ٢٠٠٠ لمندوب صحـيفـة الاتحاد الاشتراكى المغربية.

إن آفاق العمل لإقناع قطاع من اليهود الإسرائيليـين بنبذ الصهيونية سبيلاً للسلام العادل رحبة. وموضـوع ما بعد الصهيونية فى ضوء ما كشف عنه "المؤرخون الجدد" من سـجلها العنصرى ومطروح اليوم. ويبقى أن تتبنى الدول العربية خطة عـلمية تنطلق من رؤيتنا الحضارية للحل، وتتعـامل مع اليهـود الذين كانوا مواطنـين فيهـا، وتخاطب

الآخر بهدف الوصول بهم إلى نبذ الصهيونية.

بالنسبة للصلة بين الكيان الإسرائيلى وقوى الهيمنة الغربية التى أوجدته وتدعمه تبرز من جهة مسألة تحكم الحركة الصهيونية بتجمعات اليهود فى أوطانهم. وواضح من دراسات كثيرة وجود معارضة يهودية لهذا التحكم لما يسببه لليهود من أخطار، من بينه خطر الولاء المزدوج، وخطر عزلتهم واستهدافهم بالمعاداة للسامية. وآفاق العمل رحبة أمام الدعوة بينهم لنبذ الصهيونية. كما تبرز من جهة ثانية مسألة تهدد مصالح الدول المساندة للعدوان الصهيونى فى وطننا. وتبرز من جهة ثالثة مسألة العلاقة بين الصهيونية اليهودية والمسيحية الصهيونية التى تتبناها "نحل" ظهرت بين مسيحيى الغرب. وواضح أن ما شهدته دائرة الحضارة الغربية من وجود تجمعات عربية إسلامية فيها، وأن ما تراكم من خبرات متزايدة فى التعامل مع الغرب ومجتمعاته، يجعل آفاق العمل رحبة لمحاصرة الصهيونية القارونيين الجدد من قادة قوى الهيمنة.

بالنسبة للمحيط الدولى فإننا نجده اليوم حافلاً بالتفاعلات التى تشير إلى إمكانية العمل لتأليبه على الصهيونية العنصرية وعلى قوى الهيمنة.

وبعد..

فإذا كانت آفاق العمل رحبة لمواجهة المشروع الصهيونى فى مراحل الصراع العربى الصهيونى القادمة، فإن مباشرة هذا العمل تتوقف على قدرتنا نحن العرب على القيام بقفزة فى تحقيق مشروعنا

الحضـارى بأهدافـه كلهـا، وأولهـا وأشـدها إلحـاحًا الشـورى والديموقراطية وكرامة الإنسان. وقد بلور الفكر العربى المعاصر سبيل ذلك، فمن الواضح أن مثل هذا العمل يتطلب بنـاء قوة عربية فاعلة قادرة. كما تـتوقف مباشرة هذا العمل على اتفـاق الدول العربية من خـلال توافق الأمة جـمعـاء على الحل الصـحيح للصـراع فى المدى المتوسط بعد أن ينكشف فشل الحل العنصرى فى المدى القصير، وهذا الحل الصحـيح هو "عيش اليهـود" فى أوطانهم بوصفـهم مواطنين يدينون باليـهـودية الـتى هى دين وليـست "قـومـيـة" كـمـا تزعم الصهيـونية، بما فى ذلك يهود الوطن العربى، عـلى قدم المساواة مع بقيـة المواطنين، وتحرير فلسطيـن من الصهيـونية العنصـرية، ودعوة اليهود لنبذ الصهيونية العنصرية كى يعيشوا مستأنسين فى أوطانهم.

إن مواجهـة مشروعنا الحضارى العـربى للمشروع الصهـيونى بعد مضى قرن من الصراع العربى الصهيونى أمر حتمى، ولا بديل لنا فيه من الانتصـار. ونضالنا فـيه يقع فى إطار نضـالنا لبناء عالـم إنسانى تتعاون فيه الحضـارات بدل أن تتصارع، من أجل حماية أمن الأرض وتحقيق كرامة الإنسان أينما كان.

وبعد

فبـينما يتـهيأ كـاتب هذه الورقة لإنهـاء بحثه، ووضـع قلمه يوم الثلاثاء ١١/٩/٢٠٠١ الموافق ٢٣ جمـادى الآخر ١٤٢٢ إذا بالأنباء تتالى عن هجمات استهدفت الولايات المتحدة الأمريكية لم يسبق لها مثيـل. وقد هدّمت هذه الهجمـات برجى مركز التجـارة العالمى فى

نيويورك ومبانٍ حولهما، ودمرت جزءاً من مبنى وزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن (بنتاجون)، وفجرت سيارة ملغومة أمام مبنى وزارة الخارجية. وتم إخلاء البيت الأبيض ومبنى الكونغرس ومبانى الحكومة الفيدرالية وجميع الوزارات الاتحادية من الموظفين. وتم وقف جميع الرحلات المتجهة إلى الأراضى الأمريكية أو المغادرة لها. وأعلنت حالة التأهب القصوى فى جميع القواعد العسكرية الأمريكية حول العالم. وتفاصيل أخرى كثيرة ليس هنا مجال ذكرها تتصل بمختلف جوانب النظام العالمى الذى تقوده أمريكا.

تداعى إلى الخاطر عند سماع هذه الأنباء ما أوردناه ضمن النتائج التى استخلصناها من أن لعصر العولمة الذى نعيش فيه حقائق، وأن أساليب قوى الهيمنة فيه والصهيونية تتطور، وكذلك أساليب مقاومتها. وقد دللت هذه الهجمات على تطور فى هذه الأساليب يستحق دراسة عميقة.

كثيرة هى النتائج التى سوف تكون لهذا الحدث الجلل فيما يخص صورة الولايات المتحدة، وعلى مختلف أبعاد النظام العالمى والأنظمة الإقليمية والصراعات، ومنها الصراع العربى الصهيونى. وإن لنا أن نتوقع مضاعفات وتداعيات لهذا الحدث تتتالى. ويبقى أن نحسن نحن العرب التعامل مع نتائجه ومضاعفاته وتداعياته بما يخدم مشروع الإنهاض العربى. وإحسان التعامل يقتضى قرن الفكر بالفعل لتحقيق مشيئة الله الذى هو بالمرصاد، ومن وراء قوى الطغيان القارونيين محيط.

القدس وحقائق دائرة الحضارة العربية الإسلامية

هذا حديث عن حقائق الدائرة الحضارية، مناسبته انعقاد ندوة «القدس ودائرتها الحضارية العربية الإسلامية» التى تنعقد بدوحة قطر بين ٢٦ و٣١/ ١٠/ ٢٠٠٠ بدعوة من اللجنة القطرية الدائمة لدعم القدس والبنك الإسلامى للتنمية وبيت الشرق.

لقد أشارت رسالة الدعوة إلى التحديات التى تواجه العرب مسلمين ومسيحيين والمسلمين بعامة فى قضية القدس اليوم، وأوضحت أن هدف الندوة هو تحليل هذه التحديات، والنظر فى مدى الاستجابة لها ضمن حقائق دائرة الحضارة الإسلامية.

كما بيَّنت حيثيات الدعوة أن «تهويد القدس وسلخ هويتها وإزالة معالمها الإسلامية هو اعتداء غاشم على المسلمين وحرب دينية يشنها المتطرفون على ماضى المدينة وحاضرها ومستقبلها»، ولذا لابد من توجيه الأنظار إلى الأخطار المحيطة بالقدس، ودعوة المجتمع الدولى لأخذ مسئولياته فى تطبيق الشرعية الدولية.

الصلة وثيقة بين القدس ودائرتها الحضارية، فبيت المقدس هو حاضرة فلسطين و«عين القلب من العالم الإسلامى» جغرافيًا ودينيًا، على حد

تعبير عالم الجغرافيا السياسية جمال حمدان، وهو الأرض التى باركها الله، وجعلها واحدة من منائر العلم فى دائرتنا الحضارية. والقدس هى «صرة الوطن المقدس وملتقى أقطاره»، كما أوضح إسحق موسى الحسينى. والخطر الذى يتهددها بفعل الاستعمار الاستيطانى الصهيونى العنصرى لها يتهدد فى الوقت نفسه الدائرة العربية والدائرة الإسلامية بعالميهما العربى والإسلامى، ولم تكن محاولة حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ إلا رمزًا ومؤشرًا لما ينتظر العالم الإسلامى من التحالف الاستعمارى الصهيونى، وقد دأب علماؤنا عبر العصور على شرح هذه الصلة الوثيقة، والكتابة فى فضائل بيت المقدس.

يأتى انعقاد هذه الندوة فى وقت تجلى فيه الخطر على القدس، كما لم يحدث منذ حروب الفرنجة قبل ثمانية قرون، فقد كشفت مفاوضات ما سمى بالوضع النهائى فى عملية التسوية الجارية لإنهاء الصراع العربى - الصهيونى عن المخططات الصهيونية تجاه القدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية فيها، وكذلك عن الدعم الأمريكى لهذه المخططات، وما كان كثيرون يحسبون أنهم يعيشون إلى زمن يسمعون فيه مصطلح «جبل الهيكل» للدلالة على الحرم القدسى بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وأن يطالب الصهاينة والقارونيون ببسط السيادة الإسرائيلية عليه توطئة لهدم الحرم القدسى، وبناء هيكل مكانه، ويمارسون أشد أنواع الضغوط لإملاء اتفاق بذلك.

ولقد كشفت مفاوضات كامب ديفيد الثانية فى ٧/ ٢٠٠٠م أن بالإمكان الصمود أمام هذه الضغوط بفضل دعم عربى إسلامى للطرف

الفلسطينى، وتشير الأحداث الجارية أثناء كتابة هذا الحديث فى الأسبوع الثانى من شهر ٩/ ٢٠٠٠م إلى احتمال الوصول إلى اتفاق يقبل به الطرف الفلسطينى المفاوض ينص على سيادة فلسطينية على الحرم وعلى سيادة إسرائيلية على حائط البراق وحى المغاربة، فضلاً عن أمور كثيرة تمكِّن الاستعمار الصهيونى الاستيطانى من اغتصاب غالبية القدس الكبرى، وهكذا ينتمى هذا الاتفاق إلى الاتفاقات المملاة التى يعلمنا التاريخ أنها لا تستمر، ومن هنا فإن من المحتوم أن تستمر قضية القدس حية، وأن يبدأ الجهاد من أجل تحريرها مرحلة جديدة لها أساليبها المتفقة مع ما سوف تسفر عنه عملية التسوية الجارية التى أطلق عليها مصممها الأمريكى «عملية سلام الشرق الأوسط».

تتحمل دائرة الحضارة الإسلامية فى هذه المرحلة الجديدة مسئولية كبيرة فى معالجة قضية القدس، والسعى لتحرير بيت المقدس، ومن هنا تأتى أهمية استذكار حقائق هذه الدائرة الحضارية التى تجمعها «وحدة العقيدة والتاريخ المشترك والواقع المعاش ووحدة المصير»، كما جاء فى شرح محاور الندوة وموضوعاتها.

إن لنا بين يدى ذلك أن نستحضر مدلول مصطلح الدائرة الحضارية الذى يدل «على حضارة نشأت وازدهرت فى رقعة من الأرض، يسكنها أقوام وملل وشعوب وقبائل وأمم شاركوا فى إقامتها، وانتموا إليها بثقافاتهم المحلية والقطرية». وهذا المصطلح متصل بالثقافة والحضارة والعُمران، وهو شائع الاستخدام فى التاريخ الحضارى الذى سجّل قيام مجتمعات حضارية، وازدهار حضارات فى دوائرها، وأكد حقيقة تعدد

الحضارات، وهكذا فإن مفهوم الدائرة الحضارية يتضمن عنصرًا جغرافيًا يمثل المكان، وآخر بشريًا سكانيًا يضم المقيمين فى المكان، وثالثًا تراثيًا ثقافيًا حضاريًا عمرانيًا، تحكمه رؤية كونية يوفرها الدين فى غالب الأحيان والفلسفة الوضعية حينًا، كما فى العلمانية الغربية.

الواقع الحضارى فى عالمنا يشير إلى أن دائرة الحضارة العربية الإسلامية هى واحدة من ثمانى دوائر حضارية، والحضارات السبع الأخرى هى الغربية بفرعها الأوروبى والأمريكى الشمالى، والأمريكية الجنوبية، والصينية الكونفوشيوسية، واليابانية، والهندوكية، والأرثوذكسية السلافية، والأفريقية، ولكل من هذه الدوائر حلقة مركزية تحيط بها حلقات تنتهى بمحيطها حيث التخوم.

إن الحلقة المركزية فى دائرتنا الحضارية هى جزء من الوطن العربى فى جناحه الشرقى، وفلسطين والقدس فى بؤرتها، وتشغل هذه الدائرة قلب قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا - العالم القديم - وتجاور خمسًا من الدوائر الحضارية الأخرى، وقد فصلنا شرح ذلك كله فى بحثنا العرب ودائرة الحضارة الإسلامية.

حقائق دائرة الحضارة الإسلامية

أول الحقائق حقيقة تاريخية هى أن هذه الدائرة تعيش فى ظل حضارة راسخة منذ أربعة عشر قرنًا، وتمتد جذورها إلى فجر الحضارة، ذلك أن هذه الحضارة الإسلامية استوعبت جميع الحضارات القديمة التى ظهرت فى مناطقها منذ بدأ العمران، وحكمتها بالرؤية الكونية المؤمنة التى جاء

بها الإسلام الحنيف. وقد شهدت ازدهارًا وتألقًا فى مختلف المجالات، وأسهمت فيها مع العرب أمم أخرى متنوعة الأقوام والملل وأنماط الحياة والشرائح الاجتماعية، وتتجلى وحدة التنوع فيها فى مظاهر كثيرة، وهناك مثلٌ واحد عليها فى مجال المعمار هو ما نراه فى بناء المسجد، من جامع عمرو فى الفسطاط، إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى القدس، إلى جامع القرويين فى فاس، إلى جامع قرطبة فى الأندلس، إلى المدرسة فى سمرقند، إلى مساجد العراق والشام، وجامع القيروان، والجامع الكبير فى صنعاء، ومساجد استانبول، وتاج محل وجامع تمبكتو وغيرها، فجميعها مساجد يذكر فيها اسم الله، وإن تنوعت طرز المعمار، والأمر نفسه فى الكنائس، والشعور بالانتماء إلى هذه الحضارة عامٌ بين أبنائها، وقد تعرضَت شأن بقية الحضارات إلى الضعف بسبب غلبة التقليد وعوامل أخرى، وبدأت طور انبعاث حضارى منذ أكثر من قرنين يشق طريقه تدريجيًا.

حقيقة ثانية: حين ننظر فى جغرافية دائرة الحضارة الإسلامية، نجد أن محيطها يتحدد بنصف الكرة الشمالى، وبنصف الكرة القديم على حد تعبير جمال حمدان، ويمتد في قوس من بكين إلى كازان إلى بلغراد فى الشمال، أو فى قاطع من فرغانة إلى غانا، وآخر من جبل طارق إلى سنغافورة، ويمتد فى الجنوب على محور من السنغال حتى الفلبين، وطولانيًا من نهرى الفولغا والدانوب حتى الزبيزى والليموبو، ويتميز هذا الموقع الجغرافى بأهميته الاستراتيجية على صعيد الكوكب الأرضى، وقد تحدث مالك بن نبى عن خط طنجة - جاكرتا فى هذه الدائرة فى

جنوب عالمنا مقابل خط موسكو - واشنطن فى شماله.

هذه الدائرة الحضارية الإسلامية الكبيرة المساحة تضم عدة دوائر متحدة المركز كالحلقات، منطقة النواة فيها وقلب الدائرة هو الوطن العربى. وقد صنف حمدان ست حلقات، وهى تشمل داخلها «عوالم» على حد تعبير مالك بن نبى، الذى عدد خمسة منها هى الأسود الأفريقى، والعربى، والإيرانى الذى يضم فارس وأفغانستان وباكستان، والماليزى الذى يضم أندونيسيا والملايو، والصينى المنغولى. ونضيف إليها التركى من وسط آسيا إلى آسيا الصغرى.

حقيقة ثالثة: تضم دائرة الحضارة الإسلامية أكثر من خُمس سكان العالم الذين تجاوز عددهم خمسة مليارات نسمة، وهذه النسبة فى ازدياد، فبينما كانت بحسب تقدير جمال حمدان فى مطلع السبعينيات ١٥ بالمائة، أى ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مليون، غدت ١٩ بالمائة فى مطلع التسعينيات، أى مليار ومائة مليون، وتوقع المهدى المنجرة أن تصل عام ٢٠٢٠م إلى ٢٠,٥ بالمائة. وقد تابع المصطفى الرزرازى تقدير النمو السكانى فى هذه الدائرة، فتوقع أن ترتفع النسبة إلى ٢٣,٣ بالمائة من سكان العالم مع بداية الألفية الثالثة، وتبلغ عام ٢١٠٠ حوالى ٤٠ بالمائة، أى ٤٤١٢ مليون نسمة من مجموع ١١٠١١ مليون نسمة، وذلك فى بحثه فى ندوة «حوار الحضارات أم صراع الثقافات؟»، فى الوقت الذى يتناقص فيه عدد سكان أوروبا إلى «عجز مطلق» على حد تعبيره. ومجمل القول، كما لاحظ جمال حمدان: «إن الإسلام فى توسع دينامى مطرد بعيد المدى» من حيث النمو العددى، وأكثر من

نصف سكان الدائرة فى آسيا، وربعهم فى أفريقـيا، ويتوزع الباقون على أوروبا والأمريكتين واستراليا.

وتتعـدد الأقوام والألسنة فى دائرة الحـضارة الإسـلاميـة، من عرب وإيرانيين وترك وهنود وأفغان وسودان ومالـيزيين وكرد وأمازيغ وصينيين وأوروبيين وأمريكيين. وتتعدد الملل من مسلمين ومسيحيين ويهود وأتباع ديانات أخرى. وتتـعدد المذاهب فى كل ملة، ولافتٌ أن جـميع هؤلاء يستشعرون انتـماءهم للحضارة الإسلامية، وإسهامهم فـيها. كما لاحظ جيمس كريج وهو يصف مـشاركة المسيحيين العـرب إخوانهم المسلمين العرب الاعـتزاز بحضارة الإسـلام، وقد فصَّل كتـاب عرب مسيـحيون شرح هذا الأمـر، من أدمون رباط إلى الأب جورج خـضر، إلى الأب جورج قنواتى إلى إدوار غالى ذهبى وغيرهم.

حقيقة رابعة: فى دائرة الحضارة الإسلامية اليوم دول كثيرة تتراوح فى مساحـاتها وعدد سكانها بين كبـيرة وصغيرة جدًا. وقـد رسمت القوى الاستعـمارية فى أغلب الأحيان الحـدود السياسية لـهذه الدول، بعد أن استعمرت أغلب أقطار الدائرة وجزأتها، وذلك فى عملية «بلقنة حادة». وهكذا أصبح الوطن العربى يضم اثنين وعشرين كيانًا وجنسية. وقد نجم عن هذه العمليـة توزع قوم مثل الأكراد فى موطنهم الـواحد بين خمس دول، ولافت أن الخـريطة السيـاسـية لهـذه الدائرة تتـباين مع خـريطة الأقوام، وهى حافلة بمشاكل الحدود بين الدول المتـجاورة حول السيادة، ويعانى الناس بفعل ذلك على صعيد التنقل والإقامة والعمل، بدوًا وريفًا وحضرًا.

وتتعدد أنظمة الحكم التى تتبعها دول دائرة الحضارة الإسلامية، من ملكية إلى جمهورية إلى جماهيرية، والغالب عليها نقص حاد فى الشورى والمشاركة والتعددية، ومن ثم تداول السلطة، وتبدو هذه الأنظمة خليطًا بين ما هو موروث وما هو مستورد، وبين ما هو نابع من البيئة وما هو مفروض عليها، وتتميز غالبًا بكثرة الصيغ التى جربتها، وتأثرها بالنظام الشمولى، ومحاولة الدولة فرض هيمنتها على مناحى الحياة، وتحسبها من العمل الأهلى، ونجم عن هذه الأوضاع صدع فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأزمة فى القيم الاجتماعية، وخلل فى نمط التنمية تفاقم بفعل التقليد، وضعف فى سيادة القانون، وانتهاك لحقوق الإنسان.

وتشارك دول هذه الدائرة فى منظمة المؤتمر الإسلامى التى تأسست عام ١٩٦٩ إثر جريمة حرق المسجد الأقصى التى دبرتها «إسرائيل» وقد انبثقت عن هذه المنظمة مؤسسات مختصة ثقافية واقتصادية مثل البنك الإسلامى للتنمية والمنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة والتربية، ولا يزال الرباط فى منظمة المؤتمر الإسلامى فى حده الأدنى، وتفتقر هذه الدول فيما بينها إلى وجود مؤسسة مرجعية واحدة مثل الاتحاد الأوروبى ومؤسساته، وتتباين أدوار روابط علماء الدين بين دولة وأخرى، وهناك نشاط فى جمع هؤلاء العلماء فى محافل، وحد أدنى من التواصل بين قيادات المذهبين السنى والشيعى، وتقع أحيانًا محاولات لتوثيق الروابط بين دول الدائرة، مثل محاولة رئيس الوزراء التركى الأسبق أربكان إقامة تجمع اقتصادى يجمع بين ثمانى دول منها.

وتحفل دائرة الحضارة الإسلامية بثروات كثيرة إنسانية وطبيعية، ولكنها تعانى فى الوقت نفسه وقوع دُولها فى أسر الاستدانة، ومن ثم فى قيد التبعية، والتباين شديد فى توزيع الثروة بين هذه الدول بسبب الكيفية التى رسم بها المستعمر الغربى الحدود السياسية بعد أن قسّم الدولة الإسلامية الواحدة التى حكمها نظام الخلافة، والتى كانت تفصل بين الأقطار فيها خطوط إدارية، ولا تكاد توجد دولة بين هذه الدول يتحقق فيها توازن بين الثروة الإنسانية والثروة الطبيعية، وقد برزت بينها مشكلات لم تعرفها من قبل المنطقة مثل مشكلة المياه، وجُلّها يعتمد فى غذائه على مصدر خارجى بنسبة عالية تكرس تبعيته.

حقيقة خامسة: لعل من أخطر حقائق واقع دائرة الحضارة الإسلامية أنها تعانى منذ أكثر من قرن غزوة صهيونية استعمارية استيطانية استهدفت قلب الوطن العربى الذى هو قلب ديار الإسلام، وقامت الدول الاستعمارية الأوروبية وبخاصة بريطانيا بدعم هذه الغزوة لتمكين سيطرتها على منطقتنا. وقد دخلت هذه الغزوة مرحلة جديدة بعد زلزال الخليج، خططت قوى الهيمنة الغربية فيها، وبخاصة الأمريكية منها، لتوظيف «الكيان الإسرائيلى» فى إحكام التسلط على الدائرة من خلال فرض نظام الشرق الأوسط على دولها، وباشرت من أجل ذلك ما أسمته «عملية سلام الشرق الأوسط» منذ مؤتمر مدريد فى خريف عام ١٩٩١، وأعلنت اتفاقات أوسلو التى فرضت على قيادة منظمة التحرير التسليم باغتصاب إسرائيل حوالى ٨٠ بالمائة من فلسطين، كما أملت على دول عربية الاعتراف بإسرائيل، و«فلسطين هى عين القلب من

العالم الإسلامى، لا جغرافيًا فحسب، بل ودينيًا أولاً وقبل كل شىء على حد تعبير جمال حمدان، و«تهديد الخطر الصهيونى لا يقتصر على العالم العربى وحده، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامى»، وقد برز فى هذه المرحلة شعار «الاعتصام بالمقاومة» لمواجهة هذا الخطر بغية استمرارها وتصعيدها.

كما أن دائرة الحضارة الإسلامية تواجه استراتيجية غربية تضعها نصب العين هدفًا أولاً معاديًا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وقد أعلن سكرتير حلف الأطلسى ذلك رسميًا بعد زلزال الخليج، وقامت مراكز البحث الأمريكية بالتنظير لهذه الاستراتيجية، وطرح فكرة الصدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وتتضمن هذه الاستراتيجية تصوير أى «نهوض حضارى إسلامى» على أنه خطر على الغرب، واعتبار أى شكل من أشكال مقاومة الهيمنة «إرهابًا»، كما تتضمن إحكام السيطرة على دائرة الحضارة الإسلامية بفرض نظام الشرق الأوسط والعولمة.

حقيقة سادسة: تشهد دائرة الحضارة الإسلامية منذ عقدين من السنين «صحوة» قوامها وعى الذات ومعرفة الآخر بجوانب قوته وضعفه، والوثوق بقدرة الأمة على مواجهته، والانتصار عليه فى صراع النفس الطويل، وتحقيق النهوض، وبلوغ الأهداف، وإعلاء كلمة الله فى الأرض، والدعوة إلى العمران، وقد تبلورت هذه الصحوة بفضل تيار الاستجابة الفاعل، وبعد أن تبين للناس إخفاق التخريب الانغماسى بكل أشكاله وأسمائه وعظم ما يسببه من كوارث، ومن مظاهر هذه الصحوة «الانتفاض» الذى هزم «الوهن» فى انتفاضة شعب فلسطين العربى، وفى

المقاومة فـى جنوب لبنان، وتعم روح الانتفاض هذه تدريجيًـا، وتتجلى أيضًا فى جهود بناءة تبذل على مختلف الصعد الفكرية والعملية.

حقيقة سابعة: هى وجود جاليات كبيـرة من أبناء الحضارة الإسلامية فى دائرة الحضارة الغربية بفرعيها الأوروبى والأمريكى، واكتساب كثيرين من هؤلاء مواطنة الدول الغـربية التى يقيمـون فيها، وتجـرى بفعل هذا الوجـود الجديد عـملية تفـاعل حضـارى يأخذ أبعـاده فى عصـر ثورة الاتصال والمعلومات، وقد عنى عدد من الباحثين فى كل من الحضارتين بدراسة هذه الظاهرة، ومنهم كاتب هذا الحديث الذى نشـر مؤخرًا مقالاً يلفت النظر إليهـا ويحللها، ولافت أن أصواتًا غربية بدأت تـرتفع منبهة إلى إيجابيات هذه الظاهرة، ومن هؤلاء المفكر السويدى انغمار كارلسون الذى كتب الإسـلام وأوروبا: تعايش أم مجابـهة؟ فنّد فيه خطأ مـقولة صراع الحضارتين الغربية والإسلامـية، وحذر من خطرها، وقد سعدت بقراءة هذا الكتـاب الذى وصلنى وأنا أكتب هذا الحديث، وهو يسـتحق حديثًا مستقلاً مفصلاً.

فمـا أكثر ما توحى به حـقائق دائرة الحضـارة الإسلامية فى تاريخـها وواقعها، من أجل صنع مستقبلهـا، وما أعظم التحديات التى تواجهها، وما أروع ما يمكـن أن تكون عليه الاستجـابة العمرانية الحضـارية لهذه التحديات، وهى استجابة مطلوبة من كل الأمم والشـعوب المنتمية لهذه الحـضارة ومنهـا أمتنا العـربية بدولـها العـربية، وهذا يدعـو إلى بلورة استراتيجية عربية نحو دائرة حضارتنا الإسلامية.

استراتيجية عربية تجاه دائرة الحضارة الإسلامية

نعم . . الحاجة ماسة إلى انتهاج استراتيجية عربية متكاملة تجاه دائرة حضارتنا الإسلامية فى هذه المرحلة من تاريخنا، وفاء بحق أنفسنا، ومن أجل القيام بإسهام حضارى فى عمران عالمنا، وإنجاز هذا الأمر يفتح الباب واسعًا أمام قيام جميع الأمم والشعوب والدول فى الدائرة ببلورة الاستراتيجية الإسلامية المتكاملة تجاه حضارات عالمنا وعمرانه.

مناخ مناسب

إن المناخ السائد فى العالم المعاصر مناسب لازدهار فكرة تضامن دول دائرة الحضارة الإسلامية، والحديث عن مكان الدائرة ودورها يتردد فى أوساط المفكرين فى عالمنا على اختلاف اتجاهاتهم، ومن هؤلاء السويدى انغمار كارلسون صاحب كتاب «الإسلام وأوروبا: تعايش أم مواجهة؟»، وبول كينيدى الذى أفرد فصلاً خاصًا فى كتابه «الإعداد للقرن الحادى والعشرين»، انتهى فيه إلى خلاصة: «إن العالم الإسلامى يفتقد ثقافة المشروع» على حد تعبيره، فى إشارة تتحدانا كى نوفّر ثقافة المشروع هذه، وقد سبق أن شرحنا فى كتاب المستقبل برؤية مؤمنة فى مطلع التسعينيات ماهية فكرة التضامن هذه التى تشير إلى «علاقات تعاون وتكافل تقوم بين المنتمين للحضارة الإسلامية شعوبًا وحكومات ودولاً، وتنطلق من هذا الانتماء، ومن استشعار وجود رؤية كونية مؤمنة تجمع بينهم»، كما أوضحنا تفاعل عامل داخلى يحث على الوحدة مع عامل خارجى يتمثل فى تحديات قوى الهيمنة مع واقع عالمنا، عالم الكتل الكبيرة وثورة الاتصال والمشكلات العالمية فى صنع فكرة التضامن هذه،

وانتهينا إلى إثبات ثلاث حقائق بشأنها هى أصالتها فى ضمير الأمة، ووجود معوقات وصعوبات وعقوبات أمام تنفيذها، وفى الوقت نفسه وجود ما يفرض اليوم الاشتغال بها، والتغلب على العقبات بغية تحقيقها، والواقع القائم يؤكد هذه الحقائق فى ختام التسعينيات.

تساؤلات حيوية

إن إمعان النظر وإعمال الفكر فيما ينبغى أن تكون عليه هذه الاستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرتنا الحضارية الإسلامية، يضعنا أمام تساؤلات حيوية حول كيفية تعزيز الوثائق والروابط فى هذه الدائرة على الصعيدين الشعبى والرسمى، وكيفية معالجة صراعات ونزاعات محتدمة داخلها فى القطر الواحد أحيانًا، وبين قطر وآخر أحيانًا أخرى، وكيفية تنظيم العلاقات داخلها وبين نواتها العربية وشقيقاتها فيها، وكيفية اعتماد الاستراتيجية عربيًا، وتصل بنا محاولات الإجابة عن هذه التساؤلات إلى مجموعة أفكار نطرحها فى ختام هذا الحديث.

أفكار

الفكرة الأولى: التوعية بحقيقة الانتماء الحضارى لدائرة الحضارة الإسلامية، أفرادًا وشعوبًا وأممًا ودولاً، وتكامل هذا الانتماء مع الانتماء الوطنى والانتماء القومى فى دوائر الانتماء الثلاث الوطنية والقومية والحضارية التى لا تناقض بينها، والحرص على عدم الانجرار إلى اصطناع تناقض من خلال تعصب مقيت فى الأسرة الواحدة، أو بفعل نزاعات تاريخية نشبت وأخرى قد تنشب، وإدراك أن هذا الانتماء الحضارى يقوم على الرؤية الكونية المؤمنة، والاعتزاز بألسنة أقوام الدائرة

مع تبجيل اللسان العربى الذى أنزل الله به القرآن الكريم، واستحضار تاريخ مشترك طويل، وهذه العناصر الثلاثة هى أركان الهوية الحضارية. وهكذا يدرك الجميع، كل على مستواه، أنه فضلاً عن انتمائه الوطنى وانتمائه القومى منتمٍ لحضارته الإسلامية التى شارك الجميع فى تشييدها، وتسهم فى هذه التوعية مناهج التربية وبرامج التثقيف العامة التى تعممها وسائل الإعلام، وتعتمدها الحكومات سياسة لها.

الفكرة الثانية: القيام بقراءة موضوعية منصفة للحضارة الإسلامية نابعة من الذات، مستنيرة بآراء الآخرين، معتمدة نظرة نقدية عادلة تلاحظ الإيجابيات والسلبيات على السواء، وتعميم هذه القراءة من خلال التوعية، والحق أن الحاجة ماسة لهذا الأمر فى واقع تسود فيه بين قطاع واسع من المثقفين والمتعلمين قراءة أبسط ما يقال فيها افتقارها للعمق ونقلها رأيًا آخر متحيزًا ظهر فى أوساط الحضارة الغربية، وجرى تعميمه بوسائل مختلفة من بينها مناهج تعليم متبعة فى بعض المدارس، وتقدم هذه القراءة الحضارة الإسلامية على أنها كانت محكومة باستبداد الحكام، شأن حضارات أخرى شرقية، فالشرق عند هؤلاء «استبداد» وعالم الإسلام الحضارى جزء من هذا الشرق، وهكذا بكلمتين يُقدم تاريخ كامل، وما أكثر الأمثلة على الخطأ والخلط والتعصب والتحيز فى قراءة هؤلاء، وقد قدم انغمار كارلسون فى الفصل الأول من كتابه نماذج منها، ونبه إلى أنها تنتهى «إلى حكم بانحطاط الشرق وعجز الشرقيين عن التفكير بشكل منطقى وتخلفهم فى جميع ميادين الحياة، بل والقول: إن الإنسان العربى، وكذلك الإنسان المسلم، لا يمكن أن

يتطور أو يتـقدم، وبناءً على هذا الاعتـقاد غدا مـقبـولاً الادعاء بأنه لا ينبغى تمكين العرب من التعبير عن ذاتهم».

ويضيف كارلسـون قائلاً: «ولقد تقبل الكثيـرون هذا الادعاء الغريب بمن فيهم شخص من طراز كارل ماركس بـأن العرب لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، فكتب يقـول: «إنهم لا يستطيعون أن يمـثلوا أنفسهم، ويجب تمثيلهم».

إن القراءة الموضوعية المنصفة لحضارتنا تتصف بالنظرة الشاملة، وتعنى بما أسماه البـعض التاريخ الأكبر، وهو التاريخ الحـضارى الشامل، ولا تقتصر على إيراد جزئيـات تتعلق بتاريخ الحكام فقط، وهى لذلك تجعل من التاريخ حافزًا بدل أن يكون عبئًـا، وما أغنى ما يمكن أن تثمره هذه القراءة وتعميمها على أبناء حضارتنا.

الفكرة الثـالثة: تقوية الروابـط الشعبـية والرسمـية فى دائرة الحـضارة الإسلامية، وهذا يقتضى تواصل المؤسـسات الأهلية فى مختلف الميادين بعضها مع بعـض، واعتمادها برامج تستهدف توثيـق العلائق والتعاون، كما يقتضى العناية بـ «النظـام الإسلامى» الرسمى. ومعلوم أنه منذ إنهاء «نظام الخلافة» فى دائرتنا عام ١٩٢٤ والشـعور بالحاجة إلى إطار يجمع الدول فى العالم الإسلامى مُلحّ، وقد أسهم فى تحقيق فكرة إقامة منظمة دول المؤتمر الإسلامى الذى انعقد عام ١٩٦٩ بعد محاولة إسرائيل إحراق المسجـد الأقصى، ولا يزال هذا «النـظام الإسلامى» الرسمـى فى حده الأدنى من الفعالية، واستمراره وانتظام انعقاد مؤسساته الرئيسة، وأعلاها القمة الإسلامية، يدل على إمكان تقويتـه وتطويره، ليصبح نظامًا إقليميًا

فاعلاً، يأخذ مكانه اللائق به بين الأنظمة الإقليمية فى عالمنا، وقد فصل كاتب هذا الحديث شرح النظام الإقليمى لدائرة الحضارة الإسلامية فى كتابه المستقبل برؤية مؤمنة، وأورد أحد عشر مبدأ له بلورها الفكر الإسلامى الحديث.

إن العناية بـ «النظام الإسلامى» تسير متزامنة مع العناية بـ «النظام العربى» المختص بالدائرة العربية ضمن دائرتنا الحضارية الإسلامية، ولابد من إقامة علاقة وثيقة بين النظام الإسلامى والنظام العربى، وأنظمة أخرى فرعية قائمة أو ستقوم داخل الدائرة.

الفكرة الرابعة: إعلان «النظام الإسلامى» «ميثاق استتباب السلام بين أعضائه»، والتزام الدول الأعضاء بهذا الميثاق وبحل المشكلات التى قد تنشب بين دولة وأخرى بروح الأخوة المنطلقة من الانتماء الحضارى، والمتمسكة بتعاليم الإسلام، والمحترمة للقانون الدولى، وهذا يعنى نبذ اللجوء إلى الحرب داخل دائرة الحضارة الإسلامية، ومعلوم أن الدول فى دائرة الحضارة الغربية وصلت بعد أن اكتوت بنيران حربين عالميتين طاحنتين فى النصف الأول من القرن العشرين إلى رفع شعار «لا حرب أخرى فى أوروبا» والتزمت به، وقد آن الأوان أن نرفع شعار «لا حرب بين الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى، ومعالجة الخلافات سلمًا»، إذ يكفى ما عانيناه من حروب بين هذه الدول فى النصف الثانى من القرن العشرين.

الفكرة الخامسة: وثيقة الصلة بسابقتها، وإنما نفردها لتأكيد أهميتها، وهى اعتماد «النظام الإسلامى» «مناطق التخوم»، القائمة على جوانب

«الحدود السياسية» المستحدثة للدول القطرية الأعضاء فيه، مناطق «وصل» وليس «مناطق فصل»، والنظر إليها على أنها «تصل» بين أقطار الدائرة، وتربط بين أبنائها، وتشهد أعلى نسبة فى التفاعل بين ثقافات حضارتنا، وتعبر عن مصالح دولنا المشتركة.

إن اتخاذ هذه الخطوة يترتب عليه معالجة جميع بؤر التوتر الحدودية القائمة اليوم فى دائرتنا الحضارية، وهى بؤر قصد المستعمر الغربى عند رسمه الحدود السياسية للأقطار أن يبقيها، كما قصد أن ينفُخَ فيها ويؤجِّج نارها بممارسة مفهوم متعسف للسيادة القطرية، لا ينظر أبعد من الأنف، قاصر النظر. وهكذا تتحول مناطق التخوم إلى مناطق مزدهرة، بعد أن عانت الأمرين منذ نشأة الدولة القطرية، وقد فصل كاتب الحديث شرح هذه الفكرة فى كتابه تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر.

الفكرة السادسة: عناية «النظام الإسلامى» وأنظمته الفرعية، ومنها النظام العربى والدول الأعضاء بالتواصل مع أبناء الحضارة الإسلامية المقيمين فى دائرة الحضارة الغربية بخاصة، والدوائر الحضارية الأخرى بعامة، ومنها الأفريقية والأمريكية الجنوبية؛ ومتابعة التفاعلات الحضارية الجارية فى أوساطهم، وتبادل التأثير بينهم وبين مجتمعاتهم الجديدة التى اكتسبوا مواطنتها، ذلك أن هذه الظاهرة الجديدة لها ما بعدها، كما سبق أن أشرنا.

ولابد من انتهاج سياسة تجاه هذه الظاهرة تتسم بالاستجابة الفاعلة، وتعتمد على الدراسة المتعمقة، وتنأى عن ردود الأفعال، وتحرص على

العناية باللسان الأصلى وباللسان العربى وبالذاكرة التاريخية.

الفكرة السابعة: اعتماد «النظام الإسلامى» استراتيجية عمل لدائرة الحضارة الإسلامية، تأخذ فى الاعتبار واقع كل عضو فيه والظروف المحيطة به، وتحدد دوراً له فيها فى حدود ما يستطيع، مع الحرص على تكامل الأدوار ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾، و﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص﴾.

الفكرة الثامنة: اعتبار «قضية القدس» رمزًا لقضية فلسطين، واعتمادها قضية مصيرية لدائرة الحضارة الإسلامية، ووضع هدف تحريرها نصب عين «النظام الإسلامى» ونصب عيون أعضائه عضواً عضواً، وبلورة استراتيجية لبلوغ هذا الهدف، وإفشال «الحل العنصرى» لقضية فلسطين الذى تحاول قوى الهيمنة الغربية فرضه؛ لأنه ينتهى باغتصاب القدس وتهويدها.

وبعد.. فإن هذه الاستراتيجية العربية المتكاملة تجاه دائرة الحضارة الإسلامية، تتطلب كى يتم اعتمادها أن تكون محل حوار أهل الفكر والحل والعقد، ومحل بحث النظام العربى الرسمى، كى يتوافر لها الاقتناع بها اللازم لتنفيذها، وإن لنا ونحن نمضى مع القرن الخامس عشر الهجرى ومع مطلع القرن الحادى والعشرين الميلادى أن نستعين بالله لبلوغ هذا الهدف، ونقول القول السديد، ونعمل الصالحات، ونتواصى بالحق، ونتواصى بالصبر.. والله منجز وعده.

الفصل الثالث

من يوميات حرب العولمة

من يوميات حرب العولمة

هذه تأملات ونظرات فى الحرب التى يعيشها عالمنا المعاصر منذ خريف عام ٢٠٠١ الميلادى، كتبتها على مدى سبعين يومًا بين ٦/ ٢ و١٦/ ٤ متتبعًا فيها أحداث الحرب الجارية، وأنا أكتب هذا التقديم لها ظهر يوم الأربعاء ١٧/ ٤ مع انتهاء زيارة وزير الخارجية الأمريكى للمنطقة، والاجتياح الإسرائيلى بالأسلحة الأمريكية للضفة الغربية فى يومه العشرين، وقد قام الصهاينة العنصريون بجرائم فظيعة ضد الإنسانية أثناء ذلك فى المدن والقرى والنجوع الفلسطينية التى اقتحموها بجيش عرمرم مزود بالمدرعات والطائرات الأمريكية.

وكانت إدارة الرئيس بوش الابن الأمريكية قد أعطتهم الضوء الأخضر كى يقوم الكيان الإسرائيلى الذى يمثل قاعدة عسكرية أمريكية وصفها مسؤول أمريكى بأنها أكبر حاملة طائرات فى العالم، بالمهام التى حددتها فى المرحلة الثانية للحرب على جبهة فلسطين بعد أن كان تركيزها فى المرحلة الأولى على جبهة أفغانستان، وهاهو العالم يتابع مذهولاً ما بدأ يتكشف من حقائق عن هذه الجرائم التى اقترفها الجيش الإسرائيلى فى كل مكان دخله، وغدا ما وقع منها فى مخيم جنين بخاصة على كل لسان فى عالمنا.

بدأ هذا الفصل فى حرب العولمة يوم ٢٩/٣ فى أعقاب انعقاد القمة العربيـة الرابعة عـشرة يومى ٢٧ و٢٨/٣ التى قـدمت «مبـادرة سلام عربية» وقد واجه الشعب العـربى الفلسطينى هذا الاجتياح الإسرائيلى بمقاومة عظيمة فى إطار انتفـاضة الأقصى المستمرة فى ٢٩/٩/ ٢٠٠٠ على مدى ثمانية عشر شهـرًا، شهدت بطولات أسطورية للمقاومين، وتألق فيها نور الاستشهاديين، وهو لا يزال رافعًا راية المقاومة معتصمًا بها، متـمسكًا بحقه فى الدفاع عن وطنه ووجوده فى مـواجهة إرهاب الدولة الذى يمارسه التحالف الأمريكى الإسرائيلى.

كنت قبل كـتابة هذه اليومـيات الخاصـة بالمرحلة الثانيـة من حرب العولمة قـد وقفت متـأملاً أمـام ظاهرتين بارزتين اليوم فى عـالمنا هما ظاهرة العـولمة، وظاهرة المقـاومة لهـا، واسـتخـلصت من النظر فى الأولى أن «تشريح» العولمة وتفكيكها يبـين أنها تتألف من قوى العولمة الرأسمـالية التى تتجلى فـى الشركات عـابرة القارات، ومن الولايات المتحدة التى تقـوم هذه القوى، ومن نظام عالمى فرضتـه يتجاوز الأمم المتـحدة وله مـؤسسـاته التى منهـا حلف الأطلسى العـسكرى، كمـا استخلصت من النظر فى الثانية أنها برزت بعد أن تجلى ظلم العولميين وتسلطهم، وأنها تـضم مقاومين لـهذا الظلم والتسلط مـوجودين فى مختلف أنحاء المعمورة، وداخل أمريكا نفسها.

المناخ المحـيط عند كتـابة هذه السطور بفعـل ما قام بـه الاجتـياح الإسرائيلى من جرائم، واسـتمراره فى حصار كنيسـة المهد ببيت لحم واعـتقـالهم الآلاف من أبناء شـعب فلسطين، ومـا يصـدر عن إدارة الرئيس بوش من مـواقف هو مناخ يختلط فـيه ألم شديـد مع غضب

عارم مع عزم قوى لمواجهــة طغيان الدولة، وواضح أنه إذا كان العدو المزدوج قد حقــق أهدافه الإجرامية مــن هذا الاجتياح، فإن تــداعيات معركة جبهة فلسطين مستمرة فى الظهور فى ساحة العدو نفسه اهتزازاً للمشروع الاستعــمارى الصهيونى، وكشفًا لطغــيان الإدارة الأمريكية، وستبــقى المقاومــة ما بقى الاحــتــلال، وحتى تحــقق تحرير القــدس وفلسطين، كــما تؤكــد السلسلة النورانية لحلقــات الجهــاد الفلسطينى العربى ضد المشروع الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى.

قــراءة فى هــذه الحــرب الفــريدة

لســان حال دارس التــاريخ متــشوف المســتقــبل يقول: «يا لهــا من حــرب»، هذه التى يعيــشــها إنســان عالمنــا المعاصــر هذه الأيام، بين العولمــين القارونيــين الباغين بغــير حق من جهــة والمقاومــين للعولمة وفسادها الساعــين إلى عالمية عادلة من جهة أخــرى» وفرق بين العولمة المفروضة بالقوة الغاشمة والعالمية العادلة التى تحكمها قيم عليا ومكيال واحد.

وهو يتساءل «مــا قراءتنا لهذه الحرب الفريدة من نوعــها التى نشبت فى مطلع القرن الحــادى والعشرين الميلادى، الخُمس الــثانى من القرن الخامس عشر الهــجرى؟» وحين يتأمل باحثًا عن الجــواب تتتالى أسئلة أخرى «من هــى الأطراف المتقــابلة فى جبــهتى الحرب هــذه؟ ما هى الأفكار التى تحكم، والشعارات التى صاغوها ويرفعونها فيها؟ من هم الرموز فيهــا سواء من الذين تولوا كبرها من العولميــين القارونيين، أو من الذين يقاومون الطغيان؟ ما هى أبرز المعارك فيها؟ وأين تجرى؟»».

ويلاحظ دارس التاريخ أنه يــستحــضر بهذه الأمــثلة الأحوال المادية

السائدة والأفكار والشخوص والأحداث التى هى جماع القراءة التاريخية، ويستذكر الأحداث التى تتالت فى العقد الأخير من السنين، وأوصلت إلى الحدث الزلزلة الذى وقع يوم ١١/ ٩/ ٢٠٠١م.

لقد شهد ذلك اليوم شن هجوم على رمزين من رموز العولمة فى عالمنا، أولهما برجا مركز التجارة العالمى فى نيويورك، والآخر مبنى بنتاجون وزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن، وما أسرع مما تتالت تداعيات هذا الحدث الزلزلة، ومن هذه التداعيات قيام أمريكا وبريطانيا يوم ٧/ ١٠/ ٢٠٠١ بشن حرب على أفغانستان بغية القضاء على نظام طالبان الحاكم فيها، وتنظيم القاعدة الذى اتهمته بتدبير الهجوم، وقيام الكيان الصهيونى الاستعمارى الاستيطانى العنصرى التابع لهما بتصعيد حربه على انتفاضة الأقصى الشعب العربى الفلسطينى، بغية إنهائها والقضاء على مقاومته، ومنذ ذلك الحين، وتلك التساؤلات تتتالى فى البروز وتلح، والنظر فيها مستمر للوصول إلى أجوبة لها، وكان الحرص قويًا من أجل ذلك على متابعة الأحداث الجارية فيها، وتبادل الرأى بشأنها مع إخوة مختصين فى عديد من المحافل التى شاركت فيها خلال ستة شهور فى عدد من الأقطار.

أذكر من بين هذه المحافل مركزين علميين عربيين فى لندن التى زرتها فى الأسبوع الثانى من شهر ١٠/ ٢٠٠١، وكنت شاركت قبل ذلك فى اجتماع لمركز الدراسات فى اجتماع الهيئة العامة لمنتدى الفكر العربى فى الكويت فى مطلع ١١/ ٢٠٠١، ثم فى ندوة نظمتها خمس

جهات علمية عربية انعقدت فى عمان فى الأسبوع الثانى من الشهر نفسه، ثم فى دورة أكاديمية المملكة المغربية حوالى منتصف ذلك الشهر، ثم فى الملتقى الفكرى العربى الذى نظمته أمانة جامعة الدول العربية فى القاهرة يومى ٢٦ و٢٧/ ١١/ ٢٠٠١، ثم مؤتمر عربى عام لدعم المقاومة الانتفاضة فى بيروت فى ٢١ و٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١، ثم لقاءات رمضانية فى محاضرات وندوات، ثم شاركت بمحاضرة حول فلسطين: الإنسان والأرض ضمن مهرجان التراث والثقافة «الجنادرية» بالرياض فى النصف الثانى من شهر ١/ ٢٠٠٢، ثم فى لقاء فكرى فى منظمة العمل العربية بالقاهرة حول تداعيات الحدث الزلزلة يوم ٣٠/ ١، وآخر فى جامعة المنصورة يوم ٢/ ٢.

قصدت أن أذكر هذه المناسبات جميعها رغم تحسبى من الإطالة، وذلك لأمرين:

أولهما: أن يكون واضحًا أن ما تبلور لدىَّ من أجوبة عن التساؤلات هو ثمرة تفاعل جماعى على الصعيد الفكرى، والأمر الآخر هو الإشارة إلى كثرة المحافل التى هى منشغلة اليوم بهذه الحرب، فى وطننا وفى عالمنا على السواء، وليس ما ذكرته من خلال شهادة شخصية إلا مثل من بين أمثلة كثيرة أخرى، ولا عجب أن يكون هذا الانشغال عامًا؛ لأن ما يجرى خطير على صعد كثيرة، وله ما بعده.

تقف الولايات المتحدة الأمريكية طرفًا رئيسًا قائدًا لجبهة العولميين القارونيين فى هذه الحرب، وقد تولى رئيسها جورج بوش الابن الإعلان عن بدئها إثر الحدث الزلزلة، وأطلق عليها اسم «الحرب ضد

الإرهاب» وها هو فى خطابه حول حال الاتحاد يوم ٣٠/ ١/ ٢٠٠٢ يتحدث عنها، وقد رأيناه ينفخ فى أوارها قائلاً: «إنها مازالت فى بدايتها، وإن العالم بأجمعه ساحة قتال»، وسمى العراق وإيران وكوريا الشمالية واصفًا إياها بأنها «محور للشر يسلح نفسه لتهديد سلام العالم»، ونقلت وكالات الأنباء أن كلماته قوبلت بعاصفة من التصفيق وصيحات التأييد من أعضاء الكونجرس وكبار القادة العسكريين وغيرهم من كبار الشخصيات، وهكذا تبرز إدارة بوش الأمريكية، ومعها كبار القادة العولميين فى أمريكا قيادة لهذه الجبهة.

نرى بريطانيا قائمة بدور المساند، وقد انطلق رئيس وزرائها تونى بلير فى دعم الرئيس الأمريكى بحكم العلاقات الخاصة التى تقوم بين الدولتين، ونرى أيضًا دولاً أوروبية أخرى قبلت دخول «الحلف ضد الإرهاب» الذى دعت إليه الإدارة الأمريكية، ثم نرى دولاً أخرى فى عالمنا دخلت فى هذا التحالف، أو أعلنت استعدادها لتقديم مساعدات له، رغبة أو رهبة.

لقد برز الكيان الإسرائيلى فى هذه الجبهة منذ اللحظة الأولى فى الحرب تابعًا للولايات المتحدة يقوم بالدور المحدد له فى الاستراتيجية الأمريكية من جهة، ومُعبرًا فى الوقت نفسه عن صهيونيته العنصرية، فكان أن صعّد حربه على شعب فلسطين العربى، وانتفاضة الأقصى.

بالمقابل نرى فى جهة الحرب الأخرى من الأطراف المستهدفة، فضلاً عن شعب فلسطين العربى جميع الفصائل المقاومة لطغيان العولمة، وتنظيمات المجتمع المدنى التى تطالب بالعدالة فى أوطانها، ودولاً بعينها أعلنت واشنطن عن استهدافها لها فى حربها.

الفكرة الرئيسة التى تسيطر على دعاة الحرب فى الولايات المتحدة الأمريكية، هى القضاء على جميع صور المقاومة لشطط العولمة، وإخضاع المقاومين، وفرض إذعانهم للسياسات الأمريكية، وقد تسلطت هذه الفكرة على قوى الهيمنة بعد أن نجحت القطبية الأمريكية الواحدة فى تأكيد تفوقها العسكرى على بقية دول العالم الأمر الذى كفل لها عدم بروز معارضة لها بين غالبية هذه الدول، فكان أن ضاقت بما برز فى أوساط مختلف المجتمعات من مقاومة ومقاومين، وبخاصة وأن أسلحة تفوقها العسكرى لم تنجح فى إسكات المقاومة وإخضاع المقاومين.

بغية تبرير هذه الفكرة عمد القارونيون الجدد إلى محاولة وصم المقاومة بأنها «إرهاب» والمقاومين بأنهم «إرهابيون» وتولت مراكز البحث تنظير ذلك، تمامًا كما نشطت الآلة الإعلامية التى يمتلكها العولميون فى تعميمه مع شعارات صاغوها لإقناع العامة فى دولهم «بالحرب ضد الإرهاب» ومن هذه الشعارات «أن الإرهابيين ناقمون على أسلوب الحياة عندنا، وهم يسعون إلى تغييره».

بالمقابل نجد أن الفكر الرئيسة التى توجه المقاومين لطغيان العولمة والعولميين، هى السعى إلى تحقيق العدل ليستتب سلام حقيقى، وبغية إنقاذ الإنسان وأمه الأرض والبيئة الحياتية فيها من أخطار طغيان القارونيين الجدد، وبغيهم بدون حق، وهذا العدل الموصل للسلام هو ما أمر به خالق الكون، وما أقره القانون الدولى.

يرفع هؤلاء المقاومون للطغيان فى صمودهم ودفاعهم شعارات «العدل والاعتصام بالمقاومة والتصدى لإرهاب الدولة الذى تمارسه

الولايات المتحدة والكيان الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى العنصرى الإسرائيلى التابع لهـا»، ويتولى «مفكرون» شرح ذلك، فيـقوم إعلام المقاومة بتعميم هذا الشرح.

لافت هنا أنه كـما يوظف العـولميون فى إعـلامهم ثورة الاتـصال بقوة، فإن المقاومين للعولمة يـوظفون هم أيضًا هذه الثورة، وقد أفادوا من وسائلها وبخاصة من شبكة المعلومات.

برزت فى هذه الحرب رمـوز لها على جبهـتيها من خـلال أحداث الشهـور الخمـسة التى مضـت على نشوبها، فـعلى جبـهة العـولميين القـارونيـين برز الرئيس الأمـريكى جورج بوش الابـن، ومعـه وزير الحرب «الدفاع» فى إدارته «رامسفيلد» وقياديين عسكريين آخرين، كما برز مجرم الحرب شارون، ومجرم الحـرب بن إليعازر، ومجرم الحرب شاؤول موفـاز من الصهاينة الإسرائيليـين العنصريين، ومعـهم مجرم الحرب شيمون بيـريز الذى يتولى التحركات السياسيـة والدبلوماسية، وبرز للسبب نفسـه الأمريكية كوندوليسـا رايس وكولن باول، وغدت أسمـاء هؤلاء ومـعهم «تونى بليـر» فى سجل من يقـودون كبـر هذه الحرب.

على جبهة المقاومين برز الاسـتشهاديون الذين حملوا أرواحهم على راحاتهم، واستطاعوا أن يهزوا تسلط القـارونيين، ويبددوا ما كان لهم من «هيبـة القمع» ويفـرضوا عليـهم المراجعة، وسـوف تبرز أسـماء مقاومين من مـختلف الأقطار التحقوا بجبهة المقـاومة، والساحة التى أرهصت أحداثها بنشوب هذه الحرب، هى فلسطين التى شهدت أفظع

صور عسف العولميين وقمعهم بما اقترفه الصهاينة العنصريون فيها من جرائم ضد شعبها المقاوم بدعم أمريكى غير محدود، وقد جاءت انتفاضة الأقصى حلقة أخرى من حلقات سلسلة المقاومة التى تواجه التحالف الاستعمارى الصهيونى، فأوجدت مناخًا صالحًا لترعرع المقاومة، مهدت له أفضل تمهيد المقاومة فى جنوب لبنان التى نجحت فى تحريره، وقد أدى تصعيد العسف والقمع الصهيونى ضد هذه المقاومة والدعم الأمريكى المادى والمعنوى له إلى الرد المقاوم بعمليات ضد طرفى التحالف، ولا تزال فلسطين هى الساحة الرئيسة التى تجرى فيها هذه الحرب، وقد اختارت الولايات المتحدة ساحة أفغانستان ساحة أخرى لهذه الحرب لأسباب كثيرة، واستطاعت أن تقضى على نظام طالبان الذى كان يحكم أفغانستان، ولكن الأمور لم تحسم نهائيًا هناك بعد، وتصاعد التوتر بين الجارتين الهند وباكستان، وأدى ما اقترفته أمريكا من جرائم ضد المدنيين فى غارتها، ثم فى معاملتها للأسرى إلى احتجاج عالمى يتزايد على انتهاكاتها للقانون الدولى.

ساحات أخرى مؤهلة لتشهد معارك فى هذه الحرب من خلال ما يتتالى من تداعيات، والمشهد العالمى ينذر بحرب عالمية إذا لم تفرض الأحداث على العولميين القارونيين المراجعة.

إنها حقًا حرب فريدة، ويا لفظاعة ما تعد به من دمار فى ظل غطرسة القوة التى يلوح بها العولميون، وحماقة من تولوا كبرها وعنصرية الصهيونية والمستعمرين المستوطنين الصهاينة، فهل تحدث المراجعة فتحول دون انتشارها هذه الحرب؟

إن استمرار المقاومة للطغيان القارونى العولمى فى فلسطين، وفى

مواقع كثيرة من عالمنا هو السبيل لفرض المراجعة على العولميين، وقد بدأت نذر ذلك بالظهور، فها هو الاتحاد الأوروبى بمعظم دوله يتململ من أسلوب إدارة بوش الأمريكية لهذه الحرب، وهاهى دول كثيرة أخرى فى عالمنا متربصة، وسيبقى شعار العدل سبيلاً للسلام الحقيقى يفعل فعله، وسوف يكون تحرير فلسطين والقدس هو الهدف، وهو المؤشر حين يتحقق على انتصار العدل.

المشهد العسكرى الراهن

أعلنت قيادة العولميين يوم ١١/٣/٢٠٠٢ بدء المرحلة الثانية من الحرب التى يشنونها ضد المقاومين للعولمة المتصدين لطغيان العولميين، جاء ذلك الإعلان على لسان جورج بوش رئيس دولة الولايات المتحدة التى تقودهم، فى احتفال بالبيت الأبيض فى ذكرى مرور ستة أشهر على الهجوم الذى استهدف مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية «بنتاجون» يوم ١١/٩/٢٠٠٢.

ماهى قراءة «المعنى بالتاريخ متشوف المستقبل» لهذا الإعلان؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضى بداية النظر إلى المشهد الراهن لهذه الحرب على صعيدها العسكرى، فى مختلف الجبهات المفتوحة فيها، وما يحمله هذا المشهد من احتمالات فتح جبهات أخرى، وهذا ما نحاوله فى هذا الحديث، كما تقتضى الإجابة أيضًا التعرف على توجهات طرفى الحرب وتحركاتهم فى هذه المرحلة، ومن ثم تحليلها فى ضوء تقويم حصيلة المرحلة الأولى من الحرب، وتقتضى أيضًا الوقوف أمام سمات هذه الحرب بغية تشوف مستقبلها، وتحديد ما

يمكن للمقاومين للعولمة من كسبها، والانتصار فيها، وذلك فى أحاديث أخرى.

جاء هذا الإعلان فى وقت يشهد العالم فيه قيام الجيش الصهيونى فى «الكيان الإسرائيلى» الذى هو أكبر قاعدة للعولميين فى العالم، باقتراف أبشع الجرائم ضد الشعب العربى الفلسطينى بأبنائه المسلمين والمسيحيين فى فلسطين المحتلة التى أقامت فيها قوى الهيمنة الاستعمارية الغربية استعماراً استيطانيًا صهيونيًا عنصريًا فى قلب الدائرة العربية التى تتوسط دائرة الحضارة الإسلامية.

وتتضمن هذه الجرائم فرض حصار على الشعب كله، وعلى رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المنتخب الذى هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، والقيام بهجوم عسكرى شامل على المدن الفلسطينية ومخيمات اللاجئين والنجوع بسلاح أمريكى متطور براً وبحراً وجواً، وقتل المدنيين، واغتيال قياداتهم الشعبية، واعتقال الآلاف من الأطفال والشباب والرجال والشيوخ، باستخدام الدبابات الضخمة والطائرات إف ١٦ ومروحيات الأباتشى وبوارج بحرية، بما ليس له مثيل، كل ذلك بضوء أخضر من الإدارة الأمريكية الجمهورية برئاسة جورج بوش ونائبه تشينى ووزير دفاعه رامسفيلد، ثم إعطائه لمجرم الحرب الصهيونى إرييل شارون الذى انتخبه المستعمرون الاستيطانيون الصهاينة رئيس وزراء لحكومته التى شكلها من مجموعة مجرمى حرب يجاهرون بمخططات استكمال اغتصاب فلسطين القدس والمقدسات، وبطرد الفلسطينيين من وطنهم، واتباع مخططات لإبادتهم، وتهديد الأمة العربية جمعاء بدولها والدائرة الحضارية الإسلامية من حولها

بدولها أيضًا، وما تصريحات الوزير الإسرائيلى ليبرمان القادم من روسيا بشأن مصر والسد العالى ودول عربية أخرى إلا مثل على أمثلة كثيرة.

جاء هذا الإعلان والعالم يشهد فى الوقت نفسه مثلاً رائعًا لقدرة المقاومين لطغيان العالميين على الصمود أمام الهجوم ومقاومته بإرادة لا تلين نصب عينيها تحرير الوطن، وبروح الاستشهاد التى تتألق بالنور، وبما يتوافر من سلاح بسيط، وبعقل استوعب حقيقة المستعمر المستوطن الصهيونى، وطوَّر المخططات فى مواجهته، وستبقى صور هذه المقاومة ماثلة فى أذهان كل من شاهدها مرئية، أو سمع أخبارها فى عصر ثورة الاتصال، وقد دخلت التاريخ العسكرى فى فصل مقاومة الشعوب للطغاة العولميين الاستعماريين الاستيطانيين، ولا تزال انتفاضة الأقصى المباركة تعطى بسخاء لإحقاق الحق وهى تستكمل شهرها الثامن عشر، وما كان أعظم فشل القوات الإسرائيلية فى احتلال مخيم جباليا بعد اقتحامه واضطرارها إلى الخروج منه يوم ١٢/٣، كما كشف راديو لندن، الأمر الذى منعها من شن حملات اعتقالات واسعة فيه، وما أجلَّ صمود المخيمات الأخرى فى جنين وطولكرم والأمعرى وبقية المدن.

نستكمل المشهد العسكرى الراهن فى حرب العولميين فى بدء مرحلتها الثانية التى أعلن جورج بوش بدءها، فننتقل بأبصارنا من جبهة الحرب فى فلسطين إلى جبهة الحرب فى أفغانستان، حيث تدور معارك ضارية منذ بدأت القوات الأمريكية عملية «أناكوندا» «الأفعى» يوم ٢/٣ ضد عناصر طالبان والقاعدة فى منطقة شاهى كوت بجبال

أرما الشاهقة الواقعة على بعـد ١٥٠ كم جنوب كامل فى إقليم باكتيا قريبًا من الحـدود الباكستـانية، وقد وصفهـا المختصون بأنهـا العملية الأكبر حجـمًا، والأكثر خطورة منذ بدء الهجـوم العسكرى الأمريكى على أفغـانستان يوم ٧/ ١٠/ ٢٠٠٢؛ حيـث تشارك فيهـا مع القوات الأمريكية قـوات أوروبية وأخرى أفغانية، وتنقل وكـالات الأنباء حتى كتابة هذه السطـور يوم ١٣/ ٣/ ٢٠٠٢ أخبارًا متضـاربة عن قيادة هذا الطرف، نخرج من النظر فيها بأن الحرب فى هذه الجبهة مستمرة، ولم تحسم بعـد، كما حاولت وزارة الدفاع الأمـريكية أن تصور قـبل فترة وجيزة بقولها إن القوات الأمريكية وقـوات التحالف الشمالى الأفغانى نجحت فى القضاء تمامًا على حركة طالبان وتنظيم القاعدة، وفى فرض التسـوية التى أرادت فرضـها، وهكذا نقـرأ تصريحًا للجـنرال جويندا الأفغـانى عن نجاح العـملية وانتـهائهـا وانسحاب من بـقى من قوات الطالبـان والقاعـدة صوب حـدود باكستـان، بينمـا صرح مسـؤولون عسكريون أمريكيون بارزون بأن المعـركة لم تنته بعد، وأن ألف جندى أمريكى مازالوا فى ساحتها.

وقد أعلن وزير الدفـاع الأمريكى رامسـفيلد بأن العـمليات الدائرة تهدف إلى إجبار مسلحى طالبان والقاعدة على الخروج من مخابئهم، كما نقـلت وكالات الأنباء عن وزير الدفاع الأفـغانى محمـد فهيم أن مسلحى طالبـان والقاعـدة نجحوا فى إعـادة تجميع قـواتهم فى أربعة أقاليم شرقـية، وأضاف أنهم تسلحوا من جديـد، ويواصلون تقدمهم فى هذه المناطق، وقـد قدَّر المسـؤولون الأمـريكيون عـددهم بأقل من مائتـين، ثم صححوا العـدد إلى حوالى ستـمائة، وتستخـدم القوات

الأمريكية أنواعًا جديدة من الأسلحة مثل القنابل الحرارية، وقد سقط من الأمريكيين ما لايقل عن ٨ جنود و٤٠ جريحًا مع مئات القتلى من القوات الأفغانية الحكومية، وتعليل ذلك، كما أوضح أحمد إبراهيم محمود فى مقاله عن العملية فى أهرام ٣/١٣ أنه يتم فى إطار استراتيجية أمريكية تقوم على إسناد مهمة ملاحقة عناصر طالبان والقاعدة للقوات المحلية الأفغانية، لما يحمله بقاء القوات الأمريكية فى تلك المناطق من مخاطر كبيرة.

أبرز ما تجلى فى الجبهة الأفغانية فى هذه الحرب أثناء هذه العملية، هو روح الصمود لدى مقاتلى طالبان والقاعدة، فحين جرى تخييرهم خلال القصف بالقنابل الحرارية بين الاستسلام أو القتل فى مواقعهم، رفضوا الاستسلام تمامًا، وأبدوا إصرارًا وتصميمًا أثار دهشة الأمريكيين الذين استذكروا ما فعلوه مع أسرى طالبان والقاعدة فى أفغانستان، وفى معسكر جوانتانامو من إذلال وامتهان وانتهاك للقانون الدولى، وحقوق الإنسان فى حالة الأسر، الأمر الذى ساعد على أن يأخذ المقاتلون ضد هيمنة العولمة من طالبان والقاعدة قرارهم مستحضرين جوهر كلمة طارق بن زياد العدو أمامكم والأسر من ورائكم، وليس لكم إلا الصمود والصبر والقتال.

لقد اضطرت روح الصمود هذه القوات الأمريكية للقيام بانسحاب مفاجىء قبل انتهاء العملية، مما أثار انتقادات واسعة فى الإعلام الأمريكى؛ لأنه يمكن أن يوجد أسطورة جديدة لطالبان، وتجدر الإشارة إلى أن اشتباكات حدثت فى صفوف القوات الأفغانية عكست تناقضات قبلية تاريخية، وأثارت حساسيات حادة، ومجرد وقوعها فى

جاردنر يعنى كمـا يقول أحمد إبراهيم محمود فى مـقاله القيِّم: "إن الحملة العسكرية الأمريكية لم تحـقق أهدافها بصورة كاملة، وإن تلك الاشتباكات تندرج فى إطار استراتيجية محددة تطبقها طالبان والقاعدة تقوم عل إعـادة تجميـع قواتها فى عـدة جبال ومناطق أفـغانيـة لفتح جبهات جديدة كل فترة، واستنزاف القوات الأمريكية».

ننتقل من ثم بأبصارنا فى متابعـتنا للمشهد العسكرى الراهن فى هذه الحرب إلى الفلـبين، فنجد قـوات أمريكيـة خاصة هناك، وقـد نقلت وكالات الأنبـاء يوم ٣/١٢ خبـر إعلان قائد الجـيش جزيرة باسـيلان جنوب الفلبين أن اشتباكات وقعت بين القوات الفلبينية بمساعدة طائرات التجسس الأمريـكية مع جماعة أبو سياف فـى باسيلان، وأشار أنه تم حشد ١٦٠ من القوات الأمـريكية الخاصة فى باسيلان لمـساعدة القوات المحلية، وقال متـحدث رسمى أن طائرات تجسس أمريكيـة تقود حركة الطيران هناك، وهكذا تتبدى ملامح جبهة أخرى فى حرب العولمة.

لقد أعلنت واشنطن عن إرسال قوات أمريكيـة إلى جورجيا واليمن فضـلاً عن الفلبين، وذلك بحجـة «مطاردة عناصر الإرهاب الدولى» والحيلولة دون تحول هذه الدول إلى ملاذ طويل الأمد لشبكة القاعدة، ووفرت واشنطن مسـاعدات عسكرية للدول الثلاث أغلبـها فى صورة معـدات عسكرية وتدريب، وقـد تساءلت روسـيا عن أبعـاد الوجود العسكرى فى جـورجيا إحدى جمـهوريات الاتحاد السوفـيتى السابق، ودعاها ذلك إلى إرسـال وزير دفاعـها لواشنطن لبـحث الموضوع مع موضوعات أخرى، وأحد هذه الموضوعات ورود اسم روسيا بين سبع

دول مرشحة لضربات نووية أمريكية، كما جاء فى تقرير أمريكى تحدثت عنه صحيفة لوس أنجلوس تايمز.

أخيرًا نتوقف فى المشهد العسكرى الراهن فى حرب العولميين فى بدء مرحلتها الثانية أمام ما صرح به تومى فرانكس رئيس أركان الجيش الأمريكى، ونقلته وكالات الأنباء أهرام ٣/١٣ بأن عدد قوات التحالف الدولى فى آسيا الوسطى بلغ ٦٠ ألف شخص، فى وقت يقول فيه محللون أمريكيون ستحتفظ بقواتها العسكرية، وتعمل على توسيعها فى جمهوريات أخرى بآسيا الوسطى.

ويؤكد الخبراء أنه إذا كان السبب المباشر للوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة الحرب ضد طالبان والقاعدة، فإن له الآن أسبابًا أخرى تتعلق بالمصالح النفطية الأمريكية هناك، وبتأمين عدم دخول أعضاء القاعدة، وبما تسميه التطور الاقتصادى والديموقراطى للجمهوريات الإسلامية، ويوجد الآن ١٠٠٠ جندى أمريكى بقاعدة فى جنوب أوزباكستان وقوات أمريكية فى قيرغيزستان.

يتداعى إلى الخاطر عند هذا الحد ما يقوله الخبراء العسكريون من أن الانتشار العسكرى الأمريكى امتد إلى أغلب أنحاء كرتنا الأرضية فى صورة لم يعرفها العالم من قبل، كما يتداعى إلى الخاطر حديث الرئيس بوش عن كوريا الشمالية وإيران والعراق التى وصفها فى خطابه عن حال الأمة، وأطلق عليها محور الشر، وكذلك تصريحاته بشأن الهجوم على العراق، وأيضًا رحلة نائبه تشينى الجارية حاليًا إلى تسع دول لمناقشة هذا الموضوع.

وبعد، فيا له من مشهد عسكرى فى حرب عولمة تقودها الولايات

المتحدة الأمـريكية. وإن لنا أن نتوقع على الصعيـد العسكرى حدوث تداعيـات فى أكثر من جـهة، وطبيعى أن تتـركز أنظارنا على جبـهة فلسطين التى لا بديل فيهـا أمام المقاومين للعولمة ولقاعدة الاسـتعمار الصهـيونى إلا استـمرار المقاومـة والانتصار والتـحرير، وهذا يتطلب متابعة الحديث للتعرف على توجهات طرفى الحرب وتحركاتهم.

التوجهات الأمريكية والتحركات.. إلى أين؟!

يتابع «المعنى بالتاريخ مـتشوف المستقـبل» النظر فى «حرب العولمة» وقد استقر رأيه بعد تفكّر على تسميتها، فاسم «حرب العولمة» يتضمن الإشارة إلى عـصرنا الذى حمل اسم «عصـر العولمة»، وهو يدل على أن قوى العولمة التـى تقودها الولايات المتحدة الأمريـكية تخوض هذه الحرب بعـد أن أعلنتها، كمـا يدل على أن المقاومين للعـولمة الداعين «للعالمية» يخوضـونها فى مواجهة «العولميـين القارونيين الجدد». وهذا المصطلح «حـرب العولمة» هو بديل عن المصطلـح الذى أطلقتـه قوى العـولمة «الحـرب ضـد الإرهاب والإرهابيـين»، والذى يضطر من لا يقبلونه إلى إضافـة كلمة تبين رفضهم لهذا الوصف فـيقولون «الحرب ضد (ما يسمى) الإرهاب» أو «الحرب ضد (ما يزعم) بأنه إرهاب».

لقد ختم نائب الرئيس الأمريكى ديك تشينى يوم ٢١/ ٣/ ٢٠٠٢ رحلة فى مطلع المرحلة الثانية من حرب العـولمة التى أعلنها رئيسه يوم ١١/ ٣/ ٢٠٠٢ بعـد سـتـة شـهـور من زلزلة ١١/ ٩/ ٢٠٠١ الأمريكية، وذلك بعد أن زار تشـينى عشر دول، هى بريطانيا والأردن ومـصر والـسعـودية واليـمن وقطر والبـحـرين وعمـان، ثم الكيـان الإسرائيلى فتـركيا فى غضون عشـرة أيام، وكان هدفه المعلن من هذه

الرحلة هو التباحث بشأن «تحقيق هدف إدارة بوش التالى بعد أفغانستان الذى هو إيقاف الإرهابيين «والدولة المارقة» - على حد وصفه - عن تطوير أسلحة الدمار الشامل (وفق ما نقلت عنه هيرالد تريبيون فى عددها يومى ١٦ و١٧/ ٣/ ٢٠٠٢)، وكذلك دراسة إمكانية ضرب العراق بخاصة».

ما هى توجهات إدارة بوش الأمريكية التى تقود هذه الحرب؟

فى خطاب افتتاح هذه المرحلة أعلن الرئيس بوش فى احتفال بالبيت الأبيض حضره حوالى ١٣٠٠ شخص و١٠٠ من سفراء الدول و٣٠٠ من أسر ضحايا الزلزلة أنها تستهدف «حرمان الإرهابيين من إمكان الحصول على أى ملجأ» وطالب الدول الحليفة بالمساعدة فى «القضاء على الطفيليات الإرهابية التى تهدد هذه الدول والسلام فى العالم». وأشار إلى أنه «يتعين على كل إرهابى أن يعيش هاربًا، بحيث لا يكون لديه مكان يستقر فيه أو يختبئ، أو يشكل تنظيمًا، وأن لا تدعمه دولة، بل وحتى حرمانه من مكان آمن ينام فيه». ودعا دول التحالف الدولى معه إلى الانتباه بشكل جاد للخطر الخاص بحصول الجماعات الإرهابية على أسلحة الدمار الشامل، محذرًا إياها من أن «عدم التحرك ليس خيارًا مطروحًا»، كما حذر من أن بلاده «لن تكف عن مواجهة الدول الداعمة للإرهاب أو الساعية لامتلاك أسلحة نووية وكيماوية وبيولوجية» قائلاً: «إن الجماعات الإرهابية تحاول الاستحواذ على هذه النوعية من الأسلحة وسوف تستخدمها بلا ضمير». ولاحظت وكالات الأنباء أن بوش لم يذكر فى خطابه هذا أسماء تنظيم القاعدة أو كوريا الشمالية والعراق وإيران التى سبق

ووصفها بأنها تمثل «محوراً للشر)، واكتفى بالتحذير مشيراً إليها ضمنًا، كما لاحظوا أنه اختتم خطابه بالدعاء بأن يبارك الله التحالف الدولى المناهض للإرهاب بدلاً من دعائه المعهود بمباركة الولايات المتحدة، ولفت الانتباه أنه ذكر أسماء دول جورجيا والفلبين واليمن معلنًا تقديم عون أمريكى لها فى مواجهة عناصر القاعدة.

إن توجه إدارة بوش فى المرحلة الثانية من حرب العولمة واضح كفلق الصبح، وهو مهاجمة دول وتنظيمات وأفراد بحجة أنهم «إرهابيون»، ويستوقفنا فى هذا الخطاب أسلوب القطع والحسم، فعلى الدول الحليفة لأمريكا التحرك، ولا خيار آخر مطروح، ولن تكف بلاده عن مواجهة الإرهابيين، كما تستوقفنا النعوت التى يصفها بها هؤلاء فهم «طفيليات» وسوف يستخدمون أسلحة الدمار الشامل «بلا ضمير»، ونقف أيضًا أمام اختتامه بالدعاء، وللتحالف الدولى هذه المرة، وأنه خص اليمن بالذكر موضحًا بأنه مهدد بأن يصير أفغانستان أخرى.

كان بوش قد شرح هذا التوجه بإسهاب تفصيلى فى خطابه الأول عن حال الاتحاد بعد عام من توليه يوم ٣٠/ ١/ ٢٠٠٢، فالمستهدف هو «عالم الإرهاب القائم تحت الأرض»، وقد سمى عدداً من تنظيمات المقاومة لطغيان العولمة كمثال، وكان لافتًا أنها «مقاومة مسلحة» حزب الله وحماس والجهاد وجيش محمد الباكستانية، وذكر أنها تنتشر فى ١٢ دولة، والمستهدف أيضًا هو دول ثلاث وصفها بأنها محور الشر «العراق وإيران وكوريا الشمالية»؛ لأنها تحاول تطوير أسلحة الدمار الشامل. وفصّل شرح خطر كل منها، والتحركات

ضمن هذا التوجه واسعة شملت إرسال مئات العسكريين الأمريكيين، وانتشار البحرية الأمريكية، والتعاون مع دول ذكر منها روسيا والصين والهند، مشيرًا إلى محو خصومات قديمة، فضلاً عن التخطيط المشترك مع الحلفاء الأوروبيين وفى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وأما تكلفة هذه الحرب فهى، كما أوضح بوش، ثلاثون مليون دولار يوميًا، أى مليار دولار فى الشهر. وذلك من أجل «تمويل استراتيجية شاملة ومتواصلة للأمن الداخلى تركز على أربعة مجالات رئيسة هى الإرهاب البيولوجى، وسرعة الاستجابة فى حالات الطوارئ، وأمن المطارات والحدود، وتحسين أداء المخابرات» وتكشف هذه المجالات عن ملامح هذه الحرب.

لافت بقوة ما جاء فى استهلال ذلك الخطاب عن حال الاتحاد وأمريكا فى حالة حرب. العالم المتحضر مهدد بأخطار لا سابق لها، والاقتصاد يعانى من الكساد، ومع ذلك فإن حالة الاتحاد لم تكن أقوى مما عليه الآن» لافت أيضًا عاصفة التصفيق وصيحات التأييد من أعضاء الكونجرس وكبار القادة العسكريين وغيرهم من كبار الشخصيات الذين كانوا حاضرين، ولافت أخيرًا دور «استطلاعات الرأى» فى تعبئة «العامة» من الأمريكيين، وحشدهم لتأييد «حرب العولمة» هذه، وذلك ضمن دور «إعلام» يسيطر عليه قوى الهيمنة العولمية. وقد تحركت مؤسسات استطلاع الرأى عشية خطاب بوش يوم ١١/ ٣/ ٢٠٠٢ وأعلنت أن ٨٨٪ من الأمريكيين أعربوا عن تأييدهم الأسلوب الذى يدير به بوش الحملة العسكرية فى أفغانستان،

وأن ٨٠٪ مستعدون لتحمل المزيد من الخسائر فى الأرواح فى هذه الحرب، كما جاء فى صحيفة واشنطن بوست.

نعود إلى النظر فى رحلة ديك تشينى - نائب الرئيس الأمريكى - لنرى كيف تجلى فيها هذا التوجه نحو الحرب، ونقف بخاصة أمام زيارته لحاملة الطائرات الأمريكية «جون ستنس» الرابضة قرب سلطنة عمان فى بحر العرب على مسافة ١١٢٠ كم من أفغانستان.

لقد جعل تشينى زيارته هذه تظاهرة قوة عسكرية، حيث استقبله جمهور من البحارة بالتحيات يضم ٥٢٠٠ وسط ذخيرة سلاح فيها أحدث القنابل المتطورة وما يعرفه العسكريون بـ FA-188، وأكد تشينى فى خطابه أمام الجنود أن هدف الإدارة الأمريكية التالى هو منع الإرهابيين والأنظمة التى ترعاهم من تهديد أمريكا وأصدقائها وحلفائها بأسلحة الدمار الشامل، واعتبر المراقبون أن مجرد ظهوره هناك هو إشارة أمريكية لعزم واشنطن على تثبيت وجود عسكرى فى المنطقة، وأن حديثه عن جدية خطر أسلحة الدمار الشامل كان بمثابة جواب على ما سمعه من المسئولين العرب الذين قابلهم بشأن عدم ضرب العراق، وحرص تشينى على أن يزور فى الحاملة التى تحمل سبعين طيارة على ظهرها «مركز توجيه القتال»، حيث استمع لشرح، وأكل مع البحارة، وأقسم مع جماعة منهم جددوا تطوعهم، ولاحظ مايكل جوردون الذى غطى هذه الزيارة لهيرالد تريبيون أن تشينى كان بعد ١١/ ٩ قد قال بعدم وجود دليل على علاقة العراق بالزلزلة، وذلك أثناء التعبئة الأمريكية للمرحلة الأولى من الحرب فى

أفغانستان، ولكنه فى الأيام الأخيرة شرع فى الحديث عن خطر العراق على أمريكا، واصفًا إياه بأنه بالغ، ويمكن أن يصل إلى درجة الهلاك.

لماذا وقع هذا التحول وغدا ضرب العراق هدفًا فى المرحلة الثانية من حرب العولمة تعلن واشنطن عنه، وتتحرك بقوة للتحضير له؟

يورد المحللون عددًا من الأسباب، نذكر منها فى هذا الحديث سببين يتصلان بالتوجه الأمريكى فى هذه الحرب:

الأول - سبب داخلى أمريكى هو رغبة إدارة بوش ألا يفيق الشعب الأمريكى من «ذهول الزلزلة»، ويتحول إليها ليحاسبها وفق تقاليد راسخة لديه حديدية عن التقصير المشين الذى عانت منه رؤيتها ومعرفتها وتحليلها لخطر ماثل بوضوح، وهكذا فلتشغله عنها بمتابعة حرب بدأتها، ولتبقه مستنفرًا، فى ظل حالة حرب تبرز فيها قوانين طوارئ.

الآخر سبب خارجى أمريكى هو أن الولايات المتحدة وجدت نفسها بعد ١١/ ٩ تعانى من أزمة ردع بعد أن تعرضت فيه لرد فى عقر دارها أصاب رمزين أساسين فيها قوتها العسكرية وقوتها المالية، وكاد يصيب رمزًا ثالثًا، وهى التى تفردت قطبًا واحدًا فى عالمنا بعد زلزالى أوروبا الشرقية والخليج بأن تردع على هواها جميع قوى العالم ودوله. وهكذا سارع المخططون الاستراتيجيون الأمريكيون إلى صياغة وثيقة «تحديد سياسة الدفاع الأمريكية» وأصدرها فى ١٠/ ١/ ٢٠٠٢ متضمنة استراتيجية «حرب العولمة»، وطارحة نظرية «النصر التام»،

وملوحة «بحرب نووية هجومية»، وقد أحسن عرضها وتحليلها المفكر الاستراتيجي العربى أنور عبد الملك فى مقاله البيان الاستراتيجى (الأهرام ١٩/ ٣).

وبعد.. فإن هذا التوجه الأمريكى نحو الحرب فى مرحلة ثانية من حرب العولمة التى نعيشها، وما يقترن به من سياسة خارجية، يسبب لحلفائها من الدول «لخبطة» ما بعدها «لخبطة»، وبخاصة بعض الدول الأوروبية. كما يطرح داخل الولايات المتحدة وأوروبا أسئلة وتساؤلات، وقد سلطت «فلورا لويس» المخضرمة الضوء على ذلك (هيرالد تريبيون ١٦ و١٧/ ٣/ ٢٠٠٢) قائلة: «إن الرئيس جورج بوش يلح على وصف سياسته بأنها قمة فى وضوحها واستقامتها (فأنت إما معنا أو ضدنا)، (ولا حصانة ولا حياد فى الحرب ضد قوى الشر المتمثلة بالإرهاب)، وهو يتكلم ببساطة وبيان، ولكن وزير خارجية فرنسا هيوبرت فيردين يقول: (هذا تبسيط) ويعنى بأنه غير واضح ومجرد عبارات غير حقيقية، ومعظم الآخرين ملخبطون على غير يقين، ولا ارتياح لمقاصد واشنطن الحقيقية».

وتضرب فلورا لويس مثلاً بواحد من المؤتمرات الدولية التى تعقد هذه الأيام لبحث هذه «الورطة»، جرى عقده فى مونت كارلو مركزًا على مشاكل البحر المتوسط، وقد شارك فيه عدد من رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية الغربيين وقيادات بارزة. وكان من بين ما توصل إليه الحوار أن الرئيس بوش يقول: إنه مصمم على أن يدافع عن نفسه، وهذا طبيعى ومعقول، ولكن مجموعة أسئلة حول «النهايات

والوسائل» مطروحة بإلحاح. فالعدو جرى تحديده بأنه الإرهاب الذى هو غير موجود على أية خريطة، والذى يمكن أن يتجلى فى أى مكان. وتختم فلورا لويس حديثها «بأن المجتمعين شكوا وحذورا، ولكن بلادهم لم تعد مالكة على زمام أمورها، ولذا لم يبق أمامهم إلا مزيدًا من الاجتماعات والحديث مع تسليمهم بأن عملاً ما يجب أن يتخذ».

إن هذا الحال فى أوساط «التحالف» له تداعياته التى ستؤثر على مسار «حرب العولمة» وهو يستحق حديثًا خاصًا، ولا تزال الولايات المتحدة فى بداية المرحلة الثانية من الحرب مستهدفة «انتفاضة الأقصى» فى فلسطين، حيث إحدى أهم الجبهات دعمًا للكيان الإسرائيلى الاستعمارى الاستيطانى العنصرى الصهيونى، بينما تستمر مقاومة شعب فلسطين العربى مبشرة بقدرة المقاومين لطغيان العولمة على الصمود فى هذه الحرب، والانتصار فيها.

دور القاعدة الاستعمارية الصهيونية ومعركة جبهة فلسطين

أشرع فى كتابة هذا الحديث بين السحر والفجر ليوم السبت ٣٠ محرم ١٤٢٣هـ - الموافق ١٣/ ٤/ ٢٠٠٢م، وقد استمعت إلى آخر أنباء حرب العولمة فى جبهة فلسطين، ومن بين هذه الأنباء أن كولن باول - وزير الخارجية الأمريكى - الموجود منذ مساء الخميس فى الكيان الإسرائيلى قرر إرجاء اجتماعه مع الأخ أبى عمار - الرئيس الفلسطينى - ياسر عرفات الذى كان مقررًا اليوم، وذلك فى أعقاب عملية استشهادية وقعت فى القدس الغربية ظهر أمس الجمعة، وصرح

ناطق رسمى أمريكى فى واشنطن أن الاجتماع يمكن أن يعقد يوم غد الأحد «إذا صدرت عن عرفات إدانة للعملية»، فيما فسرته إذاعة لندن بأن هذا الطلب الأمريكى يشبه الشرط. وذكرت الإذاعة أيضًا أن باول أعلن بعد لقاء استمر أربع ساعات مع مجرم الحرب إرييل شارون - رئيس الحكومة الإسرائيلية - أنه فشل فى إقناعه بوضع جدول زمنى لانسحاب قوات الجيش الإسرائيلى التى تحتل مدن الضفة الغربية وقراها منذ يوم أن اجتاحتها يوم الجمعة ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢م.

هذه الأنباء تدعونى إلى أن يكون حديثى هذا هو دور القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية فى حرب العولمة الجارية فى عالمنا، ومحاولة قراءة ما يجرى فى جبهة فلسطين، وذلك بطرح تساؤلات وتقديم عصارات وبلورة تشوفات.

التساؤل الأول الرئيس هو حول هذا الدور، والإجابة عنه تقتضى استحضار حقائق حرب العولمة التى نعيشها فى عصارات، وقد سبق لنا تفصيل شرحها فى أحاديث سابقة.

حرب العولمة هذه هى حرب تشنها قوى العولمة الطاغوتية بقيادة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على المقاومين لطغيان العولمة الساعين إلى «عالمية» أساسها العدل، بغية إخضاعهم وإنهاء مقاومتهم، وقد أطلقت عليها واشنطن اسم «الحرب ضد الإرهاب» فى محاولة لوصم «مقاومة الظلم» بأنها «إرهاب»، ودأبت على محاولة تعميم هذا الاسم من خلال آلتها الإعلامية الضخمة.

أعلن الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن بدء هذه الحرب فى ٧/

١٠/ ١ ٢٠٠ وانضم إليه فيها تونى بلير - رئيس وزراء بريطانيا - وذلك بعد حوالى أربعة أسابيع من زلزلة نيويورك وواشنطن يوم ١١/ ٩، وعملت أمريكا على إيجاد تحالف دولى معها، وباشرت الحرب فى جبهة أفغانستان مستهدفة إسقاط حكومة طالبان فيها، وتصفية تنظيم القاعدة الذى يقوده أسامة بن لادن، وعهدت إلى حكومة شارون فى القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية التابعة لها مهمة متابعة الحرب لإنهاء انتفاضة الأقصى فى جبهة فلسطين، التى انطلقت منذ يوم ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠م.

جاهرت أمريكا بأنها تستهدف المقاومين لطغيان العولمة الذين نسميهم الإرهابيين، أينما كانوا فى مختلف أنحاء كوكبنا الأرضى، ولكنها خصت دائرة الحضارة الإسلامية بحملة شعواء ركزت على المساس بالدين الإسلامى؛ لأنه يعلى من معنى الجهاد ضد الظلم ومن الاستشهاد فى سبيل سيادة العدل. وذلك لأن المقاومة ضد طغيان العولميين ضد قاعدتهم الصهيونية العنصرية فى فلسطين تجلت فى صور رائعة، وأثبتت فعاليتها. وكان حلف الأطلسى الذى يمثل مؤسسة العولميين العسكرية قد أصدر بيانه الشهير يوم ١٢/ ٢/ ١٩٩٢ إثر انهيار الاتحاد السوفيتى الذى أعلن أن الإسلام هو العدو بعد أن انتهت الشيوعية، بناء على توصية مراكز البحث التابعة للعولميين.

على مدى خمسة شهور استمرت المرحلة الأولى فى حرب العولمة هذه، شهد العالم فيها انتهاك أمريكا وحليفتها بريطانيا القانون الدولى فى أمور كثيرة على صعيد إعلان الحرب وصعيد العمليات الحربية، وصعيد معاملة الأسرى، وصعيد التعامل مع المدنيين، وتولى كبر

ذلك قادة العولميين، وبرز منهم بوش وتشيني ورامسفيلد وباول ورايس مع تونى بلير، ومن قادة القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية التابعة لهم برز مجرمو الحرب شارون وبن إليعازر وشيمون بيريز وشاؤول موفاز. وحققت أمريكا فى هذه المرحلة الأولى إسقاط حكومة طالبان فى أفغانستان، وإنزال ضربات موجعة فى تنظيم القاعدة، وإقامة حكومة أفغانية، ولكنها لم تستطع القبض على الملا عمر وأسامة بن لادن، واستمرت فى الظهور هناك أشكال من المقاومة، أما فى جبهة فلسطين فلم يستطع الصهاينة العنصريون أن ينهوا انتفاضة الأقصى التى استمرت فى المقاومة.

فى ١١/ ٣/ ٢٠٠٢ أعلن الرئيس الأمريكى بوش بدء المرحلة الثانية فى الحرب فى احتفال كبير فى البيت الأبيض، وأوضح أنها تستهدف «القضاء على الطفيليات الإرهابية»، و«أن عدم التحرك ليس خيارًا مطروحًا»، وكان فى خطابه بمناسبة مرور عام على توليه السلطة يوم ٣٠/ ١/ ٢٠٠٢ قد سمى «إيران والعراق» مع «كوريا الشمالية» «محور الشر»، وسمى عددًا من تنظيمات المقاومة التى تقاوم الاحتلال الإسرائيلى والصهيونية العنصرية فى وطننا، حزب الله وحماس والجهاد «منظمات إرهابية»، وكشف عن توجه واضح لضرب العراق، ثم أرسل نائبه تشينى إلى منطقتنا، فزار عشر دول، ليدرس إمكانية تنفيذ ذلك وعاد يوم ٢١/ ٣/ ٢٠٠٢ بأفكار بلورها بشأن مجرد الحرب فى هذه المرحلة، وهنا برز بقوة فى هذه الأفكار دور القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية المباشر. وكانت إدارة بوش قد اتفقت مع الحكومة الإسرائيلية برئاسة مجرم الحرب شارون على

خطوط هذا الدور منذ تولى كل منهما السلطة فى مطلع ٢٠٠١، مجددين التحالف الاستراتيجى بين ريجان وبيجين.

حكومة شارون الإسرائيلية كانت قد أعلنت منذ توليها معاداتها للسلطة الفلسطينية وللرئيس الفلسطينى المنتخب ياسر عرفات، وجاهرت بسعيها إلى ضم جل الضفة الغربية إلى الكيان الإسرائيلى، ومثلها التزم الرئيس الأمريكى بوش بعدم مقابلة الرئيس الفلسطينى وبدعم المخطط الإسرائيلى عمليًا، مع الحديث عن «رؤية» أمريكية تتضمن وجود «دولة فلسطينية» تكفل أمن إسرائيل، وذلك لتهدئة العرب والمسلمين بعامة الذين انتقدوا «الانحياز الأمريكى لإسرائيل»، واعتبروه سبب التطرف لدى البعض، ولإقناع بعض الدول بالمشاركة فى حرب العولمة، واستمرت إدارة بوش منذ إعلانها الحرب على التصريح بأن «المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلى إرهاب»، و«أن أمريكا تتفهم ما تقوم به إسرائيل من ممارسات عدوانية إجرامية دفاعًا عن نفسها»، كما دأب الصهاينة على المجاهرة بأن «ما يقومون به من جرائم هو مشاركة فى الحرب ضد الإرهاب».

حقيقة أخرى تتعلق بما حدث داخل الولايات المتحدة منذ إعلان بوش بدء حرب العولمة، وهى ما حدث من تفويض الرئيس الأمريكى «السلطة المطلقة لكى يستخدم القوة ضد أى دولة أو منظمة أو شخص قام حسب تقديره هو بدعم الإرهاب»، ومنحه أربعين مليارًا من الدولارات، وتشكيله مكتب الأمن الداخلى، وسلسلة من القرارات المقيدة للحريات باسم الطوارئ، وإصدار الكونجرس «قانون الوطنية

الأمريكية» الذى من شأنه تعليق الحريات الأساسية لمدة أربعة أعوام، بما اعتبره عدد من الأمريكيين «مجيء الدولة الفاشية الثيوقراطية الأمريكية»، وهو عنوان كتاب الصحفيين الأمريكيين ستانتون وماديسون، الأمر الذى دعا نائب أوهايو دينيس كوشينتش فى كلمة ألقاها مؤخرًا أن يشرح ذلك كله بوصفه «دعاء من أجل أمريكا».

أتابع كتابة هذا الحديث بعد غروب اليوم نفسه، وقد نقلت وكالات الأنباء عن مسئول إسرائيلى أمنى «أن كولن باول زار أمس (الجمعة) الحدود الشمالية للكيان الإسرائيلى المحاذية للبنان»، وهى زيارة تحمل دلالة خاصة تتصل باهتمام أمريكا بأمن قاعدتها الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية، وجدوى هذه القاعدة فى تنفيذ المخططات الأمريكية تجاه لبنان وسوريا والعراق وإيران فى الجبهة الشرقية، كما نقلت الأخبار تأكيد باول حاجة إسرائيل للدفاع عن نفسها، فى إشارة واضحة للضوء الأخضر الأمريكى للاجتياح الإسرائيلى الذى دخل أسبوعه الثالث، واستمر أثناء وجود باول نفسه.

ونقلت الأخبار أيضًا قول باول مستدركًا «إن على إسرائيل أن تدرك العواقب البعيدة لحملتها العسكرية، وهى إشارة ثانية للتداعيات الاستراتيجية للحملة، تلت إشارته الأولى التى قالها بعد زيارة المغرب فى مطلع رحلته بشأن «تأثير ما يجرى فى جبهة فلسطين على المصالح الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة». ونقلت الأخبار عن عزم باول على لقاء ياسر عرفات «الأحد» بعد أن أصدر الرئيس الفلسطينى إدانة للعملية الاستشهادية الأخيرة فى القدس، ولكل ما أسماه العمليات الإرهابية ضد المدنيين الإسرائيليين والفلسطينيين، مشيرًا إلى الجرائم

الإسرائيلية الأخيرة فى جنين ونابلس وبيت لحم ضد الشعب الفلسطينى.

نعود إلى التساؤل المطروح حول دور «القاعدة الإسرائيلية» للولايات المتحدة الأمريكية فى حرب العولمة الجارية، فنجد أن الإجابة عنه تستكمل باستحضار ما جرى فى هذا الاجتياح الإسرائيلى لأرضنا الفلسطينية فى الضفة الغربية ولشعبنا هناك، بعد أن قمنا باستحضار حقائق حرب العولمة.

لقد بدأ الاجتياح الإسرائيلى يوم الجمعة ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢، وفى مساء ٣١/ ٣ خطب شارون قائلاً للإسرائيليين: «إن إسرائيل ستخوض حربًا شاملة ضد الإرهاب الذى ينظمه ويدبره رجل واحد هو ياسر عرفات». وقال: «إن الرئيس الفلسطينى هو عدو إسرائيل والعالم الحر»، وحدد انتماء إسرائيل بأنه للغرب والعالم الحر (كذا!!)، وكشفت صحيفة يديعوت أحرونوت يوم ٣٠/ ٣ على لسان المعلق العسكرى أليكس فيشمان مخطط الاجتياح وهو «احتلال المدن الفلسطينية تدريجيًا، والبقاء فيها مدة طويلة، وتستمر المرحلة الأولى من الاجتياح أسبوعًا، يقوم أثناءه الجيش الإسرائيلى خلال وجوده فى المدن الفلسطينية بتدمير البنية التحتية للسلطة الفلسطينية، والدخول إلى المبانى، وتنفيذ الاعتقالات من منزل إلى منزل، ويتم استدعاء الاحتياطى الإسرائيلى، ثم تحاول إسرائيل فى الأسبوع الثانى إنهاء السلطة بمتابعة حصار رئيسها، وإيجاد من يتولى القيادة المحلية وينشغل بقتال المعارضة الإسلامية، فتزداد فرص نشوب حرب أهلية

فلسطينية».

منذ اليـوم الأول للاجتيـاح صرح كـولن باول قـائلاً: «لا يمكن مباشرة الحديث السياسى قبل أن يوقف العنف». معلنًا إعطاء الإدارة الأمريكية الضوء الأخضر للصهاينة العنصريين أن يقوموا بالحرب على الشعب الفلسطينى المقاوم فى جبهـة فلسطين، وفى مساء الخميس ٤/ ٤/ ٢٠٠٢ وهو اليـوم السابع للاجتـياح اضطر الرئيس بوش أمـام صمود المقاومة الفلسطينية، واستـشعار خطر تطور الهجوم الإسرائيلى إلى حرب شـاملة فى المنطقة أن يخطب طالبًـا انسحابًا إسـرائيليًا من المدن الفلسطينية، ثم أن يعلـن عن إرسال وزير خارجيتـه كولن باول إلى المنطقة بعـد أسبوع، بما يعنى عـمليًا إعطاء مجرم الحـرب شارون أيامًا سبعة أخرى فى استباحته المدن والمخيمات والشعب فى فلسطين.

وقد أشـار لأول مرة إلى اعتمـاد المسار السياسى إلى جـانب المسار الأمنى، الأمر الذى اعتبره بعض المعلقين تحولاً استراتيجيًا، ملاحظين أنه كان فى عـيد الفـصح قد صرح فى مـزرعتـه بأن «أمريكا تتـفهم التحركات الإسرائيلية وتدرك الأسباب وراءها، وعلى عرفات أن يقدم المزيد».

وكان الاثنان بوش وباول ينطلقان من «استراتيجية عند الجمهوريين الجدد»، كما تقول كاثلين كـريستيسن، وقد لاحظ المعلقون أن خطاب بوش هذا تضمن تحـولاً استراتيجيًـا حين ذكر المسار السـياسى بعد أن كان مقتصرًا على اعتماد المسار الأمنى الذى عهد للجنرال زينى بتنفيذه حين أرسله لفـلسطين، والفضل فى هذا التـحول هو المقاومـة، وقد

وصل كولن باول للكيان الإسرائيلى بعد أسبوع كانت خلاله أكثر الإعلانات الأمريكية «العولمية» تعبر عن هذا الخط السياسى وتعمقه، بينما يقوم الجيش الإسرائيلى بجرائمه مستخدمًا السلاح الأمريكى المتطور من مدرعات وطائرات وتقنية وأسلحة محرمة دوليًا، وهكذا تجلت صورة التكامل بين دور القاعدة الاستعمارية الصهيونية ودور الدولة العولمية التى تكفل لها البقاء فى المذابح التى اقترفها الجيش الإسرائيلى فى المدن والمخيمات الفلسطينية فى نطاق حرب العولمة الجارية.

أتابع الكتابة فجر يوم الأحد ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢، الأول من صفر الخير ١٤٢٣هـ، فأقف فى ختام هذا الحديث أمام ما استهدفته إدارة بوش الأمريكية وحكومة شارون الصهيونية من المعركة التى خاضتها فى جبهة فلسطين فى المرحلة الثانية من حرب العولمة.

الهدف الأول هو القضاء المبرم على مقاومة الشعب العربى الفلسطينى للاحتلال الإسرائيلى الصهيونى العنصرى، وفرض الحل العنصرى لقضية فلسطين، الذى فصّلت شرحه فى كتابى «لا للحل العنصرى»، وقد عبر شارون عن ذلك بقوله: «ما لم يشعر الفلسطينيون بأنهم مهزومون، فإن العودة إلى مائدة المفاوضات تظل مستحيلة، وحين ينهزمون يكون عليهم أن يقبلوا ما نعرضه».

الهدف الثانى هو التمهيد للمعركة التالية فى حرب العولمة التى أعلنت عنها إدارة بوش بضرب العراق وإيران وسوريا ولبنان، وتحضير المستعمرين المستوطنين الصهاينة لأداء دورهم فيها.

الهدف الثالث هو ترهيب دولنا فى الدائرتين العربية والإسلامية لشلهم عن التحرك، وتهيئتهم لإعادة فرض نظام الشرق الأوسط عليهم الذى تعهد أمريكا للكيان الإسرائيلى بقيادته.

إن استحضار يوميات معركة جبهة فلسطين فى حرب العولمة، بما فى ذلك أخبار اليوم، على مختلف الصعد المحلية والإقليمية والدولية يقطع بأن المعركة لم تحقق أهداف أمريكا والكيان الإسرائيلى منها، وأنها أصابتها بخسائر فادحة مادية ومعنوية تدلل على إمكانية فوز المقاومين للعولمة فى هذه الحرب الجارية.

إن الفضل الأول فى كسر بوش وشارون فى هذه المعركة على المدى المتوسط سيكون لمقاومَة الشعب العربى الفلسطينى البطولية الأسطورية، على الأرض فى الساحة فى المدن والقرى والمخيمات، والفضل الآخر هو لجميع من وقف معه من المقاومين للعولمة فى دائرتنا الحضارية العربية والإسلامية والدوائر الحضارية الأخرى فى عالمنا، وهذه المقاومة بشقيها تستحق حديثًا آخر يعرض ليومياتها وتداعياتها، وينظر بخاصة فيما أصاب المستعمر الاستيطانى الصهيونى من اهتزاز هز أركان كيانه الإسرائيلى، وفيما يحدث اليوم فى الولايات المتحدة من تحركات شعبية فى المجتمع المدنى فى مواجهة العولميين الأمريكيين الذين فرضوا عليه «مجىء الدولة الفاشية الثيوقراطية الأمريكية» بعد أن فضحتهم معركة جبهة فلسطين، وكشفت عن قيمهم التى تعادى القيم الإنسانية.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة



هذا الكتاب

يتناول «القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة» من خلال النظر فى أحداث العامين الأولين من القرن الحادى والعشرين الميلادى (١٤٢١ - ١٤٢٣هـ)، حيث شهدنا فيهما محاولة التحالف الاستعمارى الصهيونى الحصول على اعتراف فلسطينى بالاغتصاب الإسرائيلى للقدس، كما شهدنا فيهما انتفاضة الأقصى المباركة، وهى تنطلق تهز أركان المستعمر المستوطن الصهيونى، ثم واجهنا فيهما حرب العولمة التى شنتها قوى العولمة الطاغوتية بقيادة الإدارة الأمريكية على المقاومين للعولمة إثر وقوع زلزلة ٢٠٠١/٩/١١ فى نيويورك وواشنطن.

يسلط الكتاب أضواء على تاريخ القدس تؤكد عروبة بيت المقدس، ويتناول بالنظر انتفاضة الأقصى فى جذورها ومسارها على مدى تسعة عشر شهراً، ويعرض بالتحليل لظاهرة الاستشهاد التى تألقت فيها، ويتأمل فى الحدث الزلزلة وتداعياته، وفى الحرب الفريدة التى تلته ولا تزال مشتعلة، وذلك فى بحوث ومقالات استهدفت تقديم قراءة لهذه الحرب.

إن استمرار المقاومة وتصعيدها هو أحد أهداف هذا الكتاب، الذى رفع شعار «الاعتصام بالمقاومة» وهو يصدر فى وقت يشن فيه التحالف الصهيونى حملة إعلامية مسعورة على المقاومة، محاولاً وصم[illegible] بينما يمارس هو بطرفيه الأمريكى والإسرائيلى أفظع أنواع [illegible] الرسمى، ولا بديل عن فضحه، والتصدى له، والانتص[illegible]

الناشر: مركز الإعلام العربي
ت: 3833361(00202) - 3844422(00202) - 7445455(00202)
ف: 3851751 (00202) - ص.ب 93 الهرم - الجيزة - مصر